الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 42 - July 2002

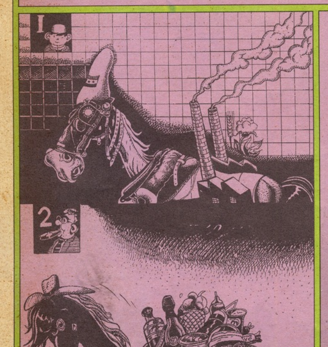
مجلة شهرية . العدد الثانى والأربعون . السنة الرابعة . يوليو ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات



ثورة يوليو .. خمسون عاما

ملك تحت الحصار!

محمد حسنين هيكل





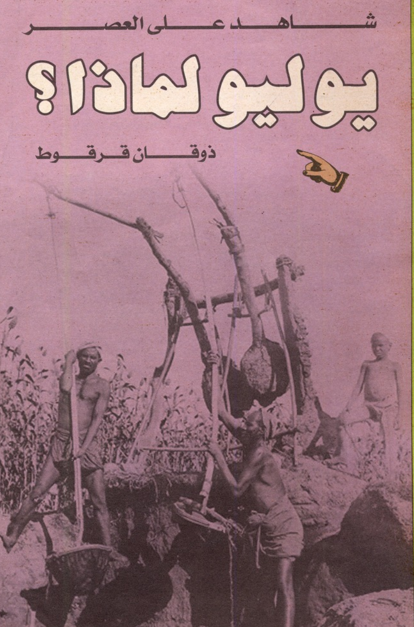
ماذا فعلت ثورة يوليو بالاقتصاد المصرى؟

جلال أمين

شاهد على العصر

يوليو لماذا؟

ذوقان قرقوط



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثانى والأربعون
يوليـة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد :

"تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة"

كتّاب العدد :

- أحمد فتحى سرور.. أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق جامعة القاهرة ورئيس مجلس الشعب المصرى.
- أحمد فؤاد سليم.. فنان وناقد تشكيلى.
- جمال إسماعيل.. صحفى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- جيف مادريك.. أستاذ مساعد فى العلوم الاجتماعية وكاتب فى جريدة النيويورك تايمز.
- حسن المستكاوى.. صحفى.
- ديفيد بلانكس.. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- ذوقان قرقوط.. كاتب من سوريا.
- رضوان السيد.. أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- طارق الشناوى.. صحفى.
- عماد جاد.. خبير بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

مــــن المتطــــرفون..؟!

أصبحت إسرائيل فصلاً جديدًا فى «التاريخ الكارثى لليهود»! قد تكون العبارة مبالغًا فيها. وقد تكون غريبة اليوم على أسماع الذين استمعوا قبل أيام فقط إلى «إملاءات بوش»، المختلف عليها بالضرورة حسب مخاوف وتمنيات المستمعين الذين «جلسوا» طويلاً بانتظارها. والذين سيجلسون لاحقًا - طويلاً طويلاً - ليختلفوا، بالضرورة أيضًا، حول تفسير معانيها الفضفاضة .. وقياس مدى الالتزام «حرفيًا» بشروطها «مستحيلة القياس».

أيًا ما كان، فصاحب العبارة «بنيامين بيت هالحمى»، وهو أستاذ فى جامعة حيفا ومتخصص فى علم نفس الدين. نقلها عنه الباحث الفلسطينى الجاد «حسن خضر» فى دراسته المهمة «قصر الأوانى المهشمة: دراسات فى نقد الصهيونية» (مدار، المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية، رام الله، مارس ٢٠٠١) .

يستنتج الأكاديمى الإسرائيلى أن الانتفاضة الفلسطينية كانت صدمة كبيرة الحجم للشعب الإسرائيلى كله، وربما كانت الضربة أقوى من زلزال أكتوبر ١٩٧٣، لأنها أعادت الحركة الصهيونية برمتها (قصة نجاح مدهشة تبلغ نحو مائة عام) إلى نقطة الصفر تقريبًا. لقد أجبرت الانتفاضة الأولى، بهذا المعنى، المجتمع الإسرائيلى على فتح عينيه على حقيقة وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين، وأخذ الشباب الإسرائيلى، الذى حاولت المؤسسة السياسية اليسارية المنافقة أن تزين له مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، يتساءل عن الحل، وعن الساسة الذين يتكلمون عن الديموقراطية فيما هم يمارسون الاستعمار. ويتوصل الكاتب «الإسرائيلى» إلى استنتاج يراه صادمًا لكل من راهن على «ديموقراطية غربية فى قلب شرق متخلف..»، ويدعو فى الصفحات الأخيرة من دراسته إلى ضرورة التعامل مع قيام الدولة العبرية بوصفها فعلاً كولونياليًا/استعماريًا ينتمى فى طبيعته إلى التفكير الأوروبى، خلال القرن التاسع عشر، الذى كان يستلهم نظريات التفوق العرقى والعنصرية! التى بررت هيمنة الاستعمار على الشعوب الأدنى عرقيًا.



قبل عام بالضبط، وفى يوليو ٢٠٠١ رحل إسرائيل شاحاك، أحد أكثر اليهود مقاومة للعنصرية اليهودية، بعد أن ترك كتابًا مهمًا، تقدم «وجهات نظر» قراءة لبعض فصوله فى هذا العدد، عن «الأصولية اليهودية فى إسرائيل»، والقائمة على العنصرية فى أقصى درجاتها تطرفًا. وعلى التفوق العرقى، المتجذر فكريًا. والذى يبدو أنه يتنامى باطّراد داخل المجتمع الإسرائيلى - رغم أنف قرن جديد قد بدأ - ولأسباب مختلفة ومتباينة، لا تخلو من الانتهازية السياسية.

يقدم إسرائيل شاحاك ونورتون ميتسفنسكى (وهو أمريكى يعمل أستاذًا للتاريخ فى جامعة سنترال كونكتكت) فى دراستهما شرحًا لتيارات الأصولية اليهودية وجذورها التاريخية وتأثيرها المتصاعد فى الساحة السياسية وأثرها الفاعل على عمليات اتخاذ القرار السياسى فى الوقت الحاضر. ويبين شاحاك وميتسفنسكى أن الصورة العلمانية الديموقراطية الرائجة فى الغرب عن إسرائيل ليست حقيقية، فالمجتمع الإسرائيلى منقسم إلى أبعد حدود الانقسام، والتيارات الدينية الأصولية منقسمة فيما بينها كذلك حول المعتقدات الدينية واللباس والعلاقة مع العالم الخارجى ومع الآخرين من غير اليهود، وفى النظر إلى ضرورة قيام دولة إسرائيل قبل مجىء المخلص، وفى ضرورة القضاء على المسيحية، وهى أمور مغيبة فى الإعلام الغربى وغير معروفة إلا لدى فئة قليلة من المتخصصين فى الشؤون الإسرائيلية.

ويحاول الكتاب المهم رصد ملامح الطفرة الكبيرة التى حدثت فى النمو الأصولى الإسرائيلى المتطرف فى دولة إسرائيل الحديثة خلال السنوات الأخيرة. والذى لعب دورًا رئيسًا فى اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق رابين، وقتل ٢٩ مسلمًا أثناء الصلاة على يد المتطرف اليهودى أمريكى المولد «جولد شتاين». ويشير المؤلفان إلى أن المناصرين للأصولية اليهودية فى إسرائيل يقاومون العدالة الاجتماعية والمساواة، ويشيران إلى الدراسة التى قام بها عالم الاجتماع اليهودى «بورش كيميرلنج» والتى قال عن نتائجها: إن قيم الدين اليهودى على الأقل فى جانبه الأرثوذكسى والقومى الذى ينتشر فى إسرائيل الآن لا يمكن أن تتماشى أو تنسجم مع قيم الديمقراطية ولا توجد أى متغيرات لا القومية ولا القيم الاجتماعية أو الاقتصادية ولا التعليمية يمكنها أن تؤثر على السلوك الذى يتبناه اليهود الإسرائيليون ضد الديمقراطية، خاصة هؤلاء اليهود مفرطى التدين. ويظهر المؤلفان قلقهما المتزايد تجاه ما يظهره المتطرفون اليهود من ازدراء تام تجاه كل من هو غير يهودى، ويسجلان ما قاله الحبر الأكبر كوك: «إن الفرق بين روح اليهودى وروح غير اليهودى هو أعظم وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وروح الماشية». منبهين إلى حقيقة أن تعاليم الحبر الأكبر كوك تتبع بإخلاص وورع من قبل اليهود، هؤلاء الذين قادوا حركة المستوطنات فى الضفة الغربية المحتلة معتمدين على مدرسة التصوف الدينى التى سيطرت على اليهودية فى أواخر القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر، والتى يقول أحد معتقداتها الأساسية بالاستعلاء التام للروح والجسم اليهوديين، فوق الروح والجسم غير اليهوديين، حيث إن الكون قد صنع كلية من أجل اليهود وكان اليهود فى البدء، ثم جاء خلق غير اليهود بعد ذلك «كأمر ثانوى». وهى الأفكار التى عبر عنها بوضوح الحبر إسحق كينسبرج الذى هاجر إلى إسرائيل قادمًا من الولايات المتحدة حين تحدث بحرية عن علو الجينات اليهودية وسمو الروح اليهودية، فيقول فى إحدى كتاباته: «إن كل خلية فى جسم اليهودى جزء من الله، لذا فإن هناك تركيبة خاصة للحامض النووى اليهودى تختلف عن بقية البشر».

ويؤكد المؤلفان أن المتطرفين اليهود مؤمنون بأن الله قد منح هذه الأرض كلها لليهود. وأن العرب الذين يعيشون الآن على أرض إسرائيل «من النيل للفرات» هم لصوص، ويؤكد هذا السياق الحبر «إسرائيل أرييل» الذى نشر أطلسًا يوضح حدود الأرض التى على اليهود أن يحصلوا عليها الآن وأن يحرروها من اللصوص ويقول الحبر «شلوم أفينر» متحدثًا باسم المتطرفين اليهود: «علينا أن نعيش على هذه الأرض بأى طريقة حتى ولو كانت الحرب والقتل، وحتى لو كانت هناك معاهدات سلام، فإن علينا أن نحرض على قيام الحروب لتحرير أرضنا من المغتصبين العرب».



هل لنا أن نستغرب إذن أن يقف الساسة و«المثقفون» فى الغرب الأمريكى مطالبين بفرض الوصاية على ما نعلّمه نحن لأجيالنا القادمة، غير مترددين باتهام ديننا بنبذ الآخر والعنصرية والتعصب، وهو الذى يعلمنا أن الله خلقنا «شعوبًا وقبائل لتعارفوا..» وأن «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح». أما اليهود الذين تصف مأثوراتهم كل ماعداهم «بالأغيار» وتسقط عنهم صفة «البشرية» ذاتها.. فهم المتحضرون، ولا غبار البتة على ثقافتهم.



إسرائيل شاحاك، اليسارى اليهودى وأستاذ الكيمياء العضوية وأحد الناجين من مذابح الهولوكوست، شهد فى طفولته صعود النازية ونشأ فى أجواء الأعاصير العنصرية التى اجتاحت أوروبا. وكانت عائلته من ضحايا هذا الجو المظلم الذى أصاب دول الغرب. فقُتل شقيقه واختفى والده وانتهى به الحال هو ووالدته فى معسكر الاعتقال. قبل أن يذهب إلى فلسطين معتقدًا - أو واهمًا كما يكتشف فيما بعد - أن أيام العنصرية البغيضة ذهبت إلى غير رجعة، إلا أنه سرعان ما اكتشف مع مجزرة كفر قاسم أن حلم المساواة بعيد عن الحقيقة، وأن الاستيلاء على أراضى الفلسطينيين والعرب كان عملاً عنصريًا خالصًا. وسرعان ما بدأ جهدًا متصلاً لدحض المزاعم الصهيونية القائلة أن فلسطين كانت أرضًا بلا شعب تنتظر شعبًا بلا أرض.

ونشر شاحاك، تأكيداً لنظرته، لائحة مفصلة تبين أن الإسرائيليين دمروا ٣٨٥ قرية من أصل ٤٥٧ قرية عربية كانت موجودة فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، وأن التدمير الذى نفذ فى هذه القرى ذهب بكل شىء فيها بما فى ذلك المنازل والمبانى العامة والمدافن.

تشاءم شاحاك، والذى يؤمن بالدولة العلمانية الديموقراطية كحل للصراع الفلسطينى الإسرائيلى، لم يغادره حتى قبل وفاته العام الماضى. إذ لم يتردد أن يرفض بحزم تسمية المفاوضات والترتيبات التى شهدتها المنطقة فى السنوات الأخيرة بالسلام. فهى لا تمثل فى نظره أكثر من هدنة مؤقتة. ومحاولة للسيطرة على الفلسطينيين بوسائل جديدة، مذكرًا فى حوار أخير معه بما قاله رابين (الراحل) فى معرض تبريره لاتفاقيات أوسلو (الراحلة).. قال رابين: «لم يحضر والداى إلى فلسطين للاهتمام بشئون هؤلاء الناس وحل مشاكلهم، فليحل الفلسطينيون مشاكلهم الحياتية بأنفسهم. مادمنا نواصل السيطرة عليهم».

وكان شاحاك قد قدم للعالم العربى «الذى لا يحسن قراءة العقل الإسرائيلى» دراسة «أوديد اينون» الدبلوماسى الإسرائيلى، التى تكشف استراتيجية إسرائيل القادمة لتفكيك المنطقة من العراق شرقًا إلى السودان جنوبًا. طارحًا السؤال الأهم: هل تستطيع إسرائيل فى العصر الأمريكى أن تعيد رسم خارطة المنطقة مثلما فعلت الدول الأوروبية مجتمعة قبل قرن من الزمان (١٩٠٦)؟

على الأرجح سيظل السؤال فى دائرة اهتمام بعض الذين استمعوا «بعناية» إلى إملاءات بوش.. وأمنياته الطيبة.

وجهات نظر

جمهورية كرة القدم .. شعوبها مليارات

حسن المستكاوي

كان المشهد غريباً لرجل يقف بجلبابه السنغالى الشهير أمام عدسات المصورين وهو يمسك بديك يرمز للمنتخب الفرنسى من عنقه، مداعبًا أو موحيًا بأنه «يخنقه» بعد فوز منتخب بلاده الأفريقى على فرنسا حاملة اللقب فى افتتاح مونديال ٢٠٠٢ فى كوريا واليابان، فهذه الابتسامة التى غلف بها السنغالى وجهه فى اللحظة التى يتوقف فيها الزمن لجزء من الثانية لتسجله الكاميرا، لم يخف بها ما فعلته وصنعته كرة القدم ـ للعبة الشعبية الأولى ـ فى الشعوب. فكلما ازداد فقر البلاد أوالقهر السياسى زادت أهمية اللعبة، فهى البديل للأحزاب الغائبة فى الشارع السياسى، فيكون الانتماء لفريق تعويضا عن الانتماء إلى حزب، أو هى فرصة لإبداء الرأى فى الوضع الاقتصادى بصرخة ضد حكم أو هتاف غير لائق ضد فريق باعتبار أن ساحة الملعب تسمح بالغضب والانفلات. وربما لاتغير نتائج كاس العالم شيئا فى السويد أو أمريكا أو فرنسا التى فقدت لقبها فى أكبر مفاجآت مونديال الشرق الأقصى، لكن كرة القدم ونتائجها فى السنغال أو إيران تفعل الكثير، فقد يكون الهدف انتصارا حضاريا، أو هزيمة للشيطان، ولعل ذلك ما يفسر تصريحات أدلى بها لاعبو السنغال وجماهيرهم بعد الفوز على فرنسا فى افتتاح كاس العالم، ولخصه مدرب «أسود التيرانجا» ـ أى العنيدة ـ وهو الاسم الرسمى للفريق السنغالى. فقال:«إن مباراتنا مع فرنسا كانت مواجهة بين البروليتاريا ـ عامة الشعب ـ وبين النبلاء»!



لقد أتاحت ساحة مغطاة بعشب أخضر جميل، تحيط بها مدرجات مزدحمة الفرصة لكى يهتف فيها الآلاف من الناس لفريق أو ضد فريق، ويصرخون، ويفرحون، ويتألمون، ويهاجمون مندوب العدالة ـ الحكم ـ الذى كان يرتدى زيا أسود ثم تعددت ألوانه. وهذا الصراخ والهتاف والانفعال يعود بالبشرية إلى الوراء آلاف السنين. إلى عصر حلبات المصارعة الإغريقية التى كان يتبارز فيها مصارعان بالسيف والدرع أمام القيصر، وتنتهى المباراة بفوز أحدهما، ومقتل الآخر!

وهذا الصراع هو جوهر كرة القدم، وسر جمالها وشعبيتها فى الأصل، لكن الممثلة الإيطالية «جينا لولو بريجيدا» لم تفهم هذا السر أبدا، فقالت وهى فى أوج جمالها وشبابها فى الستينيات عندما ساقتها الظروف إلى ساحة ملعب لكرة القدم:«لماذا لاتعطون كل لاعب بالونة (كرة بالإيطالية) بدلا من هذا الصراع المحموم الذى أشاهده بين ٢٢ لاعبا على بالونة واحدة»؟!

والواقع أن كرة القدم باتت فى حياة الشعوب بحجم الكرة الأرضية، وأصبحت نتائجها تمس كبرياء الأمة.وتحولت من مجرد لعبة إلى ظاهرة سياسية واجتماعية عالمية. وتعدت كرة القدم حدود الساحة الخضراء، وعكست كل أشكال الصراع، وجسدت تقسيمًا شاع فى نهاية القرن العشرين للعالم، وهو الشمال الغنى والجنوب الفقير، بكل ما يحمله الغنى فى قلبه وعقله من تعالٍ، وغرور، وثقافة، وبكل مايحمله الفقير فى قلبه وعقله من تغاض، وصمت، وصبر، وجهل فى مواجهة الأول!

أشهر مباراة
فى التاريخ
بين الحلفاء والألمان
وسط معارك
الحرب العالمية!



لكن تلك نصف الحقيقة، فالنصف الآخر صورة جميلة لرياضة ممتعة، فيها كل القيم النبيلة. فكرة القدم لعبة لها فعل السحر، ففى الأول من يناير عام ١٩١٤ كانت مجموعة من الجنود البريطانيين والحلفاء تواجه فرقة ألمانية معادية فى خنادق تفصل بينها الجثث، ووضع الجنود أسلحتهم وخاضوا واحدة من أشهر المباريات فى التاريخ وفاز الألمان ٣/٢ وفى اليوم التالى تبادل الفريقان القتال.. فهل هناك أغرب أو أعجب من ذلك؟!

وبينما كان العالم يتذكر ماكتبه الأمريكى صمويل هانتنجتون فى منتصف الثمانينيات عن صدام الحضارات بعد أحداث ١١ سبتمبر وتحطم الكبرياء الأمريكى هاهو نفس العالم عاش شهرا كاملا التقت خلاله واتصلت الحضارات، ولو قدر لمصور عبقرى أن يلتقط صورة كونية يجسد فيها كل مشاهد وأحداث مونديال ٢٠٠٢ فى كوريا واليابان، وساعده الزمن بالتوقف فسوف تسجل عدسته لحظة يلعب فيها العالم ببهجة واستمتاع هناك بعيدا فى الشرق الأقصى، ومما لاشك فيه أن الوجه الجميل فى كرة القدم هو الذى دفع السياسى السويدى لارس جوستافسون عام ٢٠٠١ إلى ترشيح اللعبة للفوز بجائزة نوبل للسلام، ولم تكن تلك مداعبة ففى تاريخ الرياضة وكرة القدم مشاهد تؤكد قدرتها على إزالة الخلافات وتقريب المسافات بين الشعوب، وأقرب المشاهد بالترتيب الزمنى ماحققه المونديال الأخير، فقد أزال تاريخًا من العنف والدم بين كوريا واليابان منذ غزو الإمبراطورية اليابانية لشبه الجزيرة الكورية عام ١٨٦٧ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية !



وكرة القدم باتت مركز قوة عالميًا بجماهيرها وشعبها، وبشعبيتها، وأموالها، وبهذا الجنون بها، ولذلك حرمت شعب كوريا على سبيل المثال من أشهى طعامها، وهو لحم الكلاب بقرار من الاتحاد الدولى الذى منع تقديم وبيع لحم الكلاب طوال فترة كأس العالم، فأى قوة تستطيع أن تحرم شعبا من طعامه المفضل ومن أين أتت تلك القوة؟!

إلا أن الاتحاد الدولى لكرة القدم منح كوريا واليابان مالم يمنحه لغيرهما من قبل، وهو تاليف نشيد للبطولة قامت بإعداده شركة سونى،وتضمن النشيد مقطوعات موسيقية من الدول المشاركة، بجانب موسيقى الدولتين المضيفتين، وألف النشيد الموسيقار الشهير فانجليز، وهى المرة الأولى التى يكون فيها للمونديال نشيد وقد شاركت فيه الطبول الآسيوية، وأصوات الكمان والتشيلو والفيولون سيل، كما غنت الأمريكية أناستاسيا أغنية «بووم» التى تعنى ازدهار، وهو العنوان الرسمى لأغنية البطولة، لكن هل كان المقصود من فكرة النشيد الأول فى تاريخ كاس العالم الإيحاء بأن كرة القدم أصبحت وطنا؟!

هل اللعبة ذات الشعبية والجماهيرية الطاغية باتت دولة كبيرة لها قوة الدول الكبرى؟!

يقول الاتحاد الدولى للعبة الذى يضم فى عضويته ٢٠٤ دول، أن عدد اللاعبين المسجلين رسميا ٢٥٠ مليون لاعب، مما يعنى أنه مابين كل ٢٥ شخصا فى العالم يوجد شخص واحد يلعب كرة القدم،مع ملاحظة أن عدد الذين يمارسون اللعبات الأخرى فى العالم يبلغ ١٢٧ مليونا فقط، ومما لاشك فيه أن هؤلاء اللاعبين ومعهم مجموعات المدربين والإداريين والحكام وغيرهم من العاملين فى مجال اللعبة ينتمون لها بحكم حب ممارستها وما يجنونه من هذه الممارسة من مال وشهرة وأضواء. ومن العجيب أن الولايات المتحدة التى تعد فيها اللعبة جديدة هناك ١٨ مليون لاعب، وفى المرتبة الثانية تاتى إندونيسيا ٧,٤ مليون لاعب، ثم المكسيك ٧,٢ مليون لاعب، وفى الصين ٧ ملايين لاعب،وفى البرازيل ٧ملايين لاعب، وفى ألمانيا ٦,٣ مليون لاعب وفى إنجلترا ٢,٥ مليون لاعب. وذكرت إحصائية الفيفا الصادرة فى العام الماضى أن هناك ٢٠ مليون امرأة يمارسن اللعبة، وأن هناك ١,٥ مليون فريق، و٢٠٠ ألف ناد، وأن عدد الحكام ومساعديهم والمدربين ٥ ملايين.

لكن أين نحن من هذه الأرقام؟

فى الواقع لايزيد عدد اللاعبين المسجلين فى مصر على ٥٠ ألف لاعب، بينما نجد الرقم أكبر فى السعودية حيث يصل إلى ١١٨ ألف لاعب، ونسبة الممارسين فى مصر تقل عن ١٪ من عدد السكان، وهى فى السعودية ٦٪ بالمقارنة لعدد السكان، بينما نجد اليابان التى تمارس اللعبة حديثا وتهتم بها منذ ١٠ سنوات فقط يصل فيها عدد الممارسين إلى ٣,٥ مليون لاعب بنسبة ٢,٨ ٪ من عدد السكان.

وتلك قضية يطول فيها الحديث، فعدد لاعبى رياضة التنس فى الولايات المتحدة يتجاوز الآن ٢٠ مليون لاعب، وهو أضعاف عدد الممارسين لكرة القدم فى جميع الدول العربية، فالرياضة فى دول العالم الأول جزء من السلوك اليومى للمواطن، وجزء من ثقافته، باعتبار أن الثقافة فى أبسط تعريفاتها تعنى أسلوب الحياة، فكيف تتكلم، وكيف تأكل، وكيف تلعب، وكيف تقرأ أيضا؟.. فلايوجد مايدعو للتعجب إذا عرفنا أن عدد الإصدارات الجديدة سنويا فى الولايات المتحدة يصل إلى ٨٠ ألف عنوان بينما فى مصر أكبر الدول العربية لايزيد عدد الإصدارات السنوية الجديدة على ٥ آلاف عنوان، و أى كتاب فى أمريكا يوزع مليون نسخة على الأقل، أما فى مصر وفى أية دولة عربية لايزيد حجم التوزيع على ٣ آلاف نسخة!

وشعوب لاتقرأ، هى شعوب لاتريد أن تعرف و هى أيضا شعوب لا تلعب، ولا يعنيها أن تلعب. وحب المعرفة يرتبط ـ بالطبع ـ بالتعليم والثقافة وحب الرياضة يرتبط ـ بالطبع ـ بفهمها، وبفهم تاثيراتها على النفس البشرية، فهى ترويح أولا، ثم أنها تعلم الصبر والإرادة والرغبة فى النجاح والعمل الجماعى وتعلم أيضا أهم الدروس وهو أن الحياة انتصار وانكسار، ومن يخسر عليه أن يدرك أنه قادر على الفوز. لكن عندما يكون المفهوم أن الحياة، واللعب طبعا، دوما انتصار يكون ذلك هو الجهل بعينه، وتظهر آثاره فى سلوكيات البشر فتتجلى الغوغائية وتعلق الهزائم الكبرى على الغير بدءا من الحكم وانتهاء بامريكا!



ومن أسف أننا جيل ينظر إلى الخلف كلما أراد أن يعتز. جيل وراء جيل عاش مائة عام وهو لايملك سوى التاريخ فى شتى المجالات. من بقايا الفتح الإسلامى فى الأندلس ومما تركه لنا جابر بن حيان، ومحمد الإدريسى،والبيرونى والفارابى وصولا إلى سيد نصير وخضر التونى وزكريا شهاب وحبيب حالقيه!

وربما ليست تلك قضيتنا اليوم، لكن إختصارا لابد أن نفهم أن الإنسان العربى مارس الرياضة من أجل الصيد والحرب، أو كدليل على القوة، ولكنه تأخر عن ممارسة اللعبات التنافسية ٥٠٠ عام، وتاخر عن ممارسة كرة القدم ٥٠ عاما وهو فى جميع الأحوال، فى شتى اللعبات أو فى كرة القدم ظل يرفع الشعار القديم:«العقل السليم فى الجسم السليم». الذى يبدو كشعارات بلهاء تعلق على لافتات فى المدارس لغرس الروح الرياضية فى الأطفال من نوع : «ابتسم عند الهزيمة». وفى كل يوم نموت من الضحك!

ونعود إلى كرة القدم فهذه الأرقام التى تصل إلى الملايين، تتعلق باللاعبين وبالممارسين المسجلين رسميا، أما الذين يلعبون الكرة ويركلونها فى الساحات والمدارس والشوارع فهم مئات الملايين، ولذلك

والسياسيون فيها لاعبون!

يمكن القول أن كرة القدم هى أكبر جمهورية عرفتها البشرية، وأقدمها أيضا!

من اخترع هذه اللعبة؟

وحتى الآن لا يعرف أحد من بالتحديد «اخترع» كرة القدم أو من ركلها للمرة الأولى أو المجتمع الذى مارسها بصورتها البدائية قبل أن تمارس فى إنجلترا وتنتقل إلى العالم؟

الروايات عن أصل كرة القدم متعددة ومختلفة، لكن من المؤكد أن بعض المنافسات أقيمت خلال الحضارتين اليونانية والرومانية، وهناك رواية عن أن الصينيين مارسوها منذ أربعة آلاف سنة، وكانت اللعبة تسمى««تسو - تشو» tsu- chu كما كتب أحد المؤرخين يقول«: أن اليابان عرفت كرة القدم منذ ١٤ قرنا، وكانت تسمى«كيمارى» kemari أما هوميروس فقد تحدث فى الأوديسة عن«كرة جميلة مشعة»، فيما كتب هيرودوت أبو التاريخ عام ٤٤٨ قبل الميلاد يقول: «عندما زرت مصر وجدت هناك لعبة تسمى لعبة الكرة، يصنعها المصريون من جلد الماعز، ويحشونها بالقطن أو القش، ويركلها اللاعبون بالأقدام بين فريقين يتنافسان حتى تصل الكرة إلى نقطة نهاية لتحتسب بعد ذلك هدفا».

وهناك من يقول أن اليونان مارست كرة القدم فى القرن الخامس قبل الميلاد وهناك من يقول أن الرومان توارثوها، ونقلوها إلى غرب أوروبا ثم إلى بريطانيا عندما احتلوها.

لكن المؤرخين البريطانيين تصدوا لهذه الآراء، وادعوا أن كرة القدم ولدت عندهم، واستدلوا على ذلك بواقعة تاريخية، وهى أن الدنماركيين احتلوا إنجلترا فى الفترة من ١٠١٦ إلى ١٠٢٤ بعد الميلاد، وأن الإنجليز حاربوهم فى معركة دامية كان من أثرها أن الجنود الإنجليز قطعوا رأس القائد الدنماركى، وداسوها بأقدامهم مثل الكرة، وصار هذا فيما بعد تقليدا قوميا، ومن مظاهر الاحتفال بالقضاء على الاحتلال، ورويدا رويدا بدأ بعض الأطفال يقذفون كرة من جلد البقر، واعتبر ذلك فجر ظهور اللعبة واكتشافها فى الفترة من ١٠٥٠ إلى ١٠٧٥ بعد الميلاد !



وفى العديد من الكتب والموسوعات التى تؤرخ بداية كرة القدم رسومات ومعلومات عن ممارستها فى حقول فرنسا، وفى طرقات مدينة البندقية حيث كانت تسمى«الكالشيو» calcio فى القرن السادس عشر، ومازال الدورى الإيطالى يسمى الكالشيو حتى اليوم.

وفى جميع الأحوال كان العنف دائما توءما لكرة القدم وهو مادفع إلى تحريم ممارستها فى بعض الفترات لاسيما فى إنجلترا، فقد منعها الملك إدوارد الثانى، والملك هنرى الرابع، والملك ريتشارد الثانى، كما حرمتها الكنيسة، وظلت اللعبة ممنوعة لمدة ٤٠٠ سنة ثم عادت فى عهد الملك جيمس الثانى.

وقد أجمعت كتب التاريخ على أن إنجلترا هى مهد اللعبة أو الكرة التى عرفها العالم فيما بعد، ففى مدينة دربى شاير أقيمت مباريات

أسبوعية بين شطرى المدينة، وكانت المباراة تجرى بين المئات من لاعبى الفريقين والملعب هو شوارع البلدة وطرقاتها، وتدريجيا تم تخفيض عدد اللاعبين إلى ٣٠ لاعبا بكل فريق، وجاءت مرحلة ازدهار جديدة للعبة التى بدأت تجذب الشباب والطلبة، ولكنها كانت تمارس بلا قواعد أو قوانين، فالمباريات تجرى على أى ملعب، والكرة تركل بالقدم ومسموح إمساكها باليد،وعدد لاعبى الفريقين يصل إلى ٤٠ لاعبا، والأهداف قليلة لأنه لايوجد مرمى، وإنما مجرد خط نهاية لايزيد عرضه على ٦ ياردات.



فى عام ١٨٢٣ كان وليام ايليس طالبا فى كلية رجبى، وشارك فى مباراة، وأمسك بالكرة ولم يتركها، وجرى بها، حتى وضعها فى المرمى الآخر.

ولما انتقدت هذه المخالفة قام رئيس الفريق بالدفاع عن تصرف أليس بقوله: « إن هذا قد يزيد البهجة فى اللعبة،ويضفى على المباراة لونا جديدا».

وسميت هذه الرياضة التى يتنافس فيها فريقان على الكرة باليد«رجبى» نسبة إلى الكلية، وهنا ظهر الخلاف حول مضمون اللعبة، فهل هو ركل الكرة بالقدم أم إمساكها باليد أم يسمح بركلها بالقدم وإمساكها باليد معا؟

فى عام ١٨٣٠ اتفق الإنجليز على أن تكون لعبة الكرة لعبتين، الأولى هى الرجبى، والتى تعد من أشهر اللعبات الإنجليزية حتى الآن، وتلعب باليد وبالقدم، والثانية هى كرة القدم أو soccer التى يعرفها العالم، وتمارس بالقدم فقط.

وقد ولدت كرة القدم الحديثة رسميا فى ٢٦ أكتوبر عام ١٨٦٣ بانجلترا عندما وضع مستر ترينج الأستاذ فى جامعة كامبريدج أول قانون للعبة وكان من ١٠ مواد.

لماذا غزت العالم؟

تلك باختصار قصة ميلاد اللعبة الشعبية الأولى فى تاريخ البشرية، لكن يبقى السؤال المهم كيف انتشرت ولماذا حظيت باهتمام وحب كل الشعوب، ولماذا أصبحت كرة القدم فى حياتنا بحجم الكرة الأرضية؟ لماذا هى دون كل اللعبات الأخرى؟

من بريطانيا خرجت كرة القدم إلى العالم، فانتقلت لأوروبا أولا، ثم إلى المستعمرات مع جنود الاحتلال، فى أفريقيا، وآسيا، وأستراليا، وحتى إلى أمريكا الجنوبية، وإلى البرازيل، حيث عرف شعبها الكرة على يد مواطن إنجليزى يدعى تشارلز ميللر وقد ولد من أبوين إنجليزيين فى مدينة ساوباولو البرازيلية ثم سافر فى مطلع شبابه إلى وطنه الأصلى حيث عشق الكرة، ولعب لنادى ساوثامبتون وعاد إلى البرازيل فى أواخر القرن التاسع عشر، ونشر اللعبة الجديدة بها ولم تعد كرة القدم مجرد رياضة أو لعبة مثل الألعاب، بل أصبحت مثار اهتمام ورعاية كل دول العالم،وجماهيرها ملايين، آلاف الملايين، ومن كل جنس ولون، والاهتمام بالكرة وصل لدى بعض المشجعين إلى حد الهوس، وهى درجة أعلى وأخطر من العشق.

وإذا كان العنف هو الجانب المظلم للكرة، أو وجهها القبيح فإن لها جوانب أخرى مبهج، وطريفة،وغريبة ووجوه جميلة أيضا، فبالإضافة إلى جماعية اللعبة، وملعبها الكبير، وحجم كرتها الصغير، الذى يكفى لمتابعة خطوط سيرها بسهولة، وتعدد خططها،وماتحويه من مناورات، ومحاورات، ومفاجآت متغيرة ومتجددة. لهذا كله ستجد فى اللعبة القوة والحيوية والديناميكية، وهذا يخلق الإثارة والمتعة، والاستمتاع بموسيقى الأداء الجماعى الجميل الذى ينتهى بالأهداف، التى تأتى من المفاجآت، فتهز القلوب فى المدرجات، كما تهز الشباك!

وفى المدرجات ترى كل ألوان الفنون، والجنون، والعقل أيضا، ترى الانفعال اللذيذ، والانفعال الجميل، وربما يصادفك هذا المشهد: مشجع يصرخ، وبجواره مشجع يضحك، وأمامهما آخر يكاد ينفجر غيظا، وخلفهما رابع يتابع فى صمت ما يجرى فى الملعب، وكله هدوء أعصاب، كأنه يستمع لإحدى سيمفونيات تشايكوفسكى. وشاهدت هذه الصور كثيرا، وشاهدت أناسًا كبارًا فى السن وفى المقام، كبارًا جدًا وهم لا يقدرون على مشاهدة مباراة سوى من الوضع واقفًا!

إن جماهير الكرة أسرع الجماهير تحولا واشتعالا، ويذهبون إلى الملاعب وهم متعطشون إلى الأهداف، يهتفون، ويتشاجرون، يطربون، ويصرخون، ويختلفون فى وسائل تشجيعهم، فالطبول هى السلاح أحيانا، والألوان الزاهية على الملابس أو الوجوه هى السلاح فى أحيان أخرى. وفى المدرجات ترى العجب، وتسمع الأهازيج والأغانى المؤلفة فى لحظة، من أجل لاعب، أو لعبة، منتهى الفن، أم منتهى الجنون؟!

لاهذا ولاذاك، ولكنها كرة القدم، وعالمها الذى تجد فيه كل شىء وكل لون!

وبمزيد من البحث نجد أن الكرة، أى كرة، فيها شىء من السحر واللغز، يرتبط بالبشرية، من الكرة الأرضية واستدارتها إلى كرة التنس والأسكواش، على صغر حجمهما!



ومن كرة القدم استمدت شعوب العالم بثقافتها المختلفة كل أشكال وألوان ألعاب الكرة التى ولدت من بطن كرة القدم، تلك اللعبة التى كانت مثل المعارك الحربية فى القرون الوسطى فى بريطانيا، فهى بين مدينتين أو بين قريتين، والهدف أن تصل الكرة إلى المدينة أو القرية



الأخرى بكل الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وقد تبلورت قوانين كرة القدم التى نمارسها فى العصر الفيكتورى عندما أصبح اللهو المنظم جزءا لايتجزأ من تطور المجتمعات الصناعية، وأول من وضع قواعد اللعبة هم طلبة المدارس فى انجلترا، ومنها كلية «أيتون» وحتى الآن تقام مباراة واحدة سنويا فى تلك الكلية العريقة بنفس القواعد القديمة وبنفس الملابس وانتشرت كرة القدم كما انتشرت الرجبى، وفى الولايات المتحدة الأمريكية لعبة مماثلة للرجبى الإنجليزية هى كرة القدم الأمريكية، وفى أيرلندا لعبة الرجبى الخاصة بها، وفى استراليا لعبة تعد خليطا بين كرة القدم والرجبى تسمى«أستراليان رولز»، وفى ويلز لعبة مشابهة للرجبى تسمى«جاليك فوتبول»، وفى آسيا لعبة تجمع بين الكرة الطائرة وكرة القدم وتسمى«سيباك تاكراو»، وهناك كرة القدم على الدراجات البخارية وتسمى«موتوبول»!

ونعود إلى السؤال: لماذا غزت كرة القدم العالم؟

لأنها ببساطة صورة من صور الحرب المشروعة، والحرب رياضة غريزية عند البشرية، وكرة القدم بتعبير آخر تعد صورة من صور الصراع الجماعى المتكرر، وعن الصراع الجماعى يقول جورج زيفلير الصحفى الفرنسى والكاتب فى الفيجارو:«منذ الأزل والمظهر الذى يحكم العلاقات الإنسانية هو الكفاح، فعندما تهاجم جماعة ما جماعة أخرى فإن رد المجموعة الأخرى هو حتما المواجهة ومنها يأتى التصادم والعنف»!

وكرة القدم لعبة سهلة تمارس فى أى مكان، فى ساحة فى شارع، وبأية أدوات، فلا تحتاج إلى ملابس معينة كما فى الملاكمة أو الكرة الأمريكية أو إلى ألواح خشبية تمثل المرمى كما فى كرة السلة أوشباك كما فى الكرة الطائرة، ولا يلزم لممارستها مضرب كما فى التنس، ولاغرفة مغلقة كما فى الإسكواش، ولا أنهار كما فى التجديف ولا ماء كما فى السباحة، ولاجواد وحواجز كما فى الفروسية، ومن الممكن أن تقام مباراة بين فريقين بكرة من الحجارة، وهى تمارس فى الملاعب المفتوحة والمغلقة، تحت ضوء الشمس وتحت ضوء القمر، وقوانينها بسيطة غير معقدة، وكثيرون حتى اليوم من شعوب العالم لايعرفون قوانين البيسبول مثلا، وهى لعبة شعبية أمريكية فى حين أن كثيرًا من الأمريكيين يعرفون قوانين كرة القدم، وهى ليست من اللعبات الشعبية فى الولايات المتحدة. وكرة القدم لعبة ممكنة للجميع، للأغنياء وللفقراء، للأطفال والرجال وللسيدات أيضا، لقصار القامة ولطوال القامة، فلكى تكون لاعبا بارعا فى كرة السلة أو الطائرة لابد أن تكون طويلا، ولكى تكون مصارعا فلابد أن يكون جسدك كتلة من العضلات!

وهناك الآن مواصفات نموذجية للاعب كرة القدم المحترف، فحارس المرمى وزنه ٨٨ كجم وطوله ١٨٨سم، والمدافع متوسط طوله ١٦٩سم ووزنه ٧٢ كجم وقلب الدفاع وزنه ٨٤ كجم وطوله ١٨٧ سم، وهو يجرى فى المباراة الواحدة ٦,٥ كم، أما لاعب الوسط فهو يجرى فى المباراة الواحدة ١٠ كم، وطوله ١٧٩ سم ووزنه ٧٤ كجم، ولاعب الهجوم طوله ١٨٥ سم ووزنه ٨٢ كجم. وهذه المقاييس حديثة، وتتضمن اللياقة والمهارة والخفة والرشاقة والقدرة على التصرف بسرعة، وغير ذلك من مهارات مطلوبة فى عصر الاحتراف. إلا أن اللعبة عامة من جهة الممارسة متاحة للجميع وملاعبها بلاحدود، وعدد لاعبيها غير محدد، فقد يلعبها اثنان، وقد يلعبها عشرون..

لكن علماء الاجتماع يقولون فى أسباب شعبية اللعبة وإنتشارها فى مطلع القرن العشرين:« فى وسط القرن التاسع عشر ولد المجتمع الصناعى الذى أرغم عددا كبيرا من الناس على استعمال الأيدى فى العمل الآلى المرهق، مما حرمهم من النشاطات الخلاقة الأخرى، وعليه فقد وجد الآلاف فى لعبة كرة القدم الجديدة التنظيم الجماعى الذى يعكس صورة من صور حياتهم وفى الوقت نفسه يعطى قيمة إضافية بل وثقافية لاستخدامات الأطراف التى لاتستعمل فى العمل، وهى الأرجل».

والإبداع بالقدم يختلف عن الإبداع باليد، وهذا من أسرار اللعبة فعندما يجيد اللاعب التحكم بالكرة بقدمه، بالمراوغة أو مداعبتها فإن ذلك يثير إعجاب الجماهير، وعندما يسجل لاعب الكرة هدفا بقدمه من مسافة بعيدة فإن ذلك يثير أيضا اعجاب الجماهير التى لاتعبر عن نفس القدر من الإعجاب فى الأهداف التى تسجل باليد كما فى كرة اليد والسلة، كما أن أهداف كرة القدم قليلة، وقلتها تزيد من درجة الانفعال بها، بينما فى كرة اليد والسلة نرى هدفا كل دقيقة. ولكى نجعل الصورة أوضح فإن لاعب كرة القدم هو فنان يرسم لوحة بقدمه، وهذا أصعب بكثير من الفنان الذى يرسم نفس اللوحة بيده!

والانفعال الزائد فى كرة القدم اعجابا وانبهارا بالتحكم فى الكرة بالقدم من أسباب شعبية اللعبة، لأن الانفعال فى حد ذاته هدف بشرى غريزى، فالإنسان بطبعه يبحث عن كل مايرفع من درجة الأدرينالين فى الدم، فهو يمنحه شعورا بالإثارة يشتاق إليه فى وسط الحياة الرتيبة المملة!

الاهتمام فى بداية القرن العشرين

وليس ذلك مجرد أفكار أو إقرار لواقع ملموس فى الوقت الراهن فهناك منذ البدايات البعيدة للعبة المنظمة مظاهر اهتمام بها، تشير إلى أنها تحظى بحب الجماهير فى كل مكان، ففى يوم ٢٠ أبريل عام ١٩٠١ أى قبل حوالى مائة عام أقيمت مباراة نهائى كاس إنجلترا فى

السياسى السويدى
لارس جوستافسون
رشح كرة القدم
لجائزة نوبل للسلام!

كريستال بالاس وحضرها ١١٠ آلاف متفرج، ومنذ ذلك الوقت أصبحت كرة القدم مرشحة لأن تكون اللعبة الشعبية الأولى. وفى أكتوبر من نفس العام أصدر الفرنسى هنرى ديسجرانج صحيفة يومية وكتب فيها مدير تحريرها روبير جيرين أول وصف لمباراة كرة قدم فى ١٣ أكتوبر ١٩٠٢، بين منتخبى المجر والنمسا. وتوالى الاهتمام باللعبة بدخول الراديو الذى نقل أول مباراة على الهواء مباشرة فى ٢٢ يناير ١٩٢٧ بين فريقى أرسنال وشيفيلد يونايتد ثم عرض التليفزيون لقطات من مباراة ودية لفريقين من أرسنال فى ١٦ سبتمبر ١٩٣٧، وكانت أول مباراة تنقل بكاملها على الهواء مباشرة فى ٣٠ أبريل ١٩٣٨ بين فريقى بريستون وهدرسفيلد فى نهائى كأس إنجلترا باستاد ويمبلى، وتابع المباراة فى الملعب ١٠٠ ألف متفرج بينما تابعها من خلال شاشات التليفزيون ١٠ آلاف فقط!

وفى عام ١٩٢٣ فتح استاد ويمبلى أبوابه لأول مرة لاستقبال نهائى كأس انجلترا،وكانت سعة الملعب ٢٦ ألف متفرج وحضر المباراة ٢٠٠ ألف، وعمت الفوضى، وصعد ضابط شرطة إلى المدرجات على جواد أبيض، لإعادة النظام فعرف هذا النهائى باسم:«نهائى الحصان الأبيض»!

وننتهى بالإشارة إلى دراسة قام بها الباحث الفرنسى كريستيان برومبرجر الأستاذ بجامعة بروفانس جنوب فرنسا عن كرة القدم كظاهرة تنسحب آثارها على الفرد والمجتمع، وشاركه باحثان آخران، وكانت الدراسة على جماهير مرسيليا ونابولى وتورينو واستغرقت ١٠ سنوات، وقد درس الباحثون سلوك الجماهير فى ملعب كرة القدم، وتوصلوا إلى الملعب يجمع بين المؤيدين وهم الجمهور، وأبطالهم وهم اللاعبون ، وأن هذا الملعب أحد الأماكن القليلة التى يستطيع فيها الإنسان أن يفلت من القانون والضوابط والقيود الصارمة التى تنظم حياته فى الشارع والمدرسة والعمل والمنزل، ولذلك فهو فى الملعب ينفلت، ويفرح، ويصرخ، وينفعل، ويغضب، مثل المجنون، وسط سلوك جماعى مصاب بالجنون مثله، ولاأحد يستطيع أن يحاسبه ويصفه بأنه خارج على النظام والانضباط وأنه مجنون!

ولذلك كانت كرة القدم لعبة القرن العشرين وستبقى لعبة القرن الحادى والعشرين!

هل أصبحت رياضة سياسية؟

ومع تعاظم أهمية كرة القدم ودورها وتأثيرها وسحرها على الشعوب، أصبحت ورقة من أوراق رجال السياسة التى يلعبون بها للوصول إلى الحكم أو تعزيزه، أو باعتبارها وسيلة من الوسائل التى تقرب خطوط الاتصال مع الشعوب التى هى الجماهير!

ويقول الكاتب الأمريكى سيون كوبر فى نيويورك تايمز (نشر المقال جريدة الشرق التى تصدر فى لندن):

« كرة القدم ظاهرة.. لها مدلولها السياسى، وهى رمز للفوضى ولحكم الأقلية وهى تؤدى إلى إسقاط سياسيين وانتخاب رؤساء، وتحدد الطريقة التى يفكر بها الناس تجاه بلادهم».

وقال: فى عام ١٩٨٦ اشترى الملياردير الإيطالى سيلفيو بيرلسكونى نادى إيه.سى.ميلان وأسس بيرلسكونى حزبه السياسى«فورزا إيطاليا» وهو شعار كروى يعنى إلى الأمام يا إيطاليا، وأطلق على مرشحى الحزب اسم الزرق، وهو نفس مايطلق على لاعبى المنتخب الإيطالى وفى النمسا قرر اليمينى يورج هايدر تحسين صورته برئاسة نادى كارنثن وفى البرازيل يرتدى السياسيون فانلات فرقهم فى حملاتهم الانتخابية فكرة القدم هى التى جعلت للبرازيل اسما عالميا مدويا.

وفى الأرجنتين اشترى مارشيو ماكرى فريق بوكا جونيورز، أفضل أندية أمريكا الجنوبية، وهو يفكر الآن فى منصب محافظ بوينس أيريس، ثم تولى منصبا سياسيا بعد الأزمة الأرجنتينية الطاحنة الأخيرة، وخلال تلك الأزمة التى شهدت ثورة الطبقة المتوسطة، وانهيار العملة اندلعت المظاهرات، وخلالها ارتدى المتظاهرون فانلات المنتخب الأرجنتينى التى كتبوا عليها « باستا» أى يكفى. وأعظم ظواهر المجد الأرجنتينى وهى كرة القدم استخدمت لإهانة الطبقة الحاكمة.

وأضيف هنا معلومة طريفة بشأن موسولينى الذى استخدم كرة القدم لتعزيز حكمه فى عامى ١٩٣٤ و١٩٣٨ حيث فازت إيطاليا بكأس العالم. فقد أرسل موسولينى إلى الفريق الإيطالى برقية من ثلاث كلمات عام ١٩٣٨بعد مباراتهم مع البرازيل فى نصف النهائى، التى فازت بها إيطاليا ٢/١ وقبل المباراة النهائية مع المجر على الكأس، وكانت:«الفوز أو الموت»، وفازت ايطاليا ٤/٢ وخرج الحارس المجرى تشابو وهو يقول فضلنا إنقاذ حياة فريق عن الفوز!

ولم يختلف الأمر فى ألمانيا ففى عام ١٩٤١ خسر المنتخب أمام سويسرا١/٢ فى مباراة لكرة القدم أقيمت بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد هتلر، فأمر جوبلز وزير إعلامه بعدم إقامة مباريات رياضية عندما تكون النتيجة مشكوكًا فيها، وكان ذلك هو المستحيل بعينه فمن أسباب سحر كرة القدم هو الشك فى نتائجها!

وعندما خسرت ألمانيا أمام السويد عام ١٩٤٢ قال جوبلز: خرج ١٠٠ ألف من الاستاد وهم محبطون، وبما أن النصر فى مباراة كهذه أقرب إلى الناس من أن تغزو مدينة فى الشرق فيجب إيقاف المباريات وحظرها.

وكان العديد من أفراد أسرة الرئيس الرومانى الأسبق نيكولاى تشاوشسيكو يتبنون أندية، أما لافرنتى بيريا رئيس الشرطة السرية فى عهد ستالين الرئيس الشرفى لفريق دينامو موسكو فكان يرسل لاعبى الفرق المنافسة إلى سيبريا، وحمل حزب العمال البريطانى هزيمته المفاجئة برئاسة هارولد ويلسون فى الانتخابات العامة على بطولة كأس العالم عام ١٩٧٠.



ويقول البعض فى الولايات المتحدة، إذا أرادت إدارة الرئيس بوش التعرف على التيارات فى بعض الدول مثل السودان وإيران وليبيا فإن عليها متابعة كرة القدم فى هذه الدول. وفسرت وزارة الخارجية الأمريكية أحداث شغب وقعت فى الدورى الليبى لكرة القدم فى يوليو عام ١٩٩٦ على أنها من مظاهر الاستياء العام من الحكومة الليبية. وعندما اقتربت إيران من التأهل إلى نهائيات مونديال ٢٠٠٢ خرجت الجماهير الإيرانية تحتفل، ووسط الاحتفالات وقعت أحداث شغب ونهب وهتف البعض«الموت للملالى، وقيل إن الفريق الإيرانى تعرض لضغوط لكى يخسر المباراة الفاصلة أمام البحرين، وكان المعلق الإيرانى يتساءل: لماذا لايسجلون ولايسددون؟

وعقب خروج فرنسا من كأس العالم الأخيرة فى كوريا واليابان خلطت الصحف الفرنسية أوراق السياسة بورقة كرة القدم فقالت فى عناوينها التى صدرت بعد خروج الفريق من الدور الأول:«لوبان.. وخروج أبطال العالم كسرا كبرياء فرنسا»!

وهى إشارة إلى نجاح السياسى اليمينى المتطرف لوبان لخوض جولة أخرى أمام الرئيس جاك شيراك فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة. وفى عام ١٩٩٨ عندما فازت فرنسا بكأس العالم ودارت عدسات المصورين لتسجيل لحظة من أعظم لحظات الشارع الفرنسى قال أحد السياسيين المعارضين تعليقا على صورة جمعت بين لاعبى الفريق البطل والرئيس جاك شيراك:

«إنه لأمر لطيف أن أرى فرنسيًا فى الصورة»!

وكانت تلك أيضا إشارة إلى أن معظم لاعبى الفريق الفرنسى من أصول غير فرنسية!

وهكذا أصبحت كرة القدم أداة لرجال السياسة، وأحيانا تحمل بما لايجب أن تتحمله كما حدث فى مصر عندما اعتبرت من أسباب نكسة ٦٧ لانشغال القيادات العسكرية بكرة القدم وأنديتها، فكان المشير عبد الحكيم عامر رئيسا لاتحاد الكرة، والفريق أول عبد المحسن كامل مرتجى رئيسا للأهلى، والفريق سليمان عزت رئيسا للأوليمبى،والفريق صدقى محمود رئيسا لنادى الطيران!

وإذا كانت الرياضة أذابت الجليد بين دول، مثل الصين والولايات المتحدة فى مطلع السبعينيات فيما عرف بسياسة «البينج بونج» فإنها أشعلت العداء بين دول أخرى وبين أبناء الشعب الواحد أيضا، والأمثلة لاتعد ولاتحصى، فلاينسى تاريخ كرة القدم الحرب التى اندلعت فى تصفيات كأس العالم لعام ١٩٧٠.. ففى تصفيات منطقة أمريكا الوسطى والشمالية وقعت الحرب بين هندوراس والسلفادور. فقد وصلتا إلى الدور قبل النهائى، وفى مباراة الذهاب فازت هندوراس ١/صفر وفى مباراة العودة فازت السلفادور ٣/صفر وأقيمت مباراة فاصلة ـ على أرض محايدة ـ بالمكسيك، وسجل (رودريجز) هدف الفوز للسلفادور، واعترضت عليه هندوراس، وقامت الجماهير فى البلدين بالاعتداء على السفارتين، واندلعت الحرب وتحركت الجيوش والدبابات إلى الحدود (وهما جارتان) وتبادلتا الغارات الجوية، واستمر القتال لمدة ٣ أيام، وتوقفت بعد تدخل المنظمات الدولية.

أما الخصومة التى بين الأرجنتين وإنجلترا فتعود إلى وصف سيرالف رامزى مدرب انجلترا فى كأس العالم ١٩٦٦ لاعبى الأرجنتين بانهم«حيوانات»، لأسلوبهم العنيف فى اللعب، وزادت حدتها بعد النزاع على جزر فوكلاند عام ١٩٨٢ التى سقط فيها ٦٠٠ قتيل أرجنتينى و٢٠٠ من الإنجليز، ويكفى أن تتابع ردود أفعال الإنجليز بعد الفوز الذى حققه منتخب بلادهم على الأرجنتين فى الدور الأول لمونديال ٢٠٠٢ ثم عادت الصحف واستنكرت المبالغة فى الاحتفال وتساءلت: هل كانت معركة العلمين؟ فى إشارة إلى اعتبار الجماهير الإنجليزية الفوز على الأرجنتين نصرا قوميا.. لكنه كبرياء الأمة الذى غرسته كرة القدم عند شعوب العالم بمافيها الغرب لأن الكرة هى البديل المشروع للحرب!

وأحيانا أخرى تكون الخصومة بين فريقين فى شعب واحد لأسباب دينية.

ففى عام ١٩٤٨فى أيرلندا الشمالية فى مباراة بين فريقى بلفاست سيلتيك ذى الأغلبية الكاثوليكية وفريق لينفيلد الذى تشجعه أغلبية بروتستانتية وقع شغب دينى وسقط الجرحى،ونفس الأمر بين سيلتيك الكاثوليك ورينجرز البروتستانت وتعود إلى ١٩٠٩ وتكرر الشغب مرات وآخرها عام ١٩٩٩ للسبب نفسه!.



و يعود العداء التاريخى بين ريال مدريد وبرشلونة إلى سبب آخر، وهو الموقف البشرى القديم بين السلطة بنفوذها، وبين الشعب، بقلة حيلته، ففى عام ١٩٢٠ منح الملك ألفونسو الثالث لقبًا ملكيًا إلى ريال مدريد مما فسر فى مقاطعة كاتولونيا على أنه تحيز إلى ريال

الفيلسوف الفرنسى
ألبير كامو: «كل ما أعرفه عن
الأخلاق وواجبات الإنسان
أدين به لكرة القدم»!

مدريد كما استمر ذلك فى أيام حكم الجنرال فرانكو، الذى استغل الشعبية العريضة للنادى فى الحكم. وكانت مقاطعة برشلونة خلال الحرب الأهلية الأسبانية فى الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ معارضة لحكم فرانكو واستخدم سكان برشلونة اللغة الكاتالونية خلال مباريات الفريق فى نوكامب واشتعل العداء بعد انتقال لويس فيجو من برشلونة إلى ريال مدريد، والتقى الفريقان فى المسابقة الأوروبية فى نوفمبر عام ١٩٤٢ قبل ٤٢ عاما وأخرج برشلونة غريمه من الدور ربع النهائى وكان أول فريق ينجح فى إخراج ريال مدريد محتكر البطولة.

كيف أفسدها المال؟

وهكذا مرة أخرى تكون كرة القدم وساحتها الخضراء، حلبة للصراع بكل أشكاله، صراع الجماعة ضد جماعة أخرى، أو صراع السلطة وعامة الشعب، أو صراع رجال السياسة.. لكن هناك الصراع الآخر الذى أفسد الرياضة، وكان ملهما للكاتب البريطانى ميهير بوز الذى أصدر كتابا فى نهاية التسعينيات بعنوان: الرياضة فقدت براءتها، تناول فيه كل مظاهر الغش والخداع والعنصرية والرشاوى، والتلاعب فى النتائج والمنشطات، وكيف أصبح المال سببا للفساد؟

ولكن كيف دخل المال بجنونه مجال كرة القدم؟

فى النصف الثانى من القرن العشرين ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانتظام بطولات كأس العالم شهدت كرة القدم تحولات جديدة وساهم التليفزيون فى زيادة شعبية اللعبة منذ نقلت بعض مباريات كأس العالم عام ١٩٥٤ على الهواء مباشرة، ثم أصبح التليفزيون شريكا أساسيا فى اللعبة وفى الترويج لها ثم بات الآن مالكا لها، وفى إحصائية دقيقة نجد أن كل مشاهد فى الملعب لمباراة واحدة يقابله ١٥ ألف مشاهد عبر شاشة التليفزيون، ووصل مجموع عدد مشاهدى كأس العالم بفرنسا عام ١٩٩٨ إلى ٣٧ مليار مشاهد، والعدد يمثل مجموع من شاهدوا مباريات الكأس كلها، ووصل هذا الرقم فى مونديال ٢٠٠٢ بكوريا واليابان إلى ٤١ مليارا. وقد دفعت محطات التليفزيون العالمية ٨٠٠ مليون دولار مقابل الفوز بحقوق بث مباريات مونديال ٢٠٠٢ على الهواء مباشرة ودفعت ١,٤ مليار دولارلنقل بطولة ٢٠٠٦ فى ألمانيا، وبطبيعة الحال حددت هذه المحطات مواعيد المباريات بما يتناسب مع المشاهدة العالمية. وباعت مجموعة كيرش الألمانية التى اشترت الحقوق إلى محطات أصغر فى شتى دول العالم، ومنها محطة أية أر تى، التى دفعت ٦٤ مليون دولار مقابل البث المشفر فى منطقة الشرق الأوسط، وذلك بالاتفاق مع شركة إنترناشيونال إنترتيمنت، وحصل الفيفا على ١,٢ مليار دولار مقابل البث المشفر بينما حصل على ٣٠٠ مليون دولار فى البطولة الماضية. وباعت إيه.آر. تى المباريات بسعر ٥٠٠ ريال فى منطقة الخليج حوالى ١٣٣ دولارا.



وقد وصل حجم الإنفاق على اللعبة فى العالم إلى ٢٢٥ مليار دولار سنويا كما جاء على لسان جواو هافيلانج رئيس الفيفا الأسبق وهو يعلن اعتزاله فى عام ١٩٩٤، وهذا الحجم الهائل من الإنفاق يتمثل فى شراء محطات التليفزيون لحقوق البث المباشر وشراء الأدوات والملابس وبناء الملاعب وصيانتها، وعقود اللاعبين والمدربين والحكام ورواتبهم، وعلى سبيل المثال شهدت إيطاليا منذ ثلاثة أعوام أزمة بسبب عقود اللاعبين، وخيم شبح الإفلاس على بعض الأندية، ومنها بارما وسمبدوريا وفيورنتينا واضطر بارما إلى بيع مجموعة من نجومه بمبلغ ١٠٠ مليون دولار لسداد ديونه للبنوك، كان منهم الأرجنتينى باتيستوتا والبرتغالى روى كوستا، واضطرت بعض الأندية إلى تحديد سقف لرواتب اللاعبين، فاعلن نادى روما أنه قرر ألا يزيد مجموع رواتب لاعبيه سنويا على ٧٠ مليون دولار. كما باع لاتسيو نجومه، وقرر تقليص رواتب لاعبيه إلى ٦٥ مليون دولار فقط، بينما أنفق يوفنتوس فى موسم واحد مبلغ ١٦٥ مليونًا على شراء لاعبين، وترتب على ذلك بيع زيدان وفيلبو إنزاجى.



وتحقق الأندية الكبرى فى العالم هذه الأرقام من حصيلة دخل المباريات وحقوق البث التليفزيونى وجوائز البطولات التى تحققها، فبطل أوروبا يحصل على ٤٠ مليون دولار جائزة مالية، وبطل أفريقيا يحصل على مليون دولار، والفارق سببه مفهوم، فالاتحاد الأوروبى يبيع حقوق نقل مبارياته بمئات الملايين من الدولارات أما الاتحاد الأفريقى فقد باع حقوقه بمبلغ ٥ ملايين دولار، وهو إنجاز على أى حال. وأضيف أن للأندية الأوروبية والعالمية حصصًا من حصيلة المراهنات ومن متاجرها الخاصة التى تبيع لجماهيرها شعاراتها وهداياها التذكارية ففريق مثل مانشستر يونايتد يحقق دخلا قدره ٢٧ مليون جنيه أسترلينى من متاجره سنويا فى المتوسط.

ودائرة أو حلقة المال فى كرة القدم باتت متوحشة، لما تدره اللعبة من أرباح فمن أوجه الاستثمار فى الأندية الأوروبية «تربية اللاعبين وبيعهم» فيما بعد، وهو مايطلق عليه أكاديميات الناشئين أو مدارس الناشئين، فمن مدرسة ليفربول الإنجليزى تخرج مايكل أوين، أحد أبرز نجوم اللعبة فى إنجلترا، فيما أسس نادى إيه. سى.ميلان الإيطالى مدرسة فى نيجيريا وينفق عليها، و هذا النادى لهث فى عام ١٩٩٩ خلف لاعب غانى موهوب عمره ١٢ عاما ويعيش فى الولايات المتحدة، واللاعب يدعى فريدى إدر، وعرض ميلان على عائلة إدر مبلغ قدره ١٢٥ ألف دولار لرعايته أثناء دراسته فى أمريكا، بدون التوقيع على عقد احتراف، ورفضت الأسرة العرض مفضلة الانتظار حتى لايتحمل الطفل ضغوطا مبكرة، لكن الفكرة أن ميلان يرغب فى استثمار موهبة اللاعب على أن يستفيد به بعد سنوات بإشراكه مع الفريق الأول أو بيعه بملايين الدولارات، وقد اضطر الاتحاد الدولى الى منع عقود الاحتراف للاعبين الأقل من ١٨ سنة بعد أن تحولت المسألة إلى مايشبه تجارة الرقيق!



وفى بطولة كأس العالم الأخيرة بكوريا واليابان كان الصراع مريرا وشديدا بين كبرى شركات الملابس الرياضية، والواقع أن شركة أديداس الألمانية من أبرز المؤسسين لما يسمى بالاقتصاد الرياضى، ففى عام ١٩٧٦ بعد الخسائر التى منيت بها دورة الألعاب الأوليمبية فى مونتريال أسس هورست داسلر رئيس شركة أديداس «إدارة خدمات الرياضة والترفيه العالمى».. (ISL) وساهمت بها مجموعة من أهم الشركات اليابانية. وقد أنفقت شركة أديداس فى مونديال كوريا واليابان ٤٠٠ مليون يورو بما فيها أجور الدعاية والإعلان، وتمنح الشركة الفريق الفرنسى ١٢ مليون يورو مقابل رعايته، وكانت حددت قبل انطلاق المونديال الأخير مبلغ ٦ ملايين دولار للفريق فى حالة الفوز بالكأس، وأنفقت منافستها شركة نايكى ١٠٠ مليون دولار وهذه المنافسة بين أديداس،ونايكى وبوما على كعكة كرة القدم تعنى وجود مصالح، وبالتالى لابد من الدفاع عنها بما هو مشروع أو غير مشروع، وعندما أصيب رونالدو نجم البرازيل قبل المباراة النهائية لمونديال ٩٨ مع فرنسا خرجت تفسيرات عجيبة للإصابة، ومنها أن شركة الملابس التى ترعى رونالدو تدخلت فى الأمر حتى لايلعب المباراة بحذاء شركة أخرى منافسة ترعى فريق البرازيل، وكان ذلك تفسيرا غامضا للإصابة الغامضة التى وقعت للنجم البرازيلى ليلة المباراة حيث سقط مغشيا عليه بلاسبب مفهوم!.

وفى السابق كان اللعب لمنتخب بلادك شرفا كبيرا، لكنه لم يعد كافيا فى السنوات الأخيرة مع انتشار الاحتراف، وقد وعدت أسبانيا - مثلا - لاعبى المنتخب بمكافأة تصل إلى ٤٤٥ ألف دولار فى حالة الفوز بكأس العالم الأخيرة، وكان نصيب لاعب المنتخب الفرنسى ٢٩٠ ألف دولار، بينما خصص الاتحاد الألمانى ٨٥ ألف دولار لكل لاعب فى حالة الفوز بالكأس. ووعد الاتحاد الإنجليزى لاعبى الفريق بمكافأة تصل إلى ٣٦٠ ألف دولار. والمدربون أيضا لهم نصيبهم من الوعود والمكافآت، فقد خصص الكوريون مبلغ ١,٨ مليون دولار لمدرب منتخبهم وهو الهولندى جوس هيدينك فى حالة الفوز بالكأس بينما وضع الإنجليز أمام مدرب المنتخب علاوة قدرها ٧٣٠ ألف دولار زيادة على راتبه الذى يبلغ سنويا ٣,٦ مليون جنيه استرلينى!

وقد عرفت اللعبة الاحتراف منذ مائة عام لكن البداية الحقيقية لغزو المال كانت فى عام ١٩٦٨ حيث بدأت إعلانات الدعاية لبعض الشركات توضع على فانلات الفرق كشكل تجارى غير من مفهوم التعامل مع اللعبة، وبات المهم تحقيق الأرباح.

وهذا المفهوم جذب الشركات التجارية الكبرى لرعاية فرق كرة القدم فى كل بلدان العالم، ففى إيطاليا ترعى فيات فريق يوفنتوس والمنتخب، وتمتلك شركة فيليبس الهولندية فريق إيندهوفن وباير ليفركوزن الألمانى، وأصبحت الأندية تمتلكها أو ترعاها شركات ألبان، وسيارات، وتليفونات، كما دخلت مجال رعاية الأحداث الرياضية الكبرى العديد من الشركات،ومنها كوكاكولا، وسونى، وزيروكس، وكانون، وتدفع هذه الشركات ملايين الدولارات مقابل ظهور شعاراتها فى البطولات الرياضية، وفى مونديال فرنسا ١٩٩٨ دفعت كل من فيجى وكانون ٣٠ مليون دولار من أجل الشراكة بالدعاية الإعلانية.



والمال والاحتراف جعل اللعبة مثل الحمى فى العالم أجمع، فاللاعب الذى يملك الموهبة ويقوده حظه إلى أحد الأندية الكبرى يتحول إلى مليونير فى غضون سنوات، فلاعب مثل بيليه الذى كان والده ماسحًا للأحذية أصبح مليونيرًا فى الستينيات، وديفيد بيكهام لاعب مانشستر يونايتد يتقاضى راتبا سنويا يصل إلى مليون جنيه استرلينى وأريكسون مدرب منتخب انجلترا يتقاضى راتبا أسبوعيًا قدره ١٢٠ ألف دولار، والفريق الذى يفوز ببطولة دورى أبطال أوروبا يحصل على جائزة مالية قدرها ٢٧ مليون جنيه استرلينى، واقترب حجم الإنفاق السنوى فى الدورى الإنجليزى من مليار جنيه استرلينى، وباع برشلونة الأسبانى حقوق نقل مبارياته تليفزيونيًا فى موسم واحد بمبلغ ٨٥ مليون دولار، وانتقل لويس فيجو البرتغالى إلى ريال مدريد بمبلغ ٥٩ مليون دولار، وانتقل الفرنسى زين الدين زيدان من يوفنتوس الإيطالى إلى ريال مدريد بمبلغ ٦٥ مليون وهو ماوصف فى حينه بأنه صفقة القرن، وأن زيدان ثمنه يساوى ثمن طائرة إيرباص صغيرة ويصل دخل زيدان الشهرى الى ٢,٥ مليون دولار وريفالدو ٣,٦ مليون دولار، وهناك أكثر من ٥٠ لاعبًا فى العالم يزيد دخل أحدهم الشهرى على المليون دولار!

ولاشك أن انتشارالتليفزيون والفضائيات أتاح انتشار كرة القدم، ويمكن نقل مباريات من أقصى مكان فى الأرض، فالناس فى شنيانج بالصين أو فى الخرطوم لايعرفون أن مانشستر مدينة إنجليزية، لكنهم يشجعون مانشستر يونايتد، وكثيرون لايعرفون اسم رئيس جمهورية فرنسا لكن ملايين البشر يعرفون اسم زين الدين زيدان، بل إنه أثناء مونديال ٢٠٠٢ ازدهرت متاجر المليونير اليابانى هيروكى ميياجى، وحقق مبيعات هائلة لصور وقمصان دافيد بيكهام والتى بيعت باسم«ديديدو بيكامو» أى دافيد بيكهام كما باع شعارات وهدايا تحمل علامة مانشستر يونايتد، وهذه الشعبية للاعب ولفريق



وصل حجم الإنفاق على اللعبة فى العالم عام ١٩٩٤ إلى ٢٢٥ مليار دولار سنويا، ويتمثل هذا الإنفاق فى شراء محطات التليفزيون لحقوق البث المباشر وشراء الأدوات والملابس وبناء الملاعب وصيانتها، وعقود اللاعبين والمدربين والحكام ورواتبهم





إنجليزى فى أقصى الشرق البعيد سببها التليفزيون!

ولم يعد غريبًا هذا السباق المحموم بين الدول لاستضافة بطولات كأس العالم لكرة القدم أو بين المدن لاستضافة الألعاب الأوليمبية، فقد باتت الأحداث الرياضية مربحة للغاية، وإذا كانت اليابان أنفقت ٩ مليارات دولار لبناء المنشآت الرياضية، بينما أنفقت كوريا ٥ مليارات دولار، فإن الأرباح المتوقعة تقترب من ضعف حجم الإنفاق، فكوريا وحدها توقعت دخلا يقارب ٩ مليارات دولار بجانب خلق ٣٥٠ ألف فرصة عمل جديدة. ومما لاشك فيه أن الدولتين بالغتا فى الإنفاق حتى أن الفيفا اشتكى من إقامة المباريات على ٢٠ ملعبا، وهو ضعف العدد المطلوب لتنظيم المونديال.

ماذا فعل بيع اللعبة؟

وهكذا لم تعد كرة القدم مجرد لعبة بل صناعة وتجارة، وشأن أى صناعة هناك أطراف لها مصالح، وهى أطراف قوية، تبذل مافى وسعها لبيع اللعبة وللدفاع عن مصالحها، ومع دخول المال والمصالح ظهر الصراع والفساد!

ولعل العاصفة المدوية التى هزت أركان مقر جمهورية كرة القدم القابع فى لوزان بسويسرا قبل مونديال كوريا واليابان تعكس صورة من صور الفساد الذى دخل اللعبة. و كانت رئاسة الفيفا قد خرجت لأول مرة من أوروبا إلى أمريكا اللاتينية عام ١٩٧٤ عندما تولى المنصب الملياردير البرازيلى جواو هافيلانج خلفًا للإنجليزى سير ستانلى راوس، وهو الرجل الذى ظل مصرا على براءة اللعبة ونظافتها، وكان يقول دوما: «لن نبيع كرة القدم إلى الشركات التجارية»، وعانى الاتحاد الدولى من ضيق ذات اليد فى تلك الفترة ثم قام هافيلانج الذى كان يمتلك أربعة بنوك فى ريو دى جانيرو بتقديم أفكار جديدة لانتشال الفيفا من عثرته، وظهرت المشاكل المالية حتى أن الفيفا الذى أودعت فى خزائنه ٢٥٠ مليون دولار بعد بطولة كأس العالم فى الولايات المتحدة ظهر فى حساباته وجود ١٠٠ مليون دولار فقط فتساءل الكثيرون: أين الباقى؟

وكان بلاتر هو العقل المفكر لهافيلانج، وهو وراء نجاح تسويق بطولتى مونديال ١٩٩٠ و١٩٩٤، وجوزيف بلاتر المولود فى مدينة فيسب السويسرية يجيد ٤ لغات ويحمل بكالوريوس فى الأعمال الإدارية والاقتصادية من كلية القانون فى لوزان، تولى منصب رئيس الفيفا عام ١٩٩٨ بعد اعتزال هافيلانج، وعقب فوز بلاتر على منافسه لينارت يوهانسون رئيس الاتحاد الأوروبى ظهر كتاب فى الأسواق هز أركان الفيفا للكاتب البريطانى ديفيد يالوب بعنوان: كيف سرقوا اللعبة؟

واتهم الكاتب بلاتربالفساد، وبدفع رشوة قدرها ٥٠ ألف دولار لكل ناخب يعطيه صوته،

وكشف فرح إدو نائب رئيس الاتحاد الأفريقى أنه تلقى مكالمة هاتفية من أحد سفراء الصومال فى دولة خليجية قال له: «هناك عرض من صديق لك لدفع ١٠٠ ألف دولار نصفها نقدا والنصف الآخر كمعدات رياضية لتمنح صوتك إلى بلاتر فى انتخابات الفيفا عام ١٩٩٨ وأثارت تصريحات الصومالى إدو ضجة هائلة قبيل الانتخابات الأخيرة التى أجريت فى ٢٩ مايو الماضى قبل انطلاق المونديال، لكن الساحر السويسرى بلاتر هزم منافسه الأمير الأفريقى عيسى حياتو باكتساح، وهو أمير بحق، ومن أسرة كاميرونية عريقة!




ولم تكن قضية الرشوة هى دليل الفساد الذى أصاب جمهورية كرة القدم فقد تعرض الاتحاد الدولى فى عام ٢٠٠١ لهزة بعدإعلان إفلاس شركة (I.S.L) إنترناشيونال سبورتس أند ليزر» وهى الشريك التجارى للفيفا. وتعدت الأضرار مبلغ مليار دولار، وليس كما أعلن بلاتر ٢٠ مليون دولار فقط. وكشفت التقارير اختفاء مبلغ نصف مليار دولار من أرصدة الفيفا دفعتها شركة كيرش الألمانية لاحتكار نقل مونديال ٢٠٠٢ تليفزيونيا، والواقع أن رئيس الفيفا بلاتر استخدم ٣٦٠ مليون دولار لتغطية إفلاس شركة I.S.L وقبل الانتخابات الأخيرة فجر ميشيل روفينين سكرتير الاتحاد الدولى مفاجأة بكتابة تقرير من ٢١ صفحة عن الفساد المالى للمؤسسة الكروية الكبرى يتهم فيه بلاتر بمنح رشاوى لأشخاص، وسوء إدارة أموال الفيفا، وأن الاتحاد خسر ٥٠٨ ملايين دولار خلال فترة رئاسة بلاتر وأنه منح الروسى فياشسلاف كولو سكوف راتب عامين قيمته ١٠٠ ألف دولار كعضو فى اللجنة التنفيذية وهو لم يكن عضوًا بها. وهذا بخلاف الأموال التى منحت بمبادرة شخصية من بلاتر إلى اتحادات أفريقية مثل التى سلمت إلى سيزار كايزارى رئيس الاتحاد الرواندى وقيمتها نصف مليون دولار.

وأشار روفينين فى تقريره إلى أن الشركة الأمريكية آى. آى. إم عرضت مبلغًا للنقل التليفزيونى بزيادة قدرها ١٠٠ مليون دولار عن ماقدمته شركة آى. إس.إل ثم كيرش، ولكن الكعكة ذهبت إلى مجموعة كيرش الألمانية!

وبالرغم من ذلك نجح جوزيف بلاتر بتفوق وهزم حياتو، ومازال يجلس على مقعد الحكم فى الجمهورية الكبرى، لكنه مهدد باحتمالات نظر قضية الرشوة والفساد فى المحاكم السويسرية فى ديسمبر المقبل، ومن المؤكد أن أركان الفيفا اهتزت، وأن الفساد مهما طال عمره فهو قصير، ولن تموت اللعبة بما فيها من مظاهر نبيلة وجمال، وتنافس شريف، وصراع لايتعدى حدود الساحة الخضراء، وكما قال يوما الفيلسوف الفرنسى الجزائرى الأصل ألبير كامو العاشق لكرة القدم: «كل ما أعرفه عن الأخلاق وواجبات الإنسان أدين به لكرة القدم»! ■



عن الحرية

تأليف: جون ستيوارت ميل

يعتبر جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) من أعلام الفكر السياسى والفلسفى فى بريطانيا إبان القرن التاسع عشر، وقد ذاع صيته بسبب كتابه المهم عن الحرية والنفعية والحكومة النيابية الذى يدعو فيه إلى الالتزام بمبادئ حرية الفرد التى تقوم على أساسها حرية المجتمع، وهو المبدأ الذى يقول إنه اقتبسه من الشاعر الإنجليزى المعاصر له وليم وردزورث، ومبادئ الالتزام بالواقع ونشدان ما ينفع الناس فيه، أى الاستناد إلى الواقع لا إلى المثل العليا فى إصدار الأحكام على الأشياء، وهو الذى كان والده جيمس ميل يدعو إليه ورباه على احترامه، متبعًا فى ذلك خطى جيريمى بنتام فيلسوف النفعية الشهير.

وقد كتب جون ستيوارت ميل كتابات متخصصة فى شتى المجالات الفلسفية التى شغلت عصره، فوضع نظامًا سماه نظام المنطق عام ١٨٤٣ كان له تأثيره الكبير فى معاصريه، ولم تمض سنوات خمس حتى كتب كتابًا مايزال رجال الاقتصاد يرجعون إليه وهو مبادئ الاقتصاد السياسى (١٨٤٨) كما كتب فى أواخر حياته كتابًا يدعو فيه إلى تحرير المرأة. وكان فى ذلك كله متأثرًا بالفلسفة النفعية مع تحوير بعض جوانبها استنادًا إلى خبرته الشخصية، خصوصًا بعد أن انتخب عضوًا فى البرلمان ومارس الحياة السياسية عمليًا.

وهذا الكتاب الذى نشرته مكتبة الأسرة فى مصر من أمهات كتب الفكر السياسى والفلسفى حتى اليوم، ولا يستطيع دارس لتطور مفهوم الحرية فى القرنين الماضيين أن يغفل جهود ذلك المفكر.



الإصلاح والثورة

قراءة فى فكر الطهطاوى

رضوان السيد

سأل الأمير شكيب أرسلان (توفى ١٩٤٦م) نفسه: لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟ ثم راح يجيب عن السؤال على مدى مائتى صفحة. وما كان هذا سؤال رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)، لكنّ ذاك السؤال نفسه هو ما انتهى إليه مؤتمر الطهطاوى الذى انعقد بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر بمناسبة الذكرى المائتين لولادة «الطهطاوى رائد التنوير» (٢٠ ـ ٢٢ أبريل، ٢٠٠٢).

المعروف أنّ الطهطاوىّ الشابّ الذى جاء من صعيد مصر، ودخل الأزهر، وتخرج فيه، وعُيّن واعظاً وإماماً بالجيش المصرى، ما لبث أن سافر إلى باريس عام ١٨٢٦ م إماماً أيضاً للبعثة التى أرسلها محمد على والى مصر للدراسة فى تخصصات مختلفة. بيد أنّ الطهطاوىّ الذى لم يكن عضواً بالبعثة، أى أنه لم يكن ذاهباً للتعلّم، استطاع بجدّه واجتهاده الشخصى إقناعَ رئيس البعثة (الفرنسى جومار)، ووالى مصر بإدخاله عضواً فى البعثة، حيث تخرج بعد خمس سنين كما تخرج زملاؤه. هم فى العلوم العسكرية والفلك وعلوم البحار والهندسة والطب، وهو فى الترجمة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الإدارة. افتتح الطهطاوى انطلاقته بالقاهرة بعد عودته بنشر وقائع الرحلة إلى باريس (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز)؛ والتى تراوحت بين أدب الرحلة، وأدب طلب العلم أو الرحلة فى طلب العلم. ثم مضى قُدُماً على مدى أربعين عاماً ونيف يترجم ويؤلّف وينشر ويؤسسُ مدرسة الألسُن، وديوان المدارس، ومدرسة الطب، وعدة مؤسسات إدارية؛ ليُنهى حياته بمقالات فى الاجتهاد والتجديد. وبين هذا وذاك، أى بين «تخليص الإبريز»، والمقالات فى الاجتهاد، كانت كتبه التأسيسية: المرشد الأمين للبنات والبنين، ومناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، وسيرته للرسول (ص)، وتاريخه لمصر القديمة.



كان سؤال الطهطاوى الأساسى: كيف نتقدم؟ وما اختلف الباحثون فى مؤتمر الطهطاوى حول هذا الفهم لتجربته، لكنهم اختلفوا فى فهم إجابته عن السؤال. فقد درج الباحثون منذ مطلع القرن العشرين على اعتباره راديكالياً داعيةً للتنوير والتقدم والتحديث والثورة. ودليلُهم على ذلك أنه بدأ حياته الكتابية بالرحلة التى ترجم فيها الدستورَ الفرنسىّ، وقصَّ فيها قصّة ثورة الفرنسيين عام ١٨٣٠ ـ ١٨٣١ م على مليكهم حيث انقسموا إلى حُرّيين ومَلَكيين، كما وصف فيها حياة الفرنسيين العامة والخاصّة وصفاً فيه الكثير من الجراة والاستحسان.

المشكلة فى هذا التصور والتصوير أنّ الرجل كان على علاقة حسنة بالسلطة (فيما عدا فترة قصيرة أيام عباس الأول نُفى فيها إلى السودان)، كما أنه مُحافظ جداً فى الشأن الدينى، وكتبه ذات بنية تُراثية عميقة الجذور. فهو يفرّق بوضوح بين التقدم والحداثة إذا صحّ التعبير. إذ يحصرُ التقدم فى الحاجة إلى إنجازاتٍ فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم (تعليم العلوم العصرية). ومع أنه يدعو للمساواة بين الناس؛ وبين الرجل والمرأة، لكنه لايرى مشكلةً فى الدين والتفكير الدينى، ويرى أنّ الحاجة ماسّةٌ وحسْب إلى التقدم المادى فى المجالات السالفة الذكر، والتى تقدم فيها علينا الفرنسيون والأوروبيون بالدرجة وليس بالنوع. فنحن أمةٌ عريقةٌ فى العلوم والحضارة، ونستطيع بالجَهد والعمل أن نلحقَ وأن نَسْبِق لسابقة التجربة، وللتفوق الخُلُقى والإنسانىّ، والإيمان الدينى.

انهمك باحثون كثيرون أثناءَ المؤتمر فى عرض قراءات متنوعة لتخليص الإبريز، باعتباره تارةً الأثر الأول لصدمة الغرب بالعربية إذا صحّ التعبير. بينما راح آخرون يدرسونه باعتباره نصّاً أدبياً فى رؤية الآخَر. وانصرف آخرون لقراءة «المُرشد الأمين» ودلالاته على تقدم الطهطاوى فى فهم قضية المرأة، وفهمه العميق لمسالة التعليم، ومعنى تلقّى العلوم العصرية. وقال فريقٌ ثالثٌ إنه إذا كان «تخليص الإبريز» نصاً ثورياً تغييرياً؛ فإنّ كتاب «مناهج الألباب» هو التدوين الأوضح لمنهج الإصلاح والبناء.





على أنّ العروضَ الوصفية، والقراءات الكاشفة، ظلّت تدورُ حول فهم «شروط التقدم» عنده. بيتر غران صاحب الدراسة الرائدة: الجذور الإسلامية للرأسمالية (١٩٧٩) قال إنه مقتنعٌ بأنّ الشيخ حسن العطّار (ـ ١٨٣٥) شيخ الطهطاوى، والناصح بإرساله إلى باريس، هو النهضوى الحقيقى؛ بناءً على رؤيته القائلة إنّ القرن الثامن عشر الميلادى شهد نهوضاً إسلامياً اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ـ وهو النهوض الذى قضى عليه الاستعماران الفرنسى والبريطانى لصالح حداثة غربية أو بداية غربية جديدة. وحسب هذه النظرة فإنّ الطهطاوىّ داخلٌ ضمن التغريب التحديثى الذى جاء على يد محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورأى كاتب هذا المقال أنّ ذلك غير صحيح لا بالنسبة للشيخ العطّار ولا بالنسبة للطهطاوى؛ رغم أنّ بينهما فرقاً واضحاً فى فهم «شروط النهوض». العطّار كان يرى ضرورة الإصلاح الدينى شرطاً لوجوه الإصلاح الأخرى. أما الطهطاوى فقد ظلّ مصرّا على أنّ الضرورىّ هو التقدم المادى أو فى مجال الحكمة العملية، كما كان يقول. أمّا الإصلاح الدينى فما كان يرى حاجةً إليه أو أنه لم يكن يحسُّ بضرورته. لكن ليس هذا فقط؛ بل أسّس كتبه كلها تأسيساً تُراثياً أو وضعها ضمن التقاليد الموروثة للأنواع أو الأجناس الكتابية. فقد اكتشفتُ أنه نقل عن عشرات المصادر القديمة عشرات الصفحات. كما بنى كتبه على موضوعات وتقسيمات خلدونيّة وماورديّة (نسبة لابن خلدون والماوردى). ويتساوقُ ذلك مع نصوص صريحة له ومتعددة تعتبر التقدم الغربى المادّىّ عارضاً يمكن اللحاق به أو استدراكه بالعمل وبالعمل وحسْب؛ وإقامة المؤسسات أو التنظيم، وتدريب الأجيال من البنين والبنات على ذلك؛ مع التمسك بالدين

لا شك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذى تقودُهُ الدولة، لكن النجاح متوقف على وعى المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجُه العالمى لهذا المشروع النظام الفرنسى، ونموذجه الإسلامى دولة محمد على بمصر

الإسلامى، والخُلُق العربى. أمّا الجديدُ فى رؤية الطهطاوى ـ بالإضافة لذلك ـ فهو رؤيتُهُ الواسعة والسمْحة للآخر وفهمه كما يريد ذاك الآخَر أن يُفْهَم. صحيح أنه يستنكر بعض أخلاق الفرنسيين. لكنه فى الأعمّ الأغلب يكتفى بالوصف الدقيق، أو يستطرد للمقارنة وإظهار الشبه بينهم وبين المسلمين. والطريف أنّ بعض المشابهات والمفارقات ما عادت صحيحةً اليومَ أو أنها ما كانت صحيحةً يومَها أيضاً. فهو يقارن بين قول الفرنسيين بالحق الطبيعى، وعلم أصول الفقه عند المسلمين. والحق الطبيعى يقابل الوحى الإلهى، وليس أصول الفقه. وهو يرى أنّ مفتاح فهم الحضارة الأوروبية التحسين والتقبيح العقليان. بينما مفتاح فهم الحضارة الإسلامية التحسين والتقبيح الشرعيان. والأدنى للدقة بالنسبة للحضارة الأوروبية الحديثة القول بالحق الطبيعى. وللحضارة الإسلامية القول بالخَلْق والتكليف. أمّا التحسين والتقبيح الشرعيان فهما خاصّان بما يترتب عليه ثوابٌ وعقابٌ، لكنّ أصول الأشياء بما فى ذلك التكليف قائمةٌ على العقل عند أهل السنة أيضاً وليس عند المعتزلة وحسْب؛ كما درج دارسو الطهطاوى على القول والتقرير.

ولعلّ جزءًا من الاختلاف فى فهم منظومة الطهطاوى الفكرية قائمٌ على اعتبار الطهطاوى مُنظِّراً كبيراً لتجربة محمد على الإصلاحية والنهضوية. وهذا صحيح. لكنه بالدرجة الأولى معلّم. ولذلك أكثر من الترجمة، وأقلّ من التأليف. فقد ترجم أو أشرف على ترجمة حوالى الأربعين كتاباً، بعضُها يبلُغُ مئات الصفحات. وفى سنيّه العشر الأخيرة أقبل بتكليف رسمىٍ على ترجمة القانون الفرنسى مع لجنة. فالرجل معلّمٌ بالدرجة الأولى، أمّا محاولاتُهُ الكتابية فينبغى (فيما عدا تخليص الإبريز) اعتبارُها تنظيراً أو تعليلاً لمسألة التعلّم والتعليم. وحتى تليماك لفنلون، والتى ترجمها عندما كان بالسودان، لم يترجمْها لأنها قصة أو تتخذ صيغة رواية؛ بل لأنّها روايةٌ تعليميةٌ لولى العهد، وربما أراد الطهطاوى أن تكون كذلك لأمراء مصر.

هكذا يكون الطهطاوى متأثراً بطريقة محمد على حاكم مصر، فى التفكير والتعرف، بأكثر مما يريد الباحثون العرب إدراكه أو الاعتراف به : فالمطلوب تعلّم العلوم العصرية، وممارسة التجارة والزراعة والصناعة بطرائق عصرية، من أجل النهوض والتقدم. أما ما يسمى التفكير العصرى أو الإصلاح الدينى، فلا حاجةَ إليهما، وقد يكونان مُضرّين. وما هكذا فهم خير الدين التونسى ومحمد عبده مسألة التقدم. بل أرادا إصلاحاً فكرياً ودينياً باعتباره شرطاً للتقدم. أما جمال الدين الأفغانى فقد أراد الإصلاح السياسى بالدرجة الأولى.

ليس المقصود هنا التقليل من شأن فكر الطهطاوى، فقد كان الرجل يعرف التراث العربى والإسلامى معرفة جيدة جداً. ونعرف الآن أنه كان يملك مكتبة عامرة بالمخطوطات العربية والإسلامية. وقد استخدم مخطوطات ومطبوعات كثيرة من خارج مكتبته. بيد أن الأولوية عنده فى الاستخدام كانت لكتب الأدب. وكتب السَمَر والأخلاق والأخبار، ومرايا الأمراء، والطرائف، وكتب الجغرافية والتاريخ، والطبقات، وآداب الصوفية. أما الكتب الفقهية والكلامية التى استعملها فتنتمى إلى التعليقات والحواشى والمتون المتأخرة. وهى شديدة المحافظة فى سائر المسائل وبخاصة ما تعلق منها بالعقائد. وكثيرًا ما لجأ لدعم هذه القضية أو تلك برأى أو فتوى لأحد معاصريه أو شيوخه. والظاهر أنه ما كان مقتنعًا حتى الستينيات من القرن التاسع عشر بالحاجة إلى إصلاح دينى ـ وهذا يُعلل ضآلة الأفكار المعروضة فى رسالته عن الاجتهاد والطابع المدرسى والجدالى الغالب عليها. ويستند هذا الأمر فيما يبدو إلى اقتناع لديه بأن الإسلام؛ بل والبنية الدينية التقليدية للمجتمع وللعلم الدينى الأزهرى لا تشكل عقبة فى طريق التقدم. صحيح أنه يريد من الأزهريين التعرف على العلوم العصرية؛ لكنه يطلُبُ ذلك منهم لكى يستطيعوا تنظيم أمورهم، وفهم التراث الدينى والعالَم بشكل أفضل. أما التقدم فهو مشروع الدولة والجماعة وشأنهما؛ وهو لا يحتاج للتسويغ إلا من الناحية العقلية المصلحية، والعملية. فالمنافع العمومية التى تُحدثُ التقدم هى الزراعة والصناعة والتجارة، ولَا حاجة فيها إلا لدولة القانون التى تُسوّى بين الرعايا فى التعامل، وتضمن حماية الملكية، وتترك الناس يكدّون ويعملون، استنادًا إلى التجارب والمعارف المكتسبة بالتربية الحديثة. فالدنيا الأوروبية الناجحة هى دنيا علم وعمل وسعى، والتفكير الإسلامى من هذه الناحية ثرى بقيم العدالة والكسب الحلال والعمل الجاد. وصحيح أن هناك من يخلط بين التوكُّل والتواكل، ويستند إلى بعض ما يرد فى التراث الدينى أو الأدبى؛ لكن المسألة مسألةُ وعى واختيار كبيرين. والتربية القائمة على ركنين أساسيين هما الأخلاق الإسلامية والعربية السليمة، والمعارف العصرية، كفيلة بالانتصار للمنافع العمومية. ومما يؤكد على اعتبار الطهطاوى التقدم وعيًا ومعرفة وتربية إصراره على ضرورة تحمُّل المواطنين الأعباء الاجتماعية مع الدولة، سواء بإقبال الأفراد الأغنياء على مكافحة الفقر والعَوَز بالصَّدَقات المنتظمة والأوقاف، أو بإنشاء «الجمعيات التعاونية» للغَرَض نفسه. ومن هذا الباب نقدُهُ لتضاؤل معنى المؤسسة فى الوقف مع أنه فى الأصل ذو طابعٍ مؤسسى غلّاب.



وهكذا لا شك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذى تقودُهُ الدولة، لكن النجاح متوقف على وعى المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجُه العالمى لهذا المشروع النظام الفرنسى، ونموذجه الإسلامى دولة محمد على بمصر. وبالوسع القول هنا دونما تجنٍّ على الطهطاوى أو ابتسار أو إسقاط أنه كان يفرق بوضوح بين التقدم والحداثة إذا صح التعبير. بمعنى أنه ما كان يرى ارتباطًا بين مذهب الحرية، كما يسميه، والمجتمع المنتج والمتقدم. فقد ظلت التجربة الفرنسية فى التقدم حاضرة فى أكثر كتاباته فى جوانبها العلمية والاقتصادية والصناعية والإنتاجية والقانونية؛ أما الجانب السياسى البحتُ فقد غاب بعد «تخليص الإبريز» الذى كتبه فى عامى ١٨٣٠ و١٨٣١. ولا أرى أن استبدادية محمد على، وتقليدية أنظمة الحكم بالمشرق، كافيتان لتعليل هذا التجاهل أو ذاك الغياب: بل يبدو أن ذلك كان اقتناعًا ذاتيًا لديه، على الرغم من معاناته الشخصية بالإبعاد إلى السودان أيام عباس الأول (١٨٤٩-١٨٥٤) .

على أن سؤال المشروع والتقدم، يطرحُ من جديد قضية التراث والمواريث فى فكره وكتاباته من حيث الوظائف والدلالات.

أول ما يفجأُ العينَ الفاحصة فى تعامل الطهطاوى مع التراث العربى بقاؤه الواعى ضمن التقاليد التأليفية المتعارف عليها، والأنواع الأدبية التقليدية والمتوارثة. فهو يمزج فى «تخليص الإبريز» بين النوعين المتوارثين: أدب الرحلات، والرحلة فى طلب العلم. ولا شك أن هناك تجديدات فى التفاصيل، وتقسيم الفصول اقتضتها الطبائع المتغيرة للرحلة، والتى رجَع فيها لبعض المؤلفات الأوروبية، كما ذكر ناشرو إحدى طبعات التخليص.



أما كتابُهُ الرئيس ـ حسب ألبرت حورانى ـ «مناهج الألباب المصرية...»، والذى يقول فى مقدمته إنه يريدُ من ورائه تهذيب الأخلاق (أى أخلاق الأفراد)، والتوعية بالمنافع العمومية (أى أخلاق الجماعة أو مكاسبها)؛ فإنه يحتذى فيه حذو كتاب الماوردى الأخلاقى المعروف باسم «أدب الدنيا والدين» عندما يؤسسه على أصلين مثل الماوردى تمامًا: الأصل الأول قولُهُ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُهُ إلاّ من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ يُنتفعُ به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له». والأصل الثانى، القولُ المنسوب للمأمون العباسى إن أسباب المعاش أو وجوه المكاسب تنقسم إلى أربعة أقسام: زراعة وصناعة وتجارة ونتاج حيوان.

ولا شك أن «مناهج الألباب» كتابٌ نهضوىٌّ تتناثرُ فيه أفكارٌ وموضوعاتٌ حديثةٌ كثيرةٌ؛ لكن الطهطاوى يريد لقارئه أنه يظل مقتنعًا بانتمائه إلى كتب الأخلاق العملية الإسلامية بتكرار ذكر أسباب المعاش أو وجوهها فى مختلف الفصول، وتكرار الاستشهاد بحديث النبى ﷺ السالف الذكر، وتكرار النقل عن أدب الدنيا والدين للماوردى، فضلاً عن النقول النثرية والشعرية والقَصص التراثى الكثير، كما يفعل المؤلفون القُدامى ضمن هذا الجنس الأدبى. والطريف أن الفصل الخاص بمصر، وحب الوطن المصرى، والذى تتخلله سطور شديدة الحداثة، منقول فى أكثر أجزائه من الأبواب والفصول التى تُعقَدُ لحب الوطن فى مؤلفات السمر والأخلاق الكلاسيكية أيضًا.

والأمر نفسه يمكن قولُهُ عن كتابه: «المرشد الأمين للبنات والبنين». فالموضوع يكادُ يكون جديدًا تمامًا. لكن الطهطاوى وضع له مقدمات منها «مقام العقل» المأخوذ من كتاب «روضة العقلاء» لابن حبان البُستى؛ ومنها «ناطقية الإنسان» المأخوذ عن الماوردى، وميل الإنسان للعمران، وفكرته مأخوذة عن ابن خلدون. ثم هناك عشرات الفصول عن النساء وأخلاقهنّ وأشكالهنّ، مأخوذة عن كتاب النساء لابن الجوزى؛ فضلاً عن النثريات والشعريات الكثيرة المأخوذة عن كتب السمر والأخبار التى تتضمن أبوابًا عن النساء.

لعلّ جزءاً من الاختلاف فى فهم منظومة الطهطاوى الفكرية قائمٌ على اعتبار الطهطاوى مُنظراً كبيراً لتجربة محمد على الإصلاحية والنهضوية. وهذا صحيح. لكنه بالدرجة الأولى معلم. ولذلك أكثر من الترجمة، وأقلّ من التأليف

أما سيرته للنبى ﷺ فهى منقولة عن الشفا للقاضى عياض، وللوفا لابن الجوزى، وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير، وشرح الشهاب للخفاجي.

وهناك أخيرًا رسالة: «القول السديد فى الاجتهاد والتقليد» وإشكاليتها قائمة عن الأثر المنسوب للنبى ﷺ ونصه: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة أمر دينها»؛ أما مادته فمأخوذة من كتاب السيوطى: «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض»؛ مع إضافات جدالية لأصدقائه وزملائه من فقهاء الشافعية.



إذا كانت لذة الاستشهاد والقص والسرد والعرض والاستعراض أحد دوافع الاستغراق فى الاقتباس والإيراد عند الطهطاوى (من مثل ذكر المقامات الحريرية وأربعة شروح عليها)؛ فلاشك أن التواصل الشكلى والمضمونى مع التراث هدفه فى الأساس التسويغ. ويمكن الذهاب طبعًا إلى أن الطهطاوى مارس لعبة الاحتذاء والتناص على سبيل الإيهام. لكن الأمر يتجاوز الشكل إلى البنية النصية والثقافية. والتسويغ عنده على أى حال ليس المقصود به الشرعنة أو قضية الحلّ والحُرمة، بل التأكيد على البقاء فى السِياق الثقافى الكلاسيكى العربى والإسلامى، واجتراح التقدم فى الوقت نفسه. وقد يجوز هنا القول إنه كان مقتنعًا بأن العالم لم يتغير إلى حد ضرورة القطيعة مع الموروث. وقد يكون هذا معنى تأكيداته على التشابه بين العرب والفرنسيين فى أصول الأخلاق والعادات على الرغم من اختلاف الأحوال والسياقات. فالفروق فى الأوضاع الحضارية بين التقدم والتأخر لا تعود لأسباب دينية أو ثقافية؛ بل المطلوب اكتساب المعارف والتنظيم وليس غير لتجاوز التخلف. بل إن الاختلاف فى التجربة التاريخية أو الحاضرة لا يدل على الكثير. فالأمة الفرنسية تقدمت بالسعى الجماعى، بينما يتقدم المصريون بقرار من السلطة السياسية. لكن سيختلف الأمر، أى لن تنجح التجربة المصرية، إن لم يستو الوعى بالمنافع العمومية لدى الجماعة، بعد الاندفاعة التى أحدثها ساكنُ الجنان (الجنتمكان).

يستطيع المصريون والعرب والمسلمون التقدم إذن بالمعارف والتنظيم. فهم يملكون الجانب الخُلُقى والمعنوى، الذى يتساوون فيه مع الفرنسيين فى بعض الجوانب، ويتفوقون عليهم فى جوانبَ أخرى. والذى ينقصهم هو الجانب المادى للتمدن والمتصل بالتجارة والزراعة والصناعة، والذى يندفعون فيه الآن. والذى يُسوِّغُ الذهاب لإمكان ذلك، التجربة الحضارية الزاخرة، والتقاليد الثقافية العريقة التى نملكها، والتى ينبغى استمرار التواصل بها ومعها لتقوية هذا الجانب التأسيسى، الجانب المعنوى. وهكذا فإنّ التواصل الثقافى يدعمُ عمليات التقدم من طريق التأكيد على القيم الإيجابية الحية والفاعلة فى ثقافتنا. وفى هذا أيضًا يختلف الفرنسيون عن العرب والمسلمين. فهم تقدموا عندما قطعوا مع الكنيسة بل مع الدين المسيحى أو رغم قطيعتهم معهما. بينما نتقدم نحن بالحفاظ على هذا التواصل لاختلاف التاريخ واختلاف التجربة مع الدين بيننا وبينهم.

فكما نختلف عنهم فى القيم الدافعة للتقدم، نختلف عنهم فى العلاقة بديننا. فالتحسين والتقبيح، والخير والشر عندنا شرعيان، أى يحددهما الشرع؛ بينما هما عندهم عقليان.



ولا يبدو أن الطهطاوى يرتب على هذا المنطلق أو المفتاح النتائج الأخرى المتصلة بالعلاقة بالإسلام. لكن الدين الإسلامى والعلوم الإسلامية، والتجربة التاريخية الإسلامية؛ كل ذلك حاضر عنده بقوة. وفى حين يستخدم التاريخ الإسلامى، والشخصيات الإسلامية للاستمرار فى الدفع باتجاه القيم الفاضلة والإيجابية، يظل شديد المحافظة فى العقائد والفقه؛ وفى العقائد أكثر من الفقه. وقد يمكن القول إنه يتحفظ فى المسائل الدينية الخالصة فى مقابل الانطلاق والتحرر فى المسائل المتعلقة بالتقدم العلمى والاجتماعى والاقتصادى والتنظيمى. لكن قد يبدو من ناحية أخرى أنه لا يقيم علاقة جدلية فعلاً بين الأمرين؛ بمعنى أن الدين الإسلامى لا يعارض أو يدعم الإصلاحات العلمية والإدارية فى دولة محمد على ودولة التنظيمات العثمانية؛ إلا إذا لاحظنا إصراره على أن التجربة التاريخية الإسلامية حتى أيام العثمانيين كانت تجربة متقدمة حتى بمقاييس الدولة الفرنسية التى رآها، كما إذا لاحظنا إصراره على القيم الأخلاقية والعلمية الإيجابية التى يتضمنها التراث الدينى الإسلامى. ولهذا فالراجح أنه كان يقيم مثل هذا التوازن بين المحافظة البالغة أحيانًا فى الشأن الدينى، والتحرر البالغ أحيانًا أيضًا فى مجالات التقدم العلمى والتنظيمى. وهنا تعود إلى الظهور قضية التسويغ؛ بمعنى أنه كما التزم بالتقاليد الكتابية الإسلامية المتوارثة ليشير إلى إمكان استيعابها للتقدم العلمى والمعرفى والاجتماعى وأحيانًا السياسى؛ التزم أيضًا بالتقاليد المحافظة فى العقائد والكلام والفقه إظهارًا لإمكان أن تظل مسلمًا محافظًا، وأن تسعى فى الوقت نفسه لاكتساب المعارف الحديثة، والتنظيمات الحديثة؛ وإلاّ فما معنى لجوئه إلى متون علم الكلام السنّى الأشعرى المتأخرة، ولجوئه إلى كلام شيوخه وزملائه وفتاواهم فى العقائد كما فى الفقه؟!



إن علينا ألا ننسى أن الطهطاوى كان رائدًا فى مجال معرفة التقدم الأوروبى، وفى مجال نقل رؤيته وتجربته لدولته ونخبها الجديدة. و«رؤية العالم» لدى الرواد شديدة الاختلاط والجدلية على عدة مستويات. هناك المستوى الشخصى الذى يجرى فيه لدى الشخصيات القوية ـ مثل شخصية الطهطاوى ـ التركيز على الأولويات. والأولوية لدى الطهطاوى كانت اكتساب المعارف «العملية» كما كان يسميها، ونقلها لمجاله الحضارى. أما الأجزاء الأخرى للصورة فإنها تحتفظ بوظائفها أو أن وظائفها التقليدية تتخذ أبعادًا جديدة تتعلق بالتوازن أو الانتظام الشخصى فيجرى التأكيد عليها من أجل التماسك بالدرجة الأولى. وهناك مستوى العلاقة بالسلطة. ويبدو أنها كانت متسقة مع أولوية الطهطاوى فى نقل المعارف؛ ولهذا ما كانت هناك أزمة لديه من هذه الناحية معها حتى عندما ترجم الدستور الفرنسى. ثم هناك مستوى العلاقة بالمحيط والأساتذة والزملاء القدامى بالأزهر، والجدد بإدارات الدولة. وهؤلاء موقفه إزاءهم مزدوج؛ فمن جهة يريد أن يثبت لهم أنه لم يتغير. ومن جهة ثانية يريد إقناعهم بفوائد المعارف الجديدة.



لا شك أن «مناهج الألباب» كتابٌ نهضويٌ تتناثرُ فيه أفكارٌ وموضوعاتٌ حديثةٌ كثيرةٌ؛ لكن الطهطاوى يريد لقارئه أن يظل مقتنعاً بانتمائه إلى كتب الأخلاق العملية الإسلامية بتكرار ذكر أسباب المعاش أو وجوهها فى مختلف الفصول، وتكرار الاستشهاد بحديث النبى ﷺ السالف الذكر



ويبقى بعد هذا كله التساؤل البالغ الأهمية حول إدراكات الطهطاوى للزمن: فهل كان الطهطاوى يعتبر أن العالم تغيَّر، وأن هناك صورة جديدة تمامًا له تبرز للوجود؟ الذى يبدو من كتاباته وخاطراته أنه كان يعتبر المتغيرات كمية وليست نوعية، وأنه يمكن اللحاق بالأوروبيين بسهولة؛ إذ أننا تخلفنا عنهم قليلاً فقط بمقاييس القوة والمعرفة والتنظيم والتقدم. ولنذكر نصًا شديد الدلالة أورده الطهطاوى فى مطلع «التخليص» عن فقيه مالكى من ناحية أزوات على مقربة من تمبكتو اسمه مختار الكنتاوى. قال الطهطاوى عنه: «.. ألّف كتابًا سمّاه النزهة جمع فيه جملة علوم؛ فذكر بالمناسبة علم الهيئة، فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها، ووضح ذلك، فتخلص من كلامه أنّ الأرض كروية ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها! ومات الشيخ سنة ألف ومائتين وعشرين من الهجرة النبوية / ١٨٠٥م» فالتقدم الأوروبى تقدم بالكم وليس بالكيف أو النوع؛ بدليل أن فقيهًا من بلاد كُنت من أطراف الصحراء وصل إلى الحقيقة التى توصل إليها جاليليو: فلماذا لا تستطيع ثقافتنا العريقة، وأمتنا صاحبة الخيرية، استدراك ما فات، والاستعداد لما هو آت؟

فيا دارَها بالخَيف إنّ مزارَها
قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ



وأخيراً «هل نستطيع بعد هذا الاستعراض أن نجمع سؤالى الطهطاوى وشكيب أرسلان معاً ؟ أعنى : كيف يحصل التقدم ؟ ولماذا لم يحصُلْ ؟ والطهطاوى قال : يحصل بالتقدم فى المجالات المادية. والمحاولة تقودها الدولة؛ لكنّ «الجمعية المدنية» (= المجتمع المدنى) ينبغى أن يُساهم ويشارك، وإلاّ فشلت المحاولة. وشكيب أرسلان يعيد الفشل لفساد الفكر الدينى، والاختلاف أو الانقسام السياسى، والاستعمار الغربى. ويضع عبد الرحمن الكواكبى (١٩٠٣) المسئولية كلها على كاهل الاستبداد.

كان مؤتمر الطهطاوى بالغ الثراء والجدية. والثقافة سؤالٌ واحتمال، ولا تُقدم إجابات مباشرة أو أنّ تلك ليست وظيفتها. على أنّ ذلك لا يعنى أنّ القراءات المتعددة والمتجددة للنص ليست مفيدة. وهناك محظوران : عدم الاستنتاج نتيجةً تعدد القراءات أنّ الكاتب لم يقصد شيئاً أو شيئاً محدداً، وهذا ما حاوله بعض المشاركين من أساتذة النقد الأدبى ـ وتجنب الإسقاطات المعاصرة بقدر الإمكان. فلن يفيد فى الفهم اعتبار الطهطاوى علمانياً أو متغرباً.

ويبقى أنّ الطهطاوى عاش حياةً جادةً مجاهدةً من أجل النهوض؛ ولولا ذلك، أى لولا جديته، ما كنا لنختلف على فهمه حتى اليوم. ويبقى أيضاً أنّ المازق مازقنا وليس مازقه؛ وعلينا أن نجاهد للخروج منه. ذكر الطهطاوى عن بعض الحكماء (المأمون العباسى) قوله : وجوه المكاسب أو المعايش أربعة : زراعة، وصناعة، وتجارة وإمارة. فيكون علينا أن نتفحَّصَ صحة هذه المقولة فى سياقها التاريخى. وأنا أرى بدون تبسيط أنّ وجهة نظر الماوردى والطهطاوى ما تزال تستحق التامل والنظر، رغم أحلام الثوريين، وجمود التقليديين. ■



١٤ مركز للبيع وخدمة عملاء موبينيل منتشرة فى جميع أنحاء الجمهورية، لتجدوا فى إستقبالكم فريق عمل على أعلى مستوى من الكفاءة لتلبية احتياجاتكم المختلفة طوال أيام الأسبوع.

مراكز البيع وخدمة العملاء:

القاهرة:
- مركز التجارة العالمى: ١١٩١ كورنيش النيل - بولاق
- المعادى: ٤٩ شارع اللاسلكى
- مصر الجديدة: ١١٠ شارع الميرغني
- المهندسين: ٣٩ شارع شهاب
- مدينة نصر: ٨٠ شارع عباس العقاد
- الهرم: ٣٦٢ شارع الهرم - إخناتون مول

المحافظات:
- المحلة: ١٣ شارع شكرى القوتلى
- المنصورة: ٦٤ شارع الجمهورية
- بورسعيد: ١٦ شارع الجمهورية
- السويس: ١ شارع الجلاء - أبراج الخليج
- أسوان: ٩٧ كورنيش النيل

الأسكندرية:
- رشدى: ٢١ (ب) شارع سوريا
- سموحة: ٣٦ شارع مصطفى كامل

الساحل الشمالى:
- مارينا: ١٤ شارع الشانزليزيه

مواعيد العمل

فى القاهرة والإسكندرية: من ١٠ صباحاً حتى ١٠ مساءً
فى المحافظات: من ١٢ ظهراً حتى ٩ مساءً
ماعدا يوم الجمعة عطلة

لأى إستفسار إتصل بـ ١١٠ من محمول موبينيل أو ٠١٢٣٢٠٢١١٠ / ٧٦٠٩٠٩٠ من أى تليفون ثابت

MobiNiL
المحمول فى يد الجميع
www.mobinil.com

"العمل لمجتمع أفضل مسئولية فى يد الجميع"
موبينيل - صديقة البيئة
شركة موبينيل الحاصلة على شهادة الأيزو ١٤٠٠١

أوروبـــــا والإســــلام:

إن اختـزال القضـايا المعقـدة فى تصريحـات إذاعية قصيرة ومقـالات فى الصحف يعد أمرا سـيئـا فى حـد ذاته لكن إيمان الرئيس الأمـريكى بهذا المنطق الخاطئ يجعل الأمور أخطر أمنيا على المستوى الكونى

■■ فى السنوات الخـمس أو العـشر الماضـيـة، أصـبحت دراسـات العلاقات المسيحية الإسلامية ضربًا من صناعة البحث الأكاديمى. فقد أنشئت مراكز بحثية جديدة، وظهرت دوريات جديدة، وكُتبت كتب جديدة: وطوال الوقت، تتدفق آراء علماء الاجتماع، والمؤرخين، والفلاسفة، والنقاد الأدبيين على الصحافة الشعبية. والجمهور متعطش لهذا النوع من الأشياء. فالناس فى شوق شديد لمعرفة كيف يمكن لحضارتين قويتين ومتعايشتين بأشكال كثيرة أن تصبح كل منهما غريبة على الأخرى ومعادية لها. ونتيجة للحادى عشر من سبتمبر، والحرب فى أفغانستان، والعدوان الإسرائيلى المتجدد على فلسطين، سوف يظل هذا الاتجاه قائماً. ذلك أن الغرب يعيش حالة من القلق. وآخر مرة بدا فيها الإسلام مخيفاً بهذا الشكل كانت فى صيف عام ١٦٨٣.

ففى شهر يوليو من ذلك العام، غزا الوزير قره مصطفى أوروبا، حيث تقدم غرباً عبر أراضى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومعه حوالى ربع المليون من الجنود. وكانت تتقدمه فرقة من الفرسان التتار. وحاصر الترك ومرتزقتهم فيينا لمدة شهرين. وداخل المدينة، خزَّن المواطنون المؤن وأصلحوا التحصينات: وفى الخارج نشر قره مصطفى خيامه، بينما حاول المنقبون وخبراء الذخيرة لديه نقب الأسوار. وفى المناطق الواقعة غرباً كان المسيحيون القلقون ينتظرون أخبار النصر أو الهزيمة. ولو كانت الـ«سى.إن.إن» أو الجزيرة تغطيان الحصار، لكان العالم كله على علم بأخبار الدراما أولاً بأول.

وفى النهاية، جاء الحلفاء للإنقاذ. ولم يكن ذلك لأن أوروبا كانت على رأى واحد. فقد كانت الحملات الصليبية مجرد ذكرى - حيث كان العالم المسيحى بأسره يهب فى تلك الأيام للدفاع عن العقيدة. فكل أمة كانت تحارب من أجل مصالحها، ولذلك كان القرن السابع عشر أشبه بقرننا هذا تماماً. إذ وجد لويس الرابع عشر متعة فى محنة النمسا، وتفاوض طواعية مع السلطان؛ بينما أرسل الألمان والبولنديون - الذين كانوا أقرب للحدث - التعزيزات التى أجبرت الترك والتتار على التراجع عبر السهل المجرى. أما قره مصطفى فقد فر إلى بلجراد بماله وبلواء النبى. وهناك كان مبعوثو السلطان ينتظرون بالحبل الحريرى، وبعد بضعة أيام كان رأس الوزير يُسلَّم إلى استنبول فى كيس من المخمل.



وفيما يتعدى التشابهات مع يومنا هذا، هناك نقطتان لا بد من ذكرهما. النقطة الأولى هى أن رد الفعل الغربى لم يكن موحداً بحال من الأحوال. فقد أرسل بعض الحكام القوات، وتعاون غيرهم مع العدو - وكان ذلك يصدق على المستويات كافة: إذ استغلت الحكومات والأفراد على السواء الموقف كل لمصلحته. وكان على القائد الفيينى منع المواطنين من بيع الخبز والخضروات للجنود الأتراك. وكان بعض هؤلاء الجنود مسيحيين سابقين يحاربون مع السلطان. (هل يختلف هذا فى شىء عن الأمريكى الذى يحارب فى صفوف طالبان؟) وبينما هو صحيح أن الخطاب المعادى للمسلمين انساب غرباً من منطقة الحرب - كما هو الحال الآن - فإنه صحيح كذلك أن الرأى العام كان متبايناً. إذ كان الكل يتساءلون عن الطريقة التى استطاع بها العدو أن ينفذ إلى قلب الأراضى المسيحية فى المنطقة. وجاهد المفكرون من كل مشرب كى يتفاهموا مع المعانى الضمنية لهجوم المسلمين المباغت والضخم.

وينبغى أن تذكرنا تعددية الرأى ورد الفعل - الآن وفيما مضى - بأن الهويات تتبدل: فكل إنسان يرى العالم من منظوره هو - وكل إنسان يعمل بناء على ما يراه. وهذا أمر يسهل نسيانه عند عقد مقارنات عريضة عابرة للثقافات. ولكى نناقش المشكلة بطريقة مفهومة، لا بد لنا من التعميمات؛ إلا أن الواقع الأساسى أكثر تدرجاً وتعقيداً مما نحسبه - وخاصة حين ندون أفكارنا على الورق. ولكن الصور لا تتبدل أبداً، وخاصة تلك الصور الخاصة بحضارات بأكملها.

كما أن الولاءات البشرية ليست مطلقة. فلا يكفى أن نقول إن هوية شخص ما هى «مسلم» أو «مسيحى» أو «عربى» أو «أمريكى»، لأنه ليس هناك فردان عربيان أو أمريكيان متطابقان. وكما قال أمين معلوف مؤخراً، هناك اختلافات طفيفة، حتى بين الأخوين، تجعلهما يتصرفان بطرق تختلف اختلافاً بيِّنًا فيما يتصل بالسياسة والدين والحياة اليومية. والمشكلة هى أننا نتصرف ونفكر فى كثير من الأحيان وكأن هذا ليس صحيحاً. ذلك أننا كسالى من الناحية الذهنية، و نجمِّع من حين لآخر الناس معاً فى فئات تصورناها سلفاً. ويقودنا هذا إلى أن ننسب لهم مواقف جماعية وجرائم جماعية. ويحذر معلوف من أن الكلمات لم تكن بريئة فى يوم من الأيام، أو بلا عواقب، حتى أنها تساعد على تأبيد الأحكام المسبقة. فهو يقول: «كثيرًا ما تكون الطريقة التى ننظر بها إلى الآخرين هى التى تحبسهم داخل ولاءاتهم الأكثر ضيقاً».



والنقطة الثانية فيما يتعلق بفهم هذا التاريخ الخاص بالاتصال والتصادم هى أن الخطوط الموازية ليست مثل الصلات. وهجوم الحادى عشر من سبتمبر يعيد إلى الأذهان حصار فيينا - من ناحية سيل التعليق العام العنصرى المجانب للصواب الذى أعقبه. ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن مواقف العصور الوسطى والمواقف الحديثة المبكرة أدت حتماً إلى ما نشهده اليوم من عنصرية وعنف طائفى. فهناك حلقات، وخاصة فى أماكن مثل أوروبا الشرقية، حيث أوجدت الحدود الضخمة وقرون من الصراع عداوات دامت زمناً طويلاً - ولكن حتى هذه العداوات تغيرت بمرور الزمن.

لقد صيغ صراع الحضارات الذى يتحدث عنه المؤرخون فى الغالب فى القرن العشرين، ويعكس اهتمامهم به هموم القرن الحادى والعشرين فى المقام الأول. ولهذه الأسباب فإن الأمم شرقاً وغرباً بحاجة ماسة إلى تحليل تاريخى يقوم على المعلومات - بما فى ذلك الغزوات التى وقعت فى الماضى السحيق. إلا أن هذا عمل يحتاج إلى قدر كبير من الحذر والمهارة. فإعادة بناء الخطابات يتطلب سيطرة محكمة؛ وتزداد الحاجة إلى ذلك كلما أوغلت المصادر فى عودتها إلى أقدم المواجهات بين الإسلام والغرب. ومما يؤسف له أن طبيعة التاريخ تجعلنا لا نرى الماضى إلا من منظور الحاضر. وهذا واضح حتى فى الأسئلة التى نطرحها. فنحن نريد أن نفهم الطريقة التى وصلنا بها إلى ما نحن عليه، ولذلك نحاول إيجاد صلات والسير وراء ما تبدو أنها سلسلة أفكار متصلة عبر القرون، وينتهى بنا الحال - وهو غير مستغرب - إلى انطباع لا يتزعزع عن تراث العداء الغربى المتصل وإرادة القوة.

وهناك كتابان عن تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية يشاركان فى هذه المعضلة. ففى كتاب Europe and Islam يصف فرانكو كاردينى ما يراه أنه ميراث العداء وسوء الفهم. ويبدأ كاردينى بالتوسع الإسلامى فى القرن السابع، حيث يتتبع صدام الحضارات منذ تجلياته الأولى حتى استيلاء طالبان على أفغانستان. وعلى امتداد ذلك يسوق أمثلة من فن الجدل المسيحى والأدب الغربى تبين الطريقة التى تشكلت بها الهوية الغربية من خلال الدفاع عن النفس. والمشكلة هى أنه يفترض أن هذا هو الحال منذ البداية، ولذا فهو يقرأ الماضى من منظور الهموم الغربية المعاصرة. ومساواة العالم المسيحى فى العصور الوسطى بأوروبا الغربية الحديثة مفارقة تاريخية تقودنا حتماً إلى عدم قراءة الموقف الراهن قراءة صحيحة. وسنتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد.

أما مينو ريفز فقد نحت منحى مختلفًا. فكتاب Muhammad in Europe هو قصة الطريقة التى تعاملت بها المسيحية مع التحدى الأيديولوجى غير المسبوق بالتشنيع على النبى وقومه. وهدف ريفز هو كشف ما صاغته الآراء الغربية من عبارات مبتذلة وتشويه عن الإسلام. وقد أحسنت فى ذلك. فكتابها الذى يقدم تاريخ التشنيع يلقى الضوء على بعض أوجه القصور المهمة فى الثقافة الغربية. ومع ذلك فالمشكلة، كما هو الحال مع كاردينى، أن هناك عنصرًا خطابيًا أساسيًا، وهو العنصر الذى يقضى على العمل التاريخى القيِّم الذى كان الكتاب سيتضمنه لولا ذلك. فهى، مثلما هو شأن كاردينى، تميل إلى إقحام الحاضر فى الماضى، كما أنها تتغاضى عن حقيقة تغير الظروف عبر الزمن.



وريفز دبلوماسية إيرانية سابقة، وكانت وقت الثورة الإسلامية سكرتيرة الإمبراطورة



يصف فرانكو كاردينى ما يراه بأنه ميراث العداء وسوء الفهم. ويبدأ كاردينى بالتوسع الإسلامى فى القرن السابع، حيث يتتبع صدام الحضارات منذ تجلياته الأولى حتى استيلاء طالبـان على أفغانسـتان



(1) Europe and Islam

أوروبا والإسلام

Franco Cardini

Trans: Caroline Beamish

Blachweu Publighers, 2001

(2) Muhammad in Europe

محمد فى أوروبا

Minou Reeves

Garnet Publighing, 2000)

لماذا تختلف روايات التاريخ؟

ديفيد بلانكس

فرح بهلوى. وهى، مثل كارين أرمسترونج، راهبة كاثوليكية سابقة تكتب حالياً التاريخ الدينى الشعبى، وقد كتبت فى حياتها العملية الثانية كتباً مثل Behind the Peacock Throne (1986)و Female Warriors for Allah: Women and the Islamic Revolution (1989) وترغب ريفز فى أن يتمكن قراؤها، وخاصة الغربيين منهم، من تقييم دور أوروبا فى إقامة علاقتها مع الشرق، والاعتراف بما اقترفته عبر مسيرة التاريخ الطويل وأدى إلى عالمنا المنقسم. ومن المفترض أنها تريد منهم كذلك أن يصلحوا ما فسد. وهى تقول: «من خلال رؤية عالم الآخر بتعاطف وانفتاح وبالاعتماد على البحث والمعرفة القائمين على أسس جيدة وليس على الخرافات - قد تتخلى المواجهة عن مكانها للاحترام المتبادل والتسامح. وما لم يبدأ الغرب فى تكوين رؤية أكثر تعاطفاً وشمولاً عن الإسلام، فسوف تظل مرارة الماضى موجودة، بحيث تغذى الكراهية والعنف والاضطراب السياسى».

وقد كانت موفقة فى ذلك. إلا أنه رغم نبل نوايا ريفز، وطرق بحثها الجيدة، فهناك تناقض بين إصرارها على البحث الموضوعى ورغبتها فى التأثير على الرأى. وكلاهما أمر يستحق العناء. وكل منهما له ما يبرره. ولكن بغض النظر عن مدى متانة الأسس التى يقوم عليها البحث - إن كان للعمل غرض سياسى، فى هذه الحالة، يؤثر على المصالحة بين الغرب المسيحى والشرق المسلم، أو يلقى باللوم من جديد على أوروبا وأمريكا فيما يتعلق بالحالة المزرية التى تعيشها الشئون الدولية - فإنه بغض النظر عن متانة الأسس التى يقوم عليها البحث، سيكون هناك على الدوام ميل إلى الانتقائية بشأن ما لدى المرء من أدلة، كى يستنبط سلاسل من الأسباب والمسببات تكون فيها الصلات واهية، وكى يستخرج جوهر الحضارات، ليضغط المجتمعات كافة فى هويات ثابتة.



وفى تحليل ريفز لمارتن لوثر، على سبيل المثال، تصنف موقفه من الأتراك على أنه عدائى دائماً، وتعرض آراء لوثر على أنها دليل على أن الغرب رفض الاعتراف بما يدين به للثقافة الإسلامية، وخاصة أثرها على النهضة الإيطالية وكل ما تلاها. وهذا مساو للإشارة إلى الفتاوى الخاصة ببعض رجال الدين على أنها دليل على رفض الإسلام الاعتراف بمنجزات العالم الغربى الثقافية والعلمية. والأمثلة التى توردها المؤلفة صحيحة، ولكن السرد الذى تنشئه يتصل صلة وثيقة برغبتها بتعليم الغرب درساً ما.

قد يكون هذا حتمياً، ويظل الكتاب كما قلت مادة جيدة للقراءة، ولكن الواقع اليومى أكثر تعقيداً مما تعترف به ريفز. فحقيقة الأمر أن لوثر كان مذبذباً فى رأيه بخصوص قوة المسلمين. وتشير ريفز بشكل صحيح إلى الكراسات المعادية للإسلام التى كتبها لوثر فى منتصف حياته؛ ولكنه كان قد عارض من قبل المقاومة المسلحة. وفى كراسة بعنوان «عن الحرب ضد الأتراك»، يعارض لوثر فكرة إرسال الحملات الصليبية وينتقد تفكير البابا بشأن صكوك الغفران والحرب المقدسة. وقد زعم فى ذلك الوقت أن إرسال الحملات الصليبية مناف للرسالة المسيحية. وألقى لوثر باللوم فيما يتعلق بفشل الحملات الصليبية بصورة خاصة على مشاركة رجال الدين: فقد كان خلط العلمانية والروحية يتعارض مع النظام السماوى الذى وضعه الرب. وأضاف أنه من الكفر أن يُنَصِّب إمبراطور أو غيره من الأمراء العلمانيين من أنفسهم مدافعين عن الإيمان، حيث إن الحامى الوحيد للإيمان هو المسيح نفسه، الذى لا يحتاج إلى أية مساعدة من أمراء البشر وجيوشهم. ولا ينبغى أن يحارب المسيحيون مبدأ الإسلام بالقوة، وإنما بالأسلحة الروحية والصلاة والمعيشة التى تتسم بالتقوى والورع.



وبالمثل، نجد أن كاردينى، المؤرخ الإيطالى الذى كتب بتوسع عن مسيحية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، يُسقِط على الماضى افتراضات معاصرة (وهى غربية فى هذه الحالة). وفى ظل تأكيده على أن «القوة المحركة التى لا تلين ... وراء الفتوحات الإسلامية فى سوريا والأناضول وشمال أفريقيا وأسبانيا يمكن القول بأنها الدخول فى الدين الجديد»، فليس من المستغرب أنه يقرأ تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية على أنه صراع حضارات. ويبدو كذلك أنه ينسى، ولو نسياناً مؤقتاً، ما يدين به الغرب للثقافة الإسلامية. فهو يتجاهل نماذج مهمة من التعاون المتبادل والبحث والدبلوماسية والتسامح.

ويصف كاردينى علاقات العصور الوسطى بين الإيطاليين والمسلمين بأنها «قتال تعقبه فترات قصيرة من السلام». والواقع أن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً: فقد كانت هناك فترات طويلة من التبادل التجارى السلمى يقطعها اندلاع مفاجئ ومذهل من العنف. كما أنه يقيم صلات مشكوكاً فيها بين «الاسترداد» Reconquista والحملات الصليبية.



عن الحرية

الحكومة الصالحة

لم يلجأ جون ستيوارت ميل فى كتابه إلى استجداء العاطفة والشعور، ولم يكن لاتجاهات العصر الرومانسى أثر كبير على تفكيره، وإن أضفت على مرآته الفسيحة وانطلاقه الفكرى وفهمه العميق للتاريخ على حججه ومنطقه الاستقرائى عذوبة وحيوية.

كان تفكيره امتدادًا لتفكير القرن الثامن عشر وإيمانه بالعقل، غير أنه كأستاذه بنتام، لم ير فى جمود القانون الطبيعى ما يحقق نظرته للحياة، تلك النظرة التى تقوم على تنمية الفضائل وإذكاء العقل لدى الأفراد فمنفعة المجتمع لا تتحقق إلا بضمان حرية الفرد. وفى هذا الإطار تتحدد غاية الحكومة، فمتى عرفنا الغايات التى تضمنها الحكومة وتعمل على حمايتها وتشجيعها، أمكننا أن نحدد أفضل شكل لحكومة تتكيف مع تلك الغايات وتتلاءم معها.

ولا تقاس الحكومة الصالحة إلا بمقدار ما يتمتع به أفرادها من فضائل الخلق والسلوك والتقدم العقلى العام، أو بعبارة أخرى، بمقدار ما تصطنعه من مواطنيها وما تصنعه بهم، ولا يتأتى ذلك مالم تفسح لكل فرد أوسع مدى لتنمية مواهبه وإذكاء ملكاته، فإن حرية الفكر وحرية العمل هما أثمن ما تقدمه الحكومة لرعاياها.

وليس لأى فرد أو جماعة أن تعوق حرية الإنسان إلا دفاعًا عن النفس، وما من مسوغ لاستخدام القوة المشروعة ضد إرادة الفرد، إلا لمنعه من إيقاع الأذى بالآخرين، فالإنسان سيد نفسه، له مطلق الحرية على جسده وعقله.



صحيح أن الدعاية تبدو متشابهة، إلا أن إحداهما لم تسبب الأخرى. فقد كانت تلك صراعات إقليمية تعكس هموماً محلية أو بالأحرى مباشرة. وصحيح إلى حد كبير أن الحملات الصليبية كانت بتوجيه من الكنيسة، إلا أن القتال جنوب شبه جزيرة أيبيريا سبق تورط البابوية. كما تصبح Chanson de Roland - وهى قصيدة من القرن الثانى عشر تصور هزيمة الفرنجة فى جبال البرانس - رمزاً لما يسميه كاردينى «الصراع الأبدى بين المسيحية والإسلام». وقبل مجىء التعليم العام الذى بدأ فى القرن التاسع عشر، فليس من المرجح أن يكون معظم الأوروبيين قد سمعوا Chanson de Roland من قبل: خاصة إذا لم يكونوا يفهمون الفرنسية! وإذا كانوا سمعوها، فقد كان ذلك فى سياق ترفيه المساء الخفيف، الذى يشبه إلى حد كبير غناء قصائد الملحمية فى أحد المقاهى. فلم يكن المستمعون على معرفة جيدة تتيح لهم إقامة صلات صريحة بين الأحداث المعاصرة وقصيدة من قصائد الحملات الصليبية عمرها قرون.

والمشكلة هنا هى أن كاردينى، شانه شان ريفز، يريد رؤية كل حدث أو نص على أنه ذروة وصراع ونقطة انطلاق - كل هذا فى وقت واحد. فإغراء القيام بذلك أمر لا يمكن مقاومته، ومع ذلك فهو نموذج واضح لأخطار فرض البُنى السردية بناء على فهم الأحداث بعد وقوعها. وكما بينًا من قبل، فلا يجب أن نكتب عن المواقف السابقة، وإنما عن مواقفنا نحن. ذلك أننا نسقط همومنا وفضولنا على الماضى، وفى النهاية «يكتشف» الباحثون ما يسمونه «تراث سوء الفهم الثقافى» وكأنه ظاهرة متاصلة تاريخيًا كانت تُمارس بشكل جماعى. بعبارة أخرى، فإننا لا نبالغ فى تعميمنا فيما يتعلق بالثقافات الأخرى وحسب - ناسين أنها تتكون من ملايين الأفراد الذين لكل منهم رأيه الخاص به - بل نبالغ كذلك فى تعميمنا بشان تاريخ تلك الثقافات. ولا يقال بالقدر الكافى إنه ليس هناك جوهر: فليست هناك قصة واحدة متماسكة ومتصلة تنتظر من يستخرجها ويعيد تجميعها. بل على العكس من ذلك هناك العديد من القصص التى ننتقى منها ونختار ما يروق أكثر من غيره لإحساسنا بـ«حقيقة العالم». ولهذا السبب فإنه من التضليل ربط الفترة من ١٠٩٦ - ١١٨٧ بالفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧، أو الإشارة إلى الدويلات الصليبية على أنها «قطاع وَلِه من أوروبا فيما وراء البحار»، أو وصف فلاتشر أوف تشارترز، وهو مبشر من العصور الوسطى عاش فى الشرق الوسط، بانه (pied noir).

ومن الخطورة كذلك أن نرى فى كلمات وأفعال الصليبيين ومبشرى العصور الوسطى نوعاً من «المركزية العرقية»، قبل أن يصك مفهوم العرقية (وهو منتج آخر من منتجات القرن التاسع عشر). وتحرص الصحافة الشعبية حرصاً شديداً على التعلق بمثل هذا التفسير السهل. إن اختزال القضايا المعقدة فى تصريحات إذاعية قصيرة ومقالات فى الصحف يعد أمرا سيئا فى حد ذاته لكن إيمان الرئيس الأمريكى بهذا المنطق الخاطئ يجعل الأمور أخطر أمنيا على المستوى الكونى.



والقضية الأساسية هنا هى أن فكرة «أوروبا» و«الأوروبيين» لم تظهر حتى عصر النهضة، وحتى فى ذلك الوقت كانت مفهوماً يشارك فيه ما يزيد قليلاً على أصابع اليد الواحدة من المفكرين. ولذلك فإنه ليس من الدقة الإشارة إلى أى شخص أو موقف أو حدث قبل عصر النهضة على أنه «أوروبى»، ومن التضليل استخدام المصطلح بصورة موسعة قبل القرن السابع عشر أو الثامن عشر، أى قبل عصر التنوير وبداية عصر الإمبريالية. والاسم اللاتينى Europa قد نجده أحياناً على خرائط العصور الوسطى كاسم لإحدى القارات، ولكن أول كاتب يشتق منه نعتاً هو البابا بيوس الثانى (١٤٥٨-١٤٦٤)، وهو فى الواقع أول من أشار إلى من أسماهم «الأوروبيين». واحتاج الأمر إلى قرون قبل أن يتوقف الغربيون عن تعريف أنفسهم بانهم «مسيحيون» ويبدءون فى رؤية أنفسهم باعتبارهم «أوروبيين». وبذلك فإن الصليبيين لم يكونوا تجارب مبكرة للاستعمار. صحيح أن بعض القادة العسكريين الغربيين من الأثرياء وأصحاب النفوذ اقتطعوا لأنفسهم ممالك شرقية، ولكن ذلك هو ما فعله بعض الأتراك.

وقد يشعر الأمريكيون الآن بالصدمة بشان الهجوم على نيويورك بالقدر الذى شعره النمساويون بشان الهجوم المباغت على مدينتهم الكبرى قبل ٣٠٠ سنة؛ وربما كانت بعض ردود الأفعال المعادية للمسلمين فى أى من الحالتين بنفس القدر من المرارة والقبح الذى فى الأخرى؛ ولكن كما رأينا، فإن السياقات التاريخية والثقافية مختلفة اختلافًا تامًا. وإذا اتفقنا على أن كل الصور

تعكس هموم من رسموها وأيديولوجياتهم، ففى هذه الحالة يكون من السهل رؤية أنه مع أن النماذج المقولبة الغربية الخاصة بالعالم الإسلامى قد تبدو متشابهة فى أوقات مختلفة وفى أماكن متباينة، فهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر. فلا يمكن أن تتشابه. ذلك أن العالم تغير. ولكى يرى المرء ذلك، ليس عليه سوى أن يتامل الهيمنة الحالية لأفكار التنوير مثل التقدم، والقانون الطبيعى العام، والموضوعية العلمية، والعلمانية، والنزعة التفاؤلية، والتفوق الثقافى الغربى، والاستشراق - ولم يكن لأى من تلك الأفكار وجود قبل القرن الثامن عشر؛ أو يتامل السرعة الكبيرة التى يحدث بها التغير الاجتماعى - بما فى ذلك نمو الديمقراطية، والبُنى الطبقية الجديدة، والتوسع الاقتصادى، وإعادة توزيع الثروة، وتكنولوجيات الاتصالات الجديدة، وذلك الحجم الضخم من المعلومات المتاحة، والمستويات غير المسبوقة من التعليم ومعرفة القراءة والكتابة؛ أو يتامل أثر الأحداث المُشَكِّلة فى تاريخ علاقات الشرق والغرب مثل تقسيم الدول الغربية لأفريقيا والشرق الأوسط، واكتشاف البترول، وفترة التحرر من الاستعمار.



وكانت الكراسات المعادية للأتراك التى كانت تطبع فى فيينا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر - ناهيك عما سبقها من كراسات مثل قصائد الصليبيين - مشبعة بوجهة نظر عالم القرون الوسطى المغرقة فى مسيحيتها، وهى وجهة نظر تنذر بالشر وتتسم بالمرض. ومع أن القليل من الكُتَّاب تناول القدرات العسكرية التركية، فإن معظمهم نظروا إلى الخطر التركى نظرة تنبئ بشر مستطير؛ وبالتحديد لأن معظم الكُتَّاب كانوا من رجال الدين، فقد افترضوا زوراً أن السلطان يعتزم إخضاع العالم المسيحى. وظهرت كراسات تدعو للمقاومة المسلحة، وكذلك إلى الصلاة والإصلاح الروحى. وقال أحد الكُتَّاب إن القضاء على الفساد الذى فى الأديرة سوف يساعد فى المجهود الحربى؛ وقال آخر إن المسيحيين لن ينتصروا أبداً لأن جنودهم جميعهم مقامرون وزناة كفرة. وكان بعض المتحدثين البروتستانت يعتقدون أن الأتراك كانوا فى الغالب يكرهون الكاثوليك، وأنه إذا قُضى على البابوية، وشُرحت المسيحية شرحًا صحيحًا للمسلمين، فحينئذ لن تكون لديهم الرغبة فى هزيمتها. ورفض الكثير من المؤمنين بتجديد التعميد (anabap-tists)العنف رفضاً مطلقًا؛ فقد كانوا يشعرون أنه على المسيحيين أن يديروا الخد الآخر، كما جاء فى الكتاب المقدس.

وفيما قبل عصر التنوير، وفى عصر ما قبل الاستعمار، كانت الهجمات المتسمة بالفحش على النبى تختلط بالدعوة المضادة لارتكاب المسيحيين للمعاصى. وفى أمريكا الآن، حيث يوجد شعور كبير بأن الإسلام دين فيه بعض الخطورة، إن لم يكن إرهابيًا، نجد أن الشعور المعادى للإسلام يختلط - ليس بالدعوة إلى الإصلاح الروحى - ولكن بطابع أمريكى خاص من الصلف والاعتقاد بأنهم أفضل الناس. ويُفهم التوصيف الأمريكى لـ«الإرهابى المسلم» فى سياق ثقافى محدد، وهو الهوية المتفردة فى حداثتها التى ترى نفسها على أنها حامى حقوق الإنسان والديمقراطية، ولكنها تعكس فى الوقت ذاته، وبقوة، إحساساً شديد الانعزالية بالتفوق الساذج فى تفاؤله. وفى كلتا الحالتين يصورون المسلم على أنه عنيف ومحب للحرب. ولكن هناك صلات غير مباشرة وغامضة بين نسقى المواقف، ومن المؤكد أنه ليس من بينها ما يمكن تسميته بالتراث الغربى للعداء. وعلى المستوى الأساسى جدًا، لا بد أن نتذكر أنه لم يكن الجميع معادين - وأن المجتمعات الغربية، كما هو الحال بالنسبة للعالم العربى، تتكون من أفراد تتباين آراؤهم، وأنه حين ينشأ موقف معاد، فإن المعانى الضمنية تتعارض تعارضاً شديدًا. فبينما كان النمساويون يرون الحصار على أنه علامة من علامات نهاية العالم - وكانوا يعدون أنفسهم لما هو أسوأ - كان رد فعل الأمريكيين تجاه هجومهم بالانطلاق لجعل العالم على صورتهم هم، وبفرض نظامهم العالمى الجديد. ولا بد لمن تبقوا منا أن يعدوا أنفسهم لما هو أسوأ. ▪

هوامش:

(*) (تسمية أوروبية للمستوطن الأوروبى الذى يعيش فى الشرق، بالأخص المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر، ومعناه الحرفى «القدم السوداء»). «المترجم»

(*) (طائفة من الطوائف البروتستانتية). «المترجم»

ترجمة: أحمد محمود



كتاب الزاوية

عن الحرية

موطن الحرية

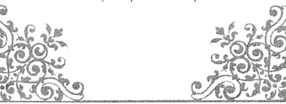
فى حياة الفرد منطقة ليس للمجتمع بها إلا مصلحة غير مباشرة - إن كانت له أية مصلحة على الإطلاق - وهى تشمل هذا الجزء فى حياة الفرد بل وجميع تصرفاته التى لا تؤثر فى غير الفرد، أو التى إذا أثرت فى غيره أيضًا، فذلك بمحض رغبتهم واختيارهم ورضاهم واشتراكهم، وعندما نقول: لا تؤثر فى غيره، نعنى أنها تؤثر فيه مباشرة ولأول وهلة، لأن كل ما يؤثر فى نفس الفرد قد يؤثر فى الآخرين عن طريقه، تلك المنطقة إذن هى صميم موطن الحرية البشرية، وهى تتضمن:

أولاً: المجال الداخلى للوعى، وهذا يقتضى حرية العقيدة فى أوسع معنى لها، وحرية الفكر والشعور، وحرية الرأى والميول فى جميع الموضوعات عملية أو علمية، مادية أو أدبية، دينية أو دنيوية.

ثانيًا: إن المبدأ يتناول حرية الأذواق والمشارب، بمعنى أنه يطلق لنا الحرية فى رسم الخطة التى نسير عليها فى حياتنا بما يتفق مع طباعنا، وأن نفعل ما نشاء على أن نتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج.

ثالثًا: أنه يتفرع من حرية كل فرد - وفى نطاق حدودها - حرية اجتماع الأفراد للتعاون على أى أمر ليس فيه ضرر للغير، على أن يكون الأشخاص المجتمعون بالغين راشدين، لم يساقوا إلى الاجتماع بعنف أو إكراه.

ولا يمكن لأى مجتمع أن يتمتع بالحرية دون أن يكفل هذه الحريات بوجه عام مهما كان نظام الحكم فيه.



أكثر عنفًا.. ودموية

عماد جاد

تداعب العودة إلى « المجتمع الديني التقي والورع الذي تواجد في الماضي» خيال العديد من الفرق والجماعات من أتباع الأديان المختلفة، وعلى الرغم من عمومية الفكرة، فإن التركيز انصب على الأديان التوحيدية الثلاثة، وجرى التعبير عن هذا التوجه بمصطلح «الأصولية» Fundamentalism فكان الحديث عن أصولية إسلامية وأخرى مسيحية وثالثة يهودية. وقد حظيت الأصولية الإسلامية بالقدر الأكبر من الاهتمام لاعتبارات عديدة، وكانت اليهودية أقلها من حيث التركيز والاهتمام.

وإذا كانت عملية دراسة الأصولية الإسلامية وأيضا المسيحية لا تحدها عقبات وقيود، فإن دراسة الأصولية اليهودية تخرج عن هذا السياق، فدراسة كل ما له صلة بالديانة اليهودية وتاريخ التجمعات اليهودية في شتى أرجاء العالم تقتضي الإلمام بالكثير من اللغات التي تكلمت بها التجمعات اليهودية لاسيما تلك الخاصة بها والتي شكلت مزيجا من لغات كانت متداولة. أيضا فإن دراسة كل ما له علاقة بالشريعة اليهودية يقتضي الرجوع إلى المصادر الأصلية المكتوبة بالعبرية، وهو أمر أشار إليه إسرائيل شاحاك ونورتون كتسفينسكي مؤلفا كتاب الأصولية اليهودية في إسرائيل، عندما أشارا في مقدمة الكتاب إلى أنهما قد لاحظا أهمية الاطلاع على النصوص العبرية لأنهما وجدا « في الترجمات الإنجليزية المعتادة لنصوص التلمود هناك بعض الفقرات الأكثر حساسية لا تترجم على النحو الصحيح أو يكون بها بعض التحريف عن النص الأصلي».

وبالتالي فإن شقا رئيسيا من مقتضيات الدراسة يتطلب الاطلاع على جوانب معينة يصعب على الدارس «من الخارج» أي من خارج الديانة اليهودية الوصول إليها بسلاسة. وإذا كانت الملاحظة السابقة لا تعني نفي الفائدة من وراء دراسات خارجية، فإنها تعني أن الفائدة تكون أكبر إذا ما تصدى للدراسة تابع يمتلك قدرا من الموضوعية.

وإذا كانت الأعمال العنيفة التي أقدمت عليها جماعات وتنظيمات أصولية إسلامية، قد جعلت من دراستها حقلا خصبا وغزير الإنتاج، فإن درجة أقل من الاهتمام جرى توجيهها إلى الأصولية المسيحية واليهودية.



وقد أدت رصاصات إيجال عامير، وهو أصولي يهودي، والتي حصدت روح رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، ثم حصول الجريمة على تأييد العديد من الجماعات اليهودية باعتبارها عملا «مخلصا من يهودي غيور على دينه»، إلى إثارة الاهتمام بدراسة الأصولية اليهودية.

إن دراسة الأصولية اليهودية تكشف عن جوانب غير مطروقة لمقولات تترتب على مسلمة « شعب الله المختار»، ومن قبيل ذلك « أن العالم خلق فقط من أجل اليهود ووجود غير اليهود هو أمر ثانوي» وذلك وفق ما أشار إليه «سيفي راكلسفكي» في كتابه « اليمين الديني الجديد في إسرائيل». وفي نفس الكتاب ينقل راكلسفكي عن الحاخام كوك، الأب الروحي للنزعة المسيانية في الأصولية اليهودية قوله «إن الفرق بين روح اليهود وأرواح غير اليهود على مختلف المستويات، أكبر وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وأنفس البهائم».

ودراسة الأصولية اليهودية رتبت بشكل منطقي دراسة الأصولية المسيحية لاسيما من داخل المذهب البروتستانتي، فالعلاقة ارتباطية، إذ إن الكتاب المقدس لدى المسيحيين يحتوي على العهدين القديم والجديد، والأول هو توراة اليهود، كما أن تفسيرات الأصولية

١ ـ الأصولية اليهودية في إسرائيل
إسرائيل شاحاك ونورتون كتسفينسكي
ترجمة: ناصر عفيفي
القاهرة: مؤسسة روز اليوسف ٢٠٠١

٢ ـ في عقر ديار التطرف اليهودي في فرنسا وإسرائيل والولايات المتحدة
عمانويل هيمان
ترجمة سميرة دميان و فوزية ضرار
القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات



وتطرفًا... الأصولية اليهودية!

المسيحية فى طبعتها البروتستانتية تربط ما بين الخلاص والمجىء الثانى للمسيح وبين تجميع اليهود فى أرض فلسطين، ومن هنا نشأت العلاقة الوظيفية بين الأصولية المسيحية فى طبعتها البروتستانتية وإسرائيل، فالثانية تعمل على جلب اليهود من شتى أنحاء العالم لضمان أغلبية يهودية فى إسرائيل وضم أكبر مساحة ممكنة من أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة، والأولى ترى فى نجاح مهمة الثانية مؤشرات على اقتراب موعد الخلاص والمجىء الثانى للمسيح، وبالتالى تعمل على تلبية مطالب دعم إسرائيل وتمكينها من تجميع اليهود فى فلسطين.

أيضا فإن دراسة الأصولية اليهودية تكشف بوضوح عن زيف الادعاء بأن إسرائيل دولة ديمقراطية، ناهيك عن كونها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط كما يروج لذلك. فمن البديهى أن قيمة الديمقراطية لا تقبل الحصر أو التحديد فى عرق أو لغة أو دين، ومن ثم فإن تعريف إسرائيل لنفسها على أنها «دولة يهودية ديمقراطية» يقطع فى ذاته بانتفاء الصفة الثانية، فكونها يهودية ينفى عنها صفة الديمقراطية لأن الصفة / القيمة لا تقبل التحديد والحصر. هذا بالإضافة إلى ما ذهب إليه باروخ كيمرلنج وهو أحد أبرز الدارسين للأصولية اليهودية من قول بأن « قيم الديانة اليهودية على الأقل فى شكلها الأرثوذكسي والقومى الذى يسود إسرائيل لا يمكن أن تتوافق مع القيم الديمقراطية»، مضيفا «أن عداء الأصوليين للقيم الديمقراطية وكذلك لمعظم جوانب الثقافة العلمانية ونمط الحياة السائدة، مغروس بعمق فى المدارس الدينية الإسرائيلية».

يقسم التاريخ اليهودى بصفة عامة إلى أربع مراحل رئيسية، المرحلة الأولى وتشمل الحقبة البابلية والتى كتب خلالها معظم العهد القديم، بدايتها غير معروفة وقد استمرت حتى القرن الخامس قبل الميلاد. ويلاحظ أن اليهودية فى تلك الحقبة كانت مختلفة من جوانب عديدة عن الموجودة الآن. أما المرحلة الثانية والتى تسمى حقبة الهيكل الثانى، فقد بدأت فى القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى تدمير الهيكل الثانى على أيدى الرومان عام ٧٠ ميلادية. وتبلورت فى هذه الحقبة أهم خاصيتين وهما انغلاق المجتمع اليهودى والانفصال اليهودى عن كل الأمم الأخرى وظهور مصطلح الأغيار. وقد بدأت المرحلة الثالثة مع تدمير الهيكل الثانى عام ٧٠ ميلادية، وهناك من يراها قد بدأت عام ١٣٥ ميلادية بانتهاء آخر التمردات اليهودية الكبرى ضد الإمبراطورية الرومانية. وقد انتهت هذه الحقبة بظهور الدولة القومية. وعادة ما يشير الأصوليون اليهود إلى الجزء الأخير من هذه الحقبة على أنه العصر الذهبى الذى يرغبون فى نفخ روح الحياة فيه. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت فى بلدان مختلفة بأزمنة مختلفة حيث انتقل الكثير من اليهود من عصور ما قبل المعاصرة إلى الأزمنة المعاصرة.

الأصولية داخل المجتمع اليهودى

توجد الأصولية حيث يوجد تجمع يهودى كبير العدد، ولذلك توجد الأصولية فى إسرائيل وفى دول أخرى مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وألمانيا. وعلى حين تفرز الأصولية اليهودية تداعياتها فى إسرائيل والدول التى توجد بها تجمعات يهودية كبيرة، فإن تواجد أقليات يهودية صغيرة بالنسبة لعدد السكان، يجعل نشاطها الرئيسى حشد الدعم المالى والسياسى للأصوليين فى إسرائيل.

وتشير الدراسات الخاصة بيهود إسرائيل إلى أن ما بين ٢٥ ـ ٣٠٪ من اليهود الإسرائيليين ينتمون إلى التيار العلمانى، وأن ما بين ٥٠ ـ ٥٥٪ ينتمون إلى التيار التقليدى، هذا بينما يعد حوالى ٢٠٪ من المتدينين.

وينقسم اليهود المتدينون إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: الحريديم أو ذوو أغطية الرأس السوداء غير



المشغولة، ويرتدون ملابس سوداء. وتنشط هذه المجموعة عبر حزبين سياسيين الأول حزب يهود التوراة ويمثل اليهود من ذوى الأصول الغربية، والثانى حزب شاس، ويمثل اليهود من الأصول الشرقية وتحديدا الشرق أوسطية.

المجموعة الثانية، المتدينون القوميون، أو ذوو الطواقى المشغولة، ويرتدون ملابس عادية، ويعبر عنهم الحزب القومى الدينى «المفدال».

وقد حصلت الأحزاب المنتمية للمجموعتين فى انتخابات ١٩٩٦ على ٢٣ مقعدا (من بين ١٢٠ مقعدًا فى البرلمان - الكنيست) توزعت ما بين شاس (١٠ مقاعد) ويهود التوراة (٤ مقاعد) والمفدال (٩ مقاعد). وقد قفزت حصة هذه الأحزاب إلى ٢٧ مقعدا فى الانتخابات التى جرت عام ١٩٩٩، توزعت ما بين شاس (١٧ مقعدا) يهود التوراة (٥ مقاعد) والمفدال (٥ مقاعد).



وتنطلق الأصولية اليهودية من الإيمان المطلق بالتمييز بين اليهود والأغيار، أى غير اليهود عامة. وترى أن غير اليهود يعملون على الدوام من أجل القضاء على اليهود. وبالتالى فإن ما يرونه من «معاداة السامية» يمثل «اتجاها أبديا لدى الأغيار بلا استثناء، وأن هذا الاتجاه يختلف عن ظاهرة الخوف من الأجانب أو بغض الأقليات». وتكمن هذه القناعة وراء موقف الحاخامات من عملية التسوية السياسية للصراع العربى الإسرائيلى حيث تضعهم رؤيتهم داخل الفريق القائل بصراع الوجود. وبدا ذلك واضحا فى موقف الحاخامين الشهيرين شاخ ولوبوفتشر من معاهدة السلام مع مصر ١٩٧٩، فقد اتفقا على أنه « ليس هناك سلام ولن يكون أبدا لأن المصريين يريدون القضاء علينا».

وضمن هذه الرؤية الشاملة يأتى الفهم الخاص لبعض مقولات رموز هذا التيار فى إسرائيل تجاه عملية التسوية السياسية، والتى تؤيد إمكانية الانسحاب من بعض الأراضى « التى تقع التصور اليهودى باعتبارها أرض إسرائيل». وقد عبر عن ذلك بوضوح الزعيم الروحى لحزب شاس، الحاخام عوفاديا يوسف. يقول الحاخام عوفاديا « إن اليهود ليسوا فى الواقع أكثر قوة من غير اليهود، كما أنهم غير قادرين على طرد غير اليهود من أرض إسرائيل لأن اليهود يخشون غير اليهود...فحتى غير اليهود من الوثنيين يعيشون بيننا دون أن نستطيع طردهم أو حتى نقلهم، فالحكومة الإسرائيلية ملزمة تبعا للقانون الدولى بحماية الكنائس المسيحية فى أرض إسرائيل، على الرغم من أن هذه الكنائس هى أماكن وثنية وديننا يأمرنا بتحطيم الأوثان». ويؤكد الحاخام عوفاديا يوسف كأحد أبرز رموز الأصولية اليهودية على أن التعامل مع غير اليهود فى إسرائيل يتحدد وفق قاعدة مدى الضرر الذى يمكن أن يقع على اليهود، فإذا كان احتمال القيام بعمل ما ضد غير اليهود سيترتب عليه رد يلحق الضرر باليهود، فلا حاجة للقيام بمثل هذا العمل..يقول الحاخام يوسف « إن اليهود عليهم واجب دينى يتمثل فى طرد غير اليهود من دولة إسرائيل، فقط إذا كان ذلك لا يعرض حياة اليهود للخطر»، مضيفا أن أى تنازلات يهودية لغير اليهود فى دولة إسرائيل يجب أن تقوم فقط على اعتبار أن رفض القيام بذلك يمكن أن يعرض اليهود للخطر».

صعود نجم الحريديم فى إسرائيل

حقق التيار الحريدى طفرة فى قوته السياسية فى انتخابات عام ١٩٨٨، وهو النجاح الذى لفت الانتباه بقوة إلى هذا التيار فى إسرائيل، وفى خارجها. وكان هذا النجاح سببا مباشرا فى زيادة الاهتمام بدراسة هذه الفئة والكتابة عنها. واتسمت الموجة الأولى من الكتابات حول «الأصولية اليهودية» بالتركيز على الجوانب الشكلية للظاهرة من أسلوب حياة وطريقة عيش وملبس، كل ذلك دون تناول جوهر الظاهرة، أى فكر الحريديم وأيديولوجيتهم ونظرتهم للعالم خارج إطار حركتهم.

وحتى يمكن فهم جوهر الظاهرة، أى فكر الحريديم ونظرتهم للعالم، لابد من دراسة التعليم الحريدى، فالتعليم لديهم لا يحتوى على أية دراسات علمانية أو إنسانية، أى غير دينية. كما يقوم الحريديم بعزل الطلاب عن العالم الخارجى ويحظر عليهم الاتصال مع «غير المؤمنين». كما أن سلطة المعلم شاملة ومطلقة ويقوم المعلم الأول وناظر المدرسة باتخاذ كل القرارات المتعلقة بحياة التلاميذ بما فيها اختيار الزوجات.

ويؤمن الحريديم بأهمية الدراسات الدينية، إذ يسلمون بأن الفضيلة النابعة من أولئك المنخرطين فى الدراسات المقدسة هى المسئولة عن كل الخير الذى يجنيه اليهود، ولذلك فإن المنخرطين فى الدراسات المقدسة غير مطلوب منهم التضحية بأرواحهم، ويستحقون كل ما يمنحونه من مزايا وإعفاءات.

ولأن أعداد طلبة المدارس الدينية فى تزايد، فإن العبء يتزايد على دافعى الضرائب ومعظمهم من غير المتدينين، وهو ما يثير مشكلة حقيقية مؤداها أن طلبة المدارس الدينية لا يخدمون بالجيش ولا يعملون ويحصلون على مزايا هائلة من الدولة، ويرد الحريديم بأن الله يمنح إسرائيل واليهود الدعم والمساندة ببركة هؤلاء الدارسين « فمعونة الله هى التى تكسب الحروب وليس أداء الجنود».



وفى صحافة الحريديم تفرض قيود صارمة على كل كلمة، فلا تنشر كلمة فى مقال دون موافقة الحاخام المسئول الذى يتولى الإجازة والمنع، كما أن هناك قاموس للكلمات «سيئة السمعة» التى تنتمى إلى عالم الأعداء أو إلى «المدنية الحديثة» ولا يجوز نشرها على الإطلاق مثل كلمات «تليفون، الإيدز والصليب الأحمر».

وتتسم نظرة الحريديم للمرأة بالدونية الشديدة، فيحرم نشر صورة المرأة كما يمنع تماما أن تتبوأ المرأة مكانة رسمية، بل يحرم على الرجال الاستماع إلى غناء المرأة، وذلك يعادل لدى الحريديم جريمة «الزنى». ويذكر إسرائيل شاحاك ونورتون متسفينسكى قصة طريفة للطريقة التى اتبعها المستوطنون من أجل الاستماع إلى أغان نسائية دون ارتكاب «جريمة الزنا».. فيقولا أن مجموعة حريدية تقطن بإحدى المستوطنات أنشأت محطة للإذاعة وأرادت بث أغانى شهيرة لمطربات وهو الأمر الذى رفضه الرقيب الحاخامى «حتى لا يقع خرق للشريعة»...وبعد الكثير من المشاورات اقترح المستوطنون حلا وسطا حظى بالقبول وما زال معمولا به حتى الآن.. يقوم الرجال بغناء الأغانى الشهيرة للمطربات، وبعد ذلك يتم تحويل الأصوات إليكترونيا إلى الطبقات النسائية ويتم بثها عبر الإذاعة!!!



ويخوض الحريديم فى جدل حاد حول قضايا تفصيلية ويعتبرون أن عدم اتباع ما يرونه من قواعد للشريعة يعد جريمة كبرى لا تغتفر. ومن بين القضايا التى يدور حولها الجدل مثلا قضية التبرع بالدم وهل يجوز أن ينقل دم لليهودى المتدين من غير يهودى أو من يهودى علمانى، أى هل يجوز نقل «دم ملوث أو علمانى» إلى يهودى متدين، الأمر الذى يمكن أن يجعل اليهودى التقى يتصرف على نحو شرير أو يخل بالتزاماته الواردة فى الشريعة؟ وللحاخام عوفاديا يوسف فتوى شهيرة فى هذه القضية مؤداها « إن الدم الذى يأتى من طعام حرام - أى غير كوشير، بمعنى أنه غير معد وفق الشريعة - يمكن أن يؤدى إلى تأثيرات سلبية على من يتلقونه من اليهود وربما يحدث صفات سيئة مثل الوحشية والتبلد. وقد رد الحاخام موردخاى الياهو رئيس الحاخامية السابق فى إسرائيل على الحاخام عوفاديا يوسف معترضا على نقل تطبيق هذا القول على الدم المنقول من اليهودى مؤكدا « أن اليهودى حينما يولد فإنه يولد بدم كوشير». ووافق الحاخام الياهو على نقل الدم من غير اليهود إلى اليهود، ولكنه دعا المتدينين إلى تجنب أخذ دم منهم.

وهناك من تجاوز الموقف برمته مشرعا قتل الأغيار حتى لو كانوا أبرياء أى لم يرتكبوا أى عمل عدائى ضد اليهود، فالحاخام إسحاق جينسبرج يجل باروخ جولدشتاين - مرتكب مذبحة الحرم الإبراهيمى فى فبراير ١٩٩٤ وكتب يقول « إن قتل اليهود لغير اليهود لا يعتبر جريمة تبعا للديانة اليهودية، وأن قتل العرب الأبرياء بغرض الانتقام يعتبر فضيلة يهودية».

الحريديم والخلفية العرقية

ومن نظرة اليهودى الحريدى للأغيار ولليهودى العلمانى، ننتقل إلى نظرة الحريديم لبعضهم البعض على خلفية عرقية، فاليهودى الحريدى من أصل غربى، أى الاشكينازى ينظر للحريدى من أصل شرقى، سفاردى نظرة دونية تجعله فى الكثير من الأحيان يتجنب الاختلاط به ويتحاشى تناول الطعام لديه. فبصفة عامة يرفض الحريدى الاشكينازى تناول أى طعام لم يعد تحت إشراف حاخام إشكينازى. وإذا زار الحريدى الاشكينازى، نظيره السيفاردى، فإنه يرفض تناول أى طعام لديه يحتوى على اللحوم، وأحيانا يرفض تناول أى طعام بصفة عامة لدى الحريدى السيفاردى على أساس أنه لم يعد تحت إشراف حاخام اشكينازى، هذا بينما لا يوجد هذا التحفظ لدى الحريدى السيفاردى الذى يتناول أى طعام يقدم إليه من قبل الحريدى الاشكينازى. وقد وصل العداء بين الجانبين إلى درجة طرح مقولات أقرب إلى المسلمات تقول بأن الصراع بين الفئات اليهودية على اختلاف مسبباتها لا يمكن أن تصل فى شدتها وتأججها إلى تلك الكراهية المتبادلة بين الجماعات المختلفة من اليهود المتدينين.

ويعود الانشقاق الحالى بين اليهود الاشكيناز والسفارديم، إلى أنه على مدار القرنين الماضيين، أصبح كل الحاخامات المتميزين تقريبا من الاشكيناز، كما أن المجتمعات غير الاشكينازية شهدت فى نفس التوقيت تناقصا كبيرا فى قيمة الدراسات التلمودية والكتب المنشورة. وحتى عام ١٩٤٨ كانت الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين بدعا اشكينازية ونظر اليهود المتدينون إلى الصهيونية باعتبارها مناقضة لليهودية، ومن ثم فإن اليهود المارقين هم فقط الذين يمكنهم أن يصبحوا صهاينة. وهاجر القليل من اليهود الاشكيناز إلى

تنطلق الأصولية اليهودية من الإيمان المطلق بالتمييز بين اليهود والأغيار، أى غير اليهود عامة. وترى أن غير اليهود يعملون على الدوام من أجل القضاء على اليهود





فلسطين بسبب معتقداتهم الصهيونية، والغالبية العظمى من المهاجرين اتخذوا قرار الهجرة لأن حياتهم في البلدان التي كانوا يعيشون فيها، باتت لا تحتمل.



وعلى الرغم من الرؤية الاشكينازية العنصرية تجاه الحريديم من أصول شرقية، فإن حاخام الاشكيناز الشهير، شاخ قد لعب دورا رئيسيا في إنشاء حزب شاس المعبر عن الحريديم السفارديم. وجاءت نشأة حزب شاس بأوامر مباشرة من الحاخام شاخ للحاخامات الذين كانوا يدرسون على يديه في السابق وما زالوا يدينون له بالولاء، بتكوين حزبين حريديين، الأول اشكنازي وهو ديجيل هاتوراة أو راية التوراة، والثاني سفاردي صرف وهو حزب شاس. واعتبر زعماء الحزبين الحاخام شاخ أعلى سلطة روحية وأقسموا على طاعته. وقد جاءت هذه الخطوة من قبل الحاخام شاخ بسبب كراهيته الشديدة للحزب الديني القومي - المفدال - ورغبته في الانتقام منه وتجريده من قوته. وقد تحقق له ما أراد ففي الانتخابات الأخيرة التي جرت عام ١٩٩٩ احتل شاس المقدمة بين الأحزاب الدينية بسبعة عشر مقعدا، وتعادل المفدال مع راية التوراة ولكل منهما خمسة مقاعد.

وبمرور الوقت بدأ حزب شاس يبلور قيادته الروحية، وبرز الحاخام عوفاديا يوسف، الذي شغل في السابق منصب رئيس الطائفة اليهودية في مصر، وتخلص من النفوذ الروحي للحاخام شاخ، وبات يوسف يشكل القيادة الروحية لشاس.

المستوطنون المتدينون

تأسست جماعة «جويش إيمونيم» أو كتلة المؤمنين عام ١٩٧٤ وتنحصر إيديولوجيتها في بناء مستوطنات يهودية على الأراضي العربية المحتلة في حرب يونيو ١٩٦٧, وقد نشأت الحركة وتطورت بفعل دعم شيمون بيريز وزير الدفاع في حكومة رابين في الفترة من ١٩٧٤ - ١٩٧٦، وعندما جاء مناحم بيجن إلى السلطة عام ١٩٧٧ عقد لليكود « تحالف مقدس» مع الحركة ولا يزال مستمرا حتى اليوم. وتنشط الحركة في إضفاء أبعاد ميتافيزيقية على العلاقة بالأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ بصفة عامة والضفة والقطاع بصفة خاصة. وفي هذا السياق يقول اتباع الحاخامين كوك الأب والابن ومنهم الحاخام شمر ياهو أريلي « إن حرب ١٩٦٧ كانت تحولا ميتافيزيقيا وأن الانتصارات الإسرائيلية حولت الأرض من قوة للشيطان إلى دائرة إلهية». ومن ثم فإن « أي انسحاب من هذه الأرض ستكون له عواقب ميتافيزيقية يمكن أن تؤدي إلى استعادة الشيطان لسلطته على هذه الأرض». وقد بررت الحركة المذابح التي ترتكب بحق أبناء الشعب الفلسطيني على أساس أن هذه الأعمال تأتي من منطلق « تطهير الأرض من الشيطان ومن الإثم الذي يغضب الله». ويعلق إسحاق شاحاك على فكر الحركة بالقول « إن تغيير كلمة اليهودي إلى الألماني أو الآري وغير اليهودي إلى اليهودي يحول موقف الحركة إلى المذهب الذي جعل أوشفيتس ممكنا في الماضي». ويضيف « أن أوجه الشبه بين الاتجاه المسياني السياسي اليهودي والنازية الألمانية ساطعة كالشمس، فالأغيار - غير اليهود - بالنسبة لأصحاب الاتجاه المسياني هم في منزلة اليهود بالنسبة للنازيين.

وللحركة رؤية واضحة تجاه الخدمة العسكرية، فأتباعها يخدمون في وحدات مختارة ولديهم استعداد كبير للقتال، كما ترتفع لديهم معدلات الضحايا بسبب مبادرتهم وإصرارهم والقتال من منطلق عقيدي، وهو أمر يميزهم عن الحريديم الذين يتهربون من الخدمة العسكرية ومن سائر الالتزامات.

كما تشارك الجماعة بقوة في قمع الانتفاضة وتقر بجواز قتل الأطفال العرب، فالحاخام شلومو أفنيري يقول « إن إلقاء حجر على سيارة مارة ليهودي من قبل طفل عربي يعتبر في هذه الحالة مضطهدا لليهود، ويجب أن يُقتل هذا الطفل، فقتل الطفل غير اليهودي في هذه الحالة ضروري لإنقاذ حياة يهودية».

مستوطنات جويش إيمونيم

من بين المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة تنفرد مستوطنات القدس الكبرى بأهمية خاصة، ويصل عدد اليهود في القدس الكبرى إلى ربع مليون، ولا يزيد عددهم في باقي الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ عن مائة ألف مستوطن، هناك مستوطنات كبيرة مثل أرئيل ويقطنها خمسة عشر ألف مستوطن، وكريات أربع التي يقطنها نحو ستة آلاف مستوطن، وهناك أيضا مستوطنات لا يزيد عدد قاطنيها على المائة. ويشير إسرائيل شاحاك إلى أن المستوطنات الأكثر انعزالا وتعرضا للخطر، هي تلك التي يقطنها المستوطنون المتدينون مثل مستوطنة «نتساريم» بوسط قطاع غزة، فهذه المستوطنة التي تقطنها مائة وعشرون عائلة تقع إلى الشمال منها مدينة غزة وإلى الجنوب بعض أكبر مخيمات اللاجئين.

وينظر اليهود المتدينون إلى اتفاق أوسلو الذي أقام هياكل السلطة الوطنية الفلسطينية، على أنه يمثل فشلا لرؤية الخلاص العاجل، وبالتالي فقد تعمق العداء « لليهود الخونة الذين أفسدوا بمخططهم، مخطط الرب ودفعوا غالبية اليهود إلى تجاهل الأمر الإلهي والسير وراء الخونة». وتم توجيه الاتهام إلى رابين ووزرائه بموجب ما جاء في «القبالاة» التي تقول « إن خلاص اليهود الذي يحدث في أوقات مختلفة لا يوقفه في كل مرة سوى أن تختار غالبية الأمة أن تتبع خائنا».

الخلفية الدينية لاغتيال إسحاق رابين

قُتل إسحاق رابين في الخامس من نوفمبر ١٩٩٥ على يد إيجال عامير أثناء تظاهرة لأنصار السلام في ميدان ملوك إسرائيل. وقاتل رابين، إيجال عامير هو دارس للتلمود تم تدريبه في إحدى المدارس الدينية التي كانت تغرس في أذهان طلابها « أن العنف الذي يمارسه الحاخامات على مر الزمن كان يتم تبعا لكلمة الرب».

ويجد اغتيال رابين مبرراته الدينية في موقف اليهودية التقليدية من «المهرطقين» حيث كانت تحث على معاملتهم معاملة أسوأ من تلك التي يعامل بها غير اليهود أو اليهود الذين تحولوا إلى دين آخر. وهناك سجل طويل لفتاوى حاخامات بتعذيب وقتل وأيضا التمثيل بجثث من يرونهم من المذنبين والمهرطقين، وكانت أدوات القتل والتعذيب توضع في المعابد حيث مكان تنفيذ العقوبة. وفي هذا السياق كتب البروفيسور زئيف جروس بعد دراسة تاريخ العقوبات والقتل في اليهودية «... إن ما توصلت إليه في النهاية وأنا آسف لذلك، هو أنه لا شيء جديدا في اليهودية، فنزع الشرعية والتحريض والكتابة على الجدران وعلى وجه الخصوص صمت الحاخامات في تلك الأزمنة، وكل شيء آخر كان يماثل تماما ما حدث قبل اغتيال رابين».

ويشير عمانويل هيمان في كتاب « في عقر ديار التطرف اليهودي» إلى الجذور التاريخية لقتل اليهود المتهمين بالتعاون مع العدو من منطلقات دينية، بالتأكيد على أن «بصمات التطرف موجودة في كل قصص العهد القديم». كما يشير أيضًا إلى تجربة «السيكير» أي حملة الخناجر والذين كانوا يقتلون بضربات سريعة وخاطفة اليهود «الخونة المتعاونين مع المستعمر ضد مصلحة البلاد». فقد كان «السيكير» يفعلون ذلك اقتناعا منهم بأنهم يمهدون بذلك الطريق لقدوم «المسّيا» عبر تطهير الأراضي المقدسة من الكفر الذي دنسها وتباري «السيكير» في عمليات القتل وسفك الدماء.

ويقول هيمان أن السيكير « يجسدون أقصى معاني التطرف في العهد القديم حيث لم يسقط مَن أثر طعنات خناجرهم النافذة عسكر الأعداء وحسب، بل وأيضا اليهود الذين اتهموا بالاستهتار والتراخي نحو الدين أو استقلال الوطن».



ويجد اغتيال رابين مبررات الدينية أيضا في قانونين من قوانين التوراة، كان يتم استخدامهما منذ الأزمنة التلمودية لقتل اليهود، وقد أشار إليهما عامير في تبريره قتل رابين، وهما قانون المُطارد وقانون الواشي. القانون الأول يأمر كل يهودي بقتل أو جرح أي يهودي ينوي قتل يهودي ولا يجري الاعتماد هنا على المشاهدة المادية، بل تكفي في هذا السياق كلمة من السلطة الحاخامية تقول بأن قانون المُطارد ينطبق على شخص معين. ويلزم القانون الثاني كل يهودي بقتل أو جرح أي يهودي دون قرار من السلطة الحاخامية المعنية، قام بالوشاية لدى غير اليهود وخاصة السلطات غير اليهودية بشأن الأمور اليهودية أو قام بإبلاغها معلومات عن ممتلكات اليهود أو قام بتسليمها أشخاص يهود أو ممتلكات يهودية.

وقبل اغتيال رابين، أكد عشرات الحاخامات الحريديم أن قانوني المُطارد والواشي ينطبقان على رابين وعدد من وزرائه. ويشير هيمان إلى أن جماعة صغيرة أطلقت على نفسها عام ١٩٨٩ «السيكير» لوحت بأنها ستشعل حربا أهلية من جديد بين اليهود وهددت بالنيل من اليهود الخونة. ووفقا لليهود المتدينين تعتبر «أرض إسرائيل» ملكية قاصرة على اليهود ومن ثم فمنح الفلسطينيين السلطة على أي جزء من هذه الأرض يمكن تفسيره على أنه عمل من أعمال «الوشاية» التي تستوجب القتل. ومن جانبه وصف الحاخام موشيه ليفنجر زعيم «جويش إيمونيم» وصف رابين وعددًا من وزرائه وحركة ميرتس بالوشاة.

المؤكد أن هناك جوانب عديدة للأصولية اليهودية التي تجعل عنفها وإرهابها يفوق ذلك الذي ينسب لأصوليات أخرى، بقي أن يجري التركيز على الأصولية اليهودية وأن تجرى محاولة فهمها عبر الكتابات العبرية وليس الإنجليزية، فعبر اللغة العبرية يكتبون بدرجة أعلى من الحرية ويشرحون نصوصهم دون مواربة. ■



ينظر اليهود المتدينون إلى اتفاق أوسلو الذي أقام هياكل السلطة الوطنية الفلسطينية، على أنه يمثل فشلا لرؤية الخلاص العاجل، وبالتالي فقد تعمق العداء « لليهود الخونة الذين أفسدوا بمخططهم، مخطط الرب ودفعوا غالبية اليهود إلى تجاهل الأمر الإلهي والسير وراء الخونة»

القانون والعولمة

القانون في أي عصر من العصور، وفي أي شعب من الشعوب هو وليد ظروف التاريخ وثمرة تطور المجتمع، ونتيجة لعوامل مختلفة متصلة الحلقات متدرجة مع التقدم والارتقاء.

ويتأثر التغيير الذي يحدثه القانون بتفاعل الحضارات التي انطلقت على أرضيتها مبادئ القانون.

وقد تجلى ذلك في تفاعل الحضارة المصرية القديمة مع الحضارتين اليونانية والرومانية على مسيرة النظم القانونية في ظل هذه الحضارات. ففي الحضارة المصرية القديمة كان القانون الفرعوني أقدم قانون معروف في تاريخ البشرية، وهو يدل - رغم قدمه - على مدى التقدم الحضاري الذي كان يعيشه المجتمع المصري. وقد استمر هذا القانون زمنًا يقرب من ثلاثين قرنًا. ورغم فتح الإسكندر الأكبر مصر في عام ٣٣٢ق.م وضمها إلى إمبراطوريته، إلا أن القانون المصري ظل مطبقًا على المصريين. وظهر بجانبه قانون جديد هو القانون الإغريقي الذي طبق على المواطنين الإغريقيين الذين استوطنوا مصر. ونتج عن تطبيق القانونين معًا في بلد واحد حدوث تفاعل بينهما أدى إلى ظهور قانون مشترك بين المصريين والإغريق اصطلح على تسميته بالقانون المصري الإغريقي. وحينما ضم الرومان مصر إلى إمبراطوريتهم عام ٣١ق.م ظهر القانون الروماني في مصر. وقد طبق هذا القانون على الرومان وحدهم، وبقي القانون المصري - الإغريقي مطبقًا على المصريين والإغريق. وقد تأثر القانون الروماني بالقانون المصري الإغريقي مما أدى إلى ظهور قانون مختلط اصطلح على تسميته باسم القانون المصري - الروماني. وقد أخذ القانون الروماني الذي قنن في عهد جستنيان بكثير من أحكام هذا القانون.

وقد صممت مصر على أن تؤكد مسيرتها في تحقيق التفاعل الحضاري، فعملت على إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة التي كانت أقدم مركز للبحث العلمي على شاطئ البحر المتوسط، لكي تلعب دورًا جديدًا في الإشعاع الثقافي والحوار بين الحضارات.

هذا وقد كانت مجموعات جستنيان مصدرًا رئيسيًا من مصادر القانون الفرنسي الذي نقل عنه المشرع المصري في القرن الماضي، ولما استرد المشرع المصري سيادته استطاع التوفيق بين طابعه القومي وبين التمشي مع أحدث الاتجاهات القانونية العالمية، فكان كل من القانونين الفرنسي والإيطالي أحد مصادره غير المباشرة. جاء التشريع المصري فحافظ على ذاتيته الثقافية حين استمد بعض مبادئه من النظريات العامة في الشريعة الإسلامية، مسجلاً التفاعل مع الحضارة الإسلامية، فضلاً عن تفاعله مع الحضارات القديمة.

ولا شك أن هذا التطور القانوني يعكس مسيرة التقاء مختلف الحضارات والتي انعكست في حركة التشريع في عدد كبير من بلدان العالم.

ولا شك أن التقاء الحضارات في عالم القانون يكشف عن القيم الأساسية التي تعتنقها كل حضارة والتي يعمل القانون على حمايتها. ولهذا فإن الحوار بين الحضارات لا يجوز أن ينظر إليه بوصفه عملية سياسية بقدر ما يتعين النظر إليه بوصفه مجالاً لاستجلاء القيم المشتركة التي تقوم عليها الحضارات المختلفة والتي تتفق على حمايتها مختلف النظم القانونية مهما تغيرت أساليب هذه الحماية.

ونلاحظ أن حضارة القرن العشرين في عقديها الأخيرين قد اندفعت نحو العولمة القائمة على الحرية الاقتصادية وعلى قانون السوق، من خلال تدفق الاتصالات وثورة المعلومات وتطور نظام التجارة الدولية وحرية انتقال الأشخاص والأموال عبر الحدود الوطنية. وقد دافع أنصار الحرية الاقتصادية عن العولمة باعتبارها ناقلة للتقدم العلمي والتنمية والنمو ومختلف جوانب الثراء العالمي. بينما أنكر خصوم العولمة إقامة النظام الاقتصادي العالمي على إعطاء الأولوية للرأسمالية، واتهموها ووجهوا إليها انتقادات وصلت إلى حد اتهامها بالقسوة والتوحش.

إلا أن العولمة في ذاتها لا يمكن أن تكون كلها سوءًا أو خيرًا مطلقًا. إن تقييمها يتوقف على استخدام قواعدها، ويعتمد على الأهداف التي تعمل من أجلها، ويتوقف على الغايات التي تتوخاها.

إن العولمة أمر بالغ السوء إذا وضعت الإنسان في خدمة المال ولم تضع المال في خدمة الإنسان. إنها أمر بالغ السوء إذا استهدفت إخضاع الدول والشعوب إلى متطلبات الربح والتوسع الاقتصادي للشركات المتعددة الجنسيات. إنها أمر بالغ السوء إن قامت على عدم المساواة وتحبيذ تركيز الثروة في أيدي مجموعة من الدول والشركات، وقامت على إفقار الشعوب. إنها أمر بالغ السوء إذا قامت على ترسيخ الهيمنة الاقتصادية والثقافية لقسم من العالم على قسمه الآخر.

إن العولمة التي تحمل الخير، هي صاحبة الغايات الإنسانية، وهو ما يتوقف على احترامها للتنوع الثقافي، ونبذها لتكريس عدم تكافؤ الفرص في مجال المنافسة.

وقد خلقت العولمة بجميع ملامحها الإيجابية والسلبية طلبًا جديدًا على القانون، تجلى بوجه خاص في القطاع الاقتصادي. كما أدت العولمة إلى إحداث تغيير في الحقائق العلمية والتكنولوجية، وأسهمت في شكل التغيرات السياسية والاجتماعية مما أسفر عن ظهور حقائق اجتماعية تعكس قيمًا جديدة، أثرت على مضمون القانون سواء كان ذلك في نطاق النظام القانوني الداخلي أو النظام القانوني الدولي.



إلا أن التأثير السلبي للعولمة على مبادئ القانون ظهر من خلال ما يؤدي إليه تطبيقها على كل من البلاد الغنية والبلاد الفقيرة، سواء بسواء، إلى الإخلال بمبدأ المساواة بسبب عدم تكافؤ الفرص المتاحة لكل البلاد. ويبدو هذا الإخلال في تطبيق النظام القانوني الذي تفرضه العولمة على دول تختلف مراكزها القانونية من حيث التنمية باختلاف درجات النمو فيها. فالمساواة لا تتحقق إلا بالاختلاف في المعاملة بين المختلفين.

ولنتساءل هل تملك الدول النامية القدرة الإنتاجية والتكنولوجية والقدرة على التسويق التي تسمح لها بالمنافسة في مواجهة الدول الصناعية؟ إن الدول النامية ليست على قدم المساواة مع الدول الصناعية لمواجهة المنافسة الحرة معها وفقًا لقواعد التجارة العالمية.

ولا شك في سوء العولمة إذا استهدفت تبعية الدول وإخضاع الشعوب إلى متطلبات الحصول على الربح، وإلى الهيمنة الاقتصادية للشركات متعددة الجنسيات. لا شك في سوء العولمة التي تكرس عدم المساواة وتركز الثراء في أيدي مجموعة من الدول أو في أيدي مجموعة من الشركات إضرارًا بالشعوب وتعميقًا للفقر والتهميش الاجتماعي.

إلا أن الدول النامية مضطرة من الناحية العملية إلى الخضوع لقواعد منظمة التجارة العالمية خشية تعرضها لجزاءات اقتصادية، وهذا الخضوع يعرضها لمشاكل اقتصادية من أهمها الفقر والبطالة. وهو ما ينطوي على تأكيد وجود قواعد دولية اقتصادية تضعها القوى العظمى بهدف إقامة سوق عالمية تمنحها حق إقامة قواعد قانونية تخضع لها جميع الدول. وهو ما حققته هذه الدول من خلال إنشاء منظمة التجارة العالمية، وبهذه الروح أعدت منظمة التعاون الاقتصادي من أجل التنمية Ocde سنة ١٩٩٨ الاتفاق المتعدد الأطراف حول الاستثمار (AMI)، والذي منح حقوقًا شبه مطلقة للمستثمرين الدوليين - أي الغربيين - بغض النظر عن احتياجات التنمية في الدول المستقبلة للاستثمار، وكذلك الشأن فإن الضغط الذي تعرضت له الدول النامية بشأن حقوق الملكية الفكرية لوضع قواعد قانونية تحمي مصالح الشركات الكبرى التي تملك براءات الاختراع، بغير مبالاة بالنتائج الضارة التي قد تتعرض لها الدول النامية وخاصة في مجال الدواء.

وهكذا قد يتأثر القانون بتحديات العولمة، حين تحاول العولمة جعله أداة لتنفيذ أهدافها وضمان المصالح التي تتوخى حمايتها.

إلا أنه لا بد من التنبيه إلى ضرورة إحداث التوازن في الحماية بين مختلف الحقوق والحريات، الأمر الذي يتطلب التناسب بين حماية المصلحة الاقتصادية وحقوق الأفراد وحرياتهم، حتى يكون القانون أكثر عدلاً. وهو ما يتطلب من واضع التشريع والقائم على تطبيقه أن يجيد إقامة التوازن بين الهدف الاقتصادي للتشريع وبين سائر الأهداف الاجتماعية، للوصول إلى الحل الأكثر عدلاً. فما يعتبر في بعض الأحوال مخيبًا للهدف الاقتصادي يمكن اعتباره محققًا للعدالة. وكما قال أرسطو والفقيه الروماني كلس: إن القانون هو فن العدل والخير.



وتتحدد قيمة النظام القانوني في مدى ما يحققه من عدالة وأمن قانوني، لا فيما يحققه من إغراق، يتمثل في كثرة القوانين الاقتصادية. كما أنه يجب ألا تسبق القيمة الاقتصادية المتوخاة ما يجب أن يتوافر في التشريع ابتداء من قيمة قانونية بالمعنى الذي حددناه، فهذه القيمة من شأنها أن تعطي للمنتج القانوني قيمة اقتصادية تشجع على الاستثمار والنمو الاقتصادي، الذي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل إطار قانوني يحقق العدالة والأمن القانوني معًا. إن هذا الإطار القانوني هو الذي يسهم في إعطاء المستثمرين والمستهلكين على حد سواء الشعور بالاستقرار الحقيقي الذي يحتاج إليه أي استثمار طويل الأجل. وفي هذا الصدد فإننا نعارض أية عولمة لا تستهدف إلى غير إعلاء سيادة قانون السوق، ونطالب بتوحيد كل الجهود لكي نرى في نصوص القانون كل ما يؤكد احترام حقوق الإنسان، كل إنسان، واحترام كرامته، واحترام العدالة، واحترام خصوصية ثقافته وحضارته.

فالعولمة التي نريدها هي التي تضع في اعتبارها احتياجات الدول النامية من خلال القواعد القانونية التي تنظم النشاط الاقتصادي والتبادلات الدولية، واعتبارات العدالة والمساواة والأمن القانوني. وكل ذلك يتطلب تنويع القواعد القانونية وفقًا لقدرات الدول المنتجة ووفقًا لمتطلبات التنمية عندها. فلا شك أن إتاحة الفرصة للتنمية والرخاء للجميع وفقًا لقواعد العدالة والمساواة هو برنامج طموح يجب أن تعمل العولمة من أجل تحقيقه، وقد لوحظ أن العولمة وما صاحبها من الاعتماد المتبادل بين الدول واهتزاز الحواجز التي تفصل بين سيادة كل دولة وأخرى، قد أسهم في صياغة قيم مشتركة سواء على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي. فلم تعد حقوق الأفراد ومصالح المجتمع الوطني هي الشاغل الوحيد للقانون، بل أصبح من شواغله أيضًا مواجهة مصالح المجتمع الدولي وبحث مدى تأثير أعمال الأفراد عليها.

وإزاء ظهور أفكار ومبادئ جديدة تحت تأثير العولمة وانتقال القيم والأفكار من حضارة إلى أخرى تحت تأثير سرعة الانتقال وتقدم وسائل الاتصال، ظهرت الحاجة إلى صياغة قيم

خلقت العولمة بجميع ملامحها طلبًا جديدًا على القانون، تجلى بوجه خاص في الاقتصاد. وأسهمت في شكل التغيرات السياسية والاجتماعية مما أسفر عن ظهور حقائق اجتماعية تعكس قيمًا جديدة، أثرت على مضمون القانون



وحــــوار الحضـــارات

أحمــــد فتحــى ســــرور

مشتركة، وصلت إلى حد العالمية، ومن بينها حماية حقوق الإنسان التى وصلت إلى المستوى الذى أزال الحواجز التقليدية بين القانون الداخلى والقانون الدولى بشأنها.

ومن تطبيقات ذلك احترام حقوق الإنسان فى نظامنا الجنائى، ومبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، ومبدأ شخصية المسئولية الجنائية ومبدأ شخصية العقوبة، ومبدأ حماية استقلال القضاء وحياده، وقرينة البراءة والمحاكمة العادلة واحترام حقوق الدفاع. وكذلك الشأن إيمان المجتمع الدولى بضرورة مواجهة زيادة الجرائم المنظمة العابرة للحدود، وجرائم الإرهاب الدولى وغيرها من الظواهر الإجرامية التى ضاعفت العولمة من وقوعها، على نحو يهدد الأمن فى كل من المجتمع الوطنى والدولى معًا. وقد خلقت هذه التغييرات طلبًا ملحًا على النظام الجنائى الدولى، يتمثل فى تقنين التشريع الداخلى للجرائم الدولية وظهور النظام القضائى الجنائى الدولى، وامتداد اختصاص القضاء الوطنى فى بعض الدول إلى جرائم تقع خارج إقليمه. وهو ما يتطلب بالتبعية زيادة التعاون الدولى فى مجال الجريمة. هكذا تجاوزت العولمة نطاقها الاقتصادى لكى تمتد إلى النظام القانونى الجنائى الذى يضم الجرائم الدولية التى زادت فى هذه الآونة الأخيرة، والذى يثير الحاجة إلى نظام عالمى جنائى يواجه هذه الظاهرة. نظام يؤكد القيم المشتركة التى يجب حمايتها جنائيًا على المستوى الدولى.



على أنه من ناحية أخرى نحذر من القيم التى تخلقها القوة المادية والسيطرة التى تتمتع بها بعض الدول الكبرى، فلا يجوز فرض هذه القيم على سائر المجتمعات، لأن القانون لا يجوز أن يحمى سوى القيم التى يحتاج إليها المجتمع أو يؤمن بها، لا تلك القيم الفوقية التى تفرضها قوة أو سلطة مسيطرة. لابد للقانون أن يعكس حقيقة الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى والمالى السائد فى المجتمع، لا أن يستورد واقعًا فى بلد أجنبى وأن يترجم واقعًا يُملى عليه. فلا شك فى سوء العولمة التى تكرس السيطرة الاقتصادية الثقافية لجزء من العالم على الجزء الآخر، أو توحد مدلول الأخلاق، أو تؤدى إلى التغريب الثقافى وفقًا لمرجعيات موحدة تعتمد على السيطرة والضغط.

ومن ناحية أخرى، فإننا نحتاج إلى القوة لحماية القانون وكفالة تنفيذه، فلا يجوز أن تتخذ السلطة مهما كانت طبيعتها سواء كانت اقتصادية أوسياسية أو عسكرية، ستارًا لمخالفة الشرعية الدولية. أو تطبيقه بمعايير مزدوجة، أو تطبيقه بصورة انتقائية. كل ذلك يضعف قيمة العدالة ويهز الإيمان بقيم القانون، مما يفتح الطريق أمام الفوضى بسبب عدم الإيمان بعدالة القانون. إن القانون خلق للجميع، ومن أجل الجميع.. فلا يجوز خلق قانون للأقوياء لتطبيقه على الضعفاء؛ فتلك هى بداية الانحلال فى النظام القانونى بأسره.

إن حيوية النظام القانونى واستمراره يتوقفان على احتفاظ القيم الاجتماعية المقبولة بقوتها فى دفع القانون وقيادته، وكلما تغيرت هذه القيم يتغير القانون سواء كان ذلك فى إطار النظام القانونى الداخلى أو فى نطاق النظام القانونى الدولى. ولهذا فإنه يتعين على المؤسسات الأكاديمية أن تركز اهتمامها على استجلاء القيم الاجتماعية المقبولة التى نريد الدفاع عنها والتى يتعين على النظام القانونى أن يشملها بحمايته، ولا يمكن فى نطاق العولمة أن نتخذ نموذجًا ثقافيًا لأحد المجتمعات لكى نستخلص قيمه المقبولة ونفرضها على سائر المجتمعات. وإنما يتعين احترام التنوع الثقافى للشعوب وخلق مجتمع عالمى جديد يراعى الخصوصيات الثقافية وأنماطها المختلفة. فالحصاد الحقيقى للتفاعل الحضارى يبدو فى إقامة نظام قيمى عالمى يراعى التنوع بين الثقافات واحترام هوية كل منها. وعلى هذا النحو يتمكن الإنسان من الخروج من الأزمة الحالية التى خلقتها العولمة لتهديد الذاتية الثقافية للشعوب، من خلال فرض القيم الثقافية للقوى المسيطرة على اقتصاديات العالم، وما تجره بالتبعية من تطبيق مبادئها القانونية على سائر الشعوب، على الرغم مما يكتنف هذا التطبيق من الإخلال بمبدأ المساواة فى أجل معانيه.

لقد جاءت العولمة تحت ستار التعاون والتضامن الدولى، ورفع مستوى الحياة والسلام فى العالم. ومن خلال مسيرتها سنحت الفرصة لتحقيق التقدم الإنسانى بين جميع شعوب الأرض. وهو ما لا يتفق مع فرض ثقافة كونية أو عالمية على هذه الشعوب، أو خلق ثقافة إمبريالية تهيمن على الجميع، لما ينطوى عليه ذلك من أخطار التصادم والتبعية وبما لا يتفق مع الغايات الإنسانية للعولمة.

إن عالم اليوم هو حصيلة ما قدمه الإنسان للإنسان، ما قدمه كل شعب للشعوب الأخرى، من خلال تنوع الثقافات والحضارات. هذا التنوع يجب أن ندافع عنه، وأن نحافظ عليه، فهو مصدر الثراء المتبادل بين الشعوب وهو ضمان التقدم المتوازن داخل الحضارات، فالتجاوزات التى تقع داخل أية حضارة تصححها المبادئ والقيم التى تؤمن بها حضارات أخرى.



وكل ذلك يفرض إقامة حوار حقيقى بين الحضارات والثقافات المختلفة، من أجل فهم ما الذى تجرى عولمته وبواسطة من ولصالح من؟

إن الثقافة ليست سلعة، وخصوصية كل ثقافة يجب أن تعلو على أى اعتبار ولا يجوز للعولمة أن تتحدث باسم الثقافة، بل إنها على العكس يجب أن تتيح التعبير عن الأصالة والخصوصية التى تتمتع بها كل ثقافة. وإذا كانت الديانات تؤدى دورًا محوريًا فى خصوصية الثقافات، فإنه لا تناقض بين عالمية الديانات السماوية وخصوصية الثقافات، فالتوازن بين عالمية الدين وخصوصية الثقافة القائمة على هذا الدين، يتحقق من خلال الانتشار العالمى للدين مع الاحتفاظ بالذاتية الثقافية القائمة على هذا الدين والتى تميزها عن غيرها من الثقافات.

إن الاختلافات الثقافية والدينية بين الشعوب هى من الثوابت التى لا يجوز إنكارها. والالتقاء بين هذه الثقافات المختلفة يتيح الفرصة للتفاعل فيما بينها والتعاون معًا لحل ما يواجهها من مشكلات عالمية. ولقد سبق أن أكدت فى أكاديمية لينشاى بروما بتاريخ ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٩٩ فى الاجتماع الذى نظمته هذه الأكاديمية بناء على دعوة مجلس النواب الإيطالى لبحث حوار الحضارات أننا نرفض ما يروج له البعض بشأن صراع الحضارات، لأن الحضارات نتاج للتاريخ، وهى من صنع الشعوب، والتاريخ ملك للإنسانية، وأكدت أن التفاهم الذى نعيش فى ظله ليس ثمرة مفاوضات بيننا، وإنما هو ثمرة سلسلة من الحضارات المتعاقبة ولابد أن نعمل على بناء نظام عالمى يقبل بالتعددية الثقافية والدينية والفكرية.

هذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجهنا فى عالم القانون عندما نطور قوانيننا لكى تواجه الحاجات الجديدة للعولمة، وبما تتطلبه من تدويل للعلاقات الاقتصادية فى ضوء نظام التجارة العالمى وتسهيل الانتقال بين الأشخاص وما قد يصاحب ذلك من غزو ثقافى للدول ذات النفوذ الاقتصادى أو ذات السيطرة، أو تسهيل للهجرة بين الشعوب. وقد اتجهت بعض الدول إلى تعديل قوانين الهجرة فيها للمحافظة على ذاتيتها الثقافية المهددة بخطر الاغتراب الثقافى بسبب زيادة المهاجرين إليها، مما أدى إلى وضع قيود على تراخيص الإقامة وتصاريح الدخول وحق الالتجاء السياسى.

ولا يقتصر الأمر على ذلك فى عالم القانون، بل يمتد التحدى الذى صاحب العولمة إلى البحث عن النموذج القانونى للدولة، فلم يعد صالحًا نموذج الدولة المتدخلة فى نظام اقتصادى يقوم على قانون السوق، الأمر الذى يثير عدة مشاكل فى الدول النامية بسبب التزاماتها الدولية وفقًا للعولمة. إلا أنه أيا كانت عناصر الأزمة فى هذه الدول، فإنه من المتفق عليه أن دور الدولة لن يختفى فى الاقتصاد فى كافة الدول سواء كان ذلك لضمان حسن إدارة اقتصاد السوق، أو من أجل تحقيق التوازن داخل المجتمع. كما أنه بوجه عام يجب على الدولة أن تخلق مناخًا مواتيًا لتنمية المشروعات. فهذه هى المشكلة فى جميع البلاد النامية التى تهدف استراتيجيتها إلى جذب الاستثمارات الأجنبية. وأيا كان الأمر فى شأن دور الدولة فى الاقتصاد فإن تحديد هذا الدور يتوقف إلى حد كبير على القيم الثقافية فى كل دولة. فلا يوجد نموذج قانونى موحد لهذا الدور، ولا يمكن نقل نموذج تطبقه دولة ما على دولة أخرى.



إن التفاعل بين الحضارات كان له تأثير على مبادئ القانون. وقد أوضحنا التحديات التى هبت علينا بسبب العولمة سواء من ناحية القيم التى يحميها القانون أو من زاوية الإطار القانونى الملائم لشكل هذه الحماية. ولنتساءل: ماذا سوف يكون عليه عالم اليوم بدون مساهمة علماء الرياضة والفلك العرب، والفلاسفة الإغريق، والمعماريين والرسامين الإيطاليين؟ ماذا سوف يكون عليه عالم اليوم بدون مساهمة الحضارة الصينية، والأفريقية، والهندية، وحضارة جنوب أمريكا؟ لا شك أن الحوار بين الحضارات واحترام الخصوصية الثقافية لكل حضارة هو السياج المنيع فى مواجهة الغزو الثقافى الذى قد يصاحب الحضارة التى تملكها الدول الغنية. وفى ضوء هذا السياج يشترك القانون الوطنى مع غيره من القوانين الوطنية فى القيم التى يتيحها تفاعل الحضارات، ويختلف عنها احترامها لخصوصية قيمه الثقافية.

ولا شك أن الأمل معقود على المؤسسات الأكاديمية ومراكز البحث القانونى لكى تضع دعائم الإطار القانونى الذى يصلح لمواجهة العولمة. وأحسب أن احترام حقوق الإنسان، واحترام الشرعية الدولية، والالتزام بتحقيق العدالة والأمن القانونى هى غايات إنسانية مهمة يجب بلوغها حتى يكون للقانون دور فاعل فى إحداث التغيير المنظم والإسراع نحو التطور والتنمية فى إطار من تكافؤ الفرص والمساواة.

نحن فى حاجة إلى تحويل العولمة أداة للتنمية والرخاء للجميع، وأداة للمساواة والعدالة الاجتماعية، استجلاء للطابع الإنسانى الذى يجب أن تكون عليه العولمة.

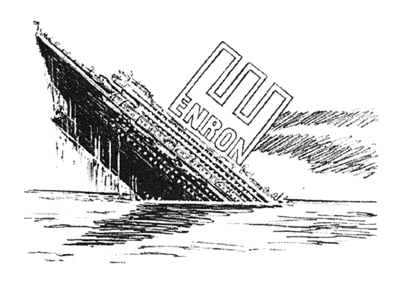
إن العولمة التى تحترم التنوع الثقافى يجب أن تحقق التنوع فى القواعد القانونية التى تضعها لكى تحكم الدول الغنية والدول الفقيرة بما يؤدى إلى تحقيق المساواة فيما بينها من خلال مراعاة الاختلاف بينها بقواعد قانونية تراعى ظروف كل منها. إن ديمقراطية العولمة لا تتحقق إلا باستفادة الجميع منها على قدم المساواة، مما يجعل المخاطبين بها أكثر تضامنًا، ويؤكد غايتها الإنسانية.

ولا شك أن المهمة صعبة وتقع بالدرجة الأولى على القانون. ومن أجل تحقيق هذه المهمة يجب المحافظة على سيادته الوطنية، وتفسير نصوصه وفقًا للمصالح الوطنية، واحترام النظام العام الداخلى، ويجب أن نعطى ثقتنا للقانون وللقضاء الوطنى القائم على تطبيقه، فعليهما تقع مسئولية المحافظة على المصالح الوطنية، وإجراء التوازن بين العالمية والخصوصية، بين الدولية والوطنية، بين القيمة الاقتصادية وقيم العدالة والأمن القانونى، بين النظام العام الدولى والنظام العام الداخلى. ■

> **نحتاج إلى القوة لحماية القانون وكفالة تنفيذه، فلا يجوز أن تتخذ السلطة مهما كانت طبيعتها سواء كانت اقتصادية أوسياسية أو عسكرية، ستارًا لمخالفة الشرعية الدولية. أو تطبيقه بمعايير مزدوجة، أو تطبيقه بصورة انتقائية**

الغـــواية والخيـــانة!!

قصـــة انهيــــار شـــركـــــة «إنــــرون» الأمــريكيـــــة العمـــــلاقـــــة



جـــيـف مـــادريك

في ١٦ يونية الماضي، كتب المحلفون في إحدى محاكم ولاية تكساس الأمريكية شهادة وفاة شركة «آرثر إندرسون» للمحاسبات والتى لعبت دورًا رئيسيًا في فضيحة انهيار شركة «إنرون» للطاقة العملاقة. وقد أدان المحلفون «آرثر إندرسون» بإعاقة التحقيقات التي أجرتها السلطات التشريعية بشأن انهيار إنرون من خلال إخفاء بل وتدمير الوثائق السرية التى تكشف ملابسات الفضيحة.

ولأن الأمر يتعلق بشركة عملاقة، هي إنرون، حققت نجاحًا غير مسبوق في سنوات قلائل، فقد سعى الرأي العام الأمريكي لمعرفة حقيقة ما حدث، وما هي علاقة الشركة بكبار المسئولين في الإدارة الأمريكية وفي مقدمتهم ديك تشيني نائب الرئيس.

إن سقوط أندرسون، حسب بعض المحللين الأمريكيين، ربما يكون البداية لكشف أسرار اللغز الكبير.

المحرر

Report of Investigation by the Special Investigative Committee of the Board of Directors of Enron Corp.

تقرير لجنة التحقيق الخاصة عن شركة انرون

by: William C. Powers Jr., Raymond S. Troubh, and Herbert S. Winokur Jr.

news. findlaw.com/hdocs/docs/enron/sicriport

---

[١]

بعد الترويج لشركة إنرون على نطاق واسع، باعتبارها واحدة من الشركات العملاقة في عصر جديد، اتضح أنها إلى حد كبير - بل تكاد تكون بالكامل - من خلق الحيل المحاسبية. إلا أن فضيحة انهيارها ليست نموذجاً منعزلاً لشركة مفردة اندفعت اندفاعاً متهوراً. ذلك أن أكثر أنشطة إنرون خطورة لا يمكن أن يكون قد نُفِّذ بدون موافقة الكثير من أفضل المحاسبين المستقلين والمحامين والبنوك التجارية والاستثمارية ومحللي الأمان ووكالات تقدير الديون في البلاد، وبتشجيع منهم، بل وبالتواطؤ معهم. كما أنه لا يمكن أن تكون تلك الأنشطة قد نُفِّذت دون أن يكون قد وقع تهاون غير معتاد في واشنطن وأماكن أخرى تجاه أبسط نظم الأوراق المالية وشروط الاطلاع. ويكشف انهيار إنرون، أكثر من أي حدث سواه عن أن هناك شيئاً ما شديد الخطأ فيما يتعلق بالشركات العامة التي تعمل في الأسواق المالية الأمريكية، وبطريقة التلاعب في البيانات دون مراعاة مصالح العملاء أو الزبائن وروح القانون، ناهيك عن معايير الأمانة الأساسية. فالمعلومات المضللة تضليلاً منظماً تشجع على دخول عشرات المليارات في استثمارات مهدرة؛ كما تروج لشركات، بل وصناعات بكاملها، تفتقر إلى الكفاءة وتبقى عليها.

كانت إنرون قد تشكلت من اندماج جرى من خمس عشرة سنة بين شركتي خطوط أنابيب للغاز الطبيعي، هما «هيوستن ناتشورال جاس» و«إنترنورث». إلا أنها لم تكن تعتزم القيام بالعمل كما هو معتاد؛ وما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك. ولأن الذي يديرها هو اقتصادي حلو الكلام اسمه كينيث لاي، فقد انتهزت فرصة تحرير أسعار الغاز الطبيعي والكهرباء لتحويل نفسها إلى تاجر استثماري للطاقة، التي هي في الغالب الكهرباء والغاز الطبيعي، في أنحاء الولايات المتحدة وأماكن كثيرة في أنحاء العالم. وعلى وجه التحديد، استفادت الشركة استفادة مبتكرة من الأدوات المالية المتخصصة المعروفة بالمشتقات التي تمكنها من تغطية الاستثمارات. وفي النهاية باتت تتعامل في أدوات كهذه تعتمد على كل شيء له قيمة من كابلات الألياف الضوئية وطباعة الصحف إلى الطقس.

وكانت بورصة وول ستريت والصحافة الاقتصادية تنظر إلى إنرون على أنها شركة من شركات «الاقتصاد الجديد» النموذجية. وقد ابتكرت تكنولوجيا متطورة للتعاملات المالية أذهلت المراقبين، واستفادت استفادة ضخمة من الإنترنت. وكان الكثير من أفكارها جيداً وبعيد النظر. فعلى سبيل المثال، لو كان التعامل في مشتقات الطاقة قد جرى بشكل مشروع لساعد المستفيدين التجاريين والخاصين للطاقة على تقليل الشكوك المستقبلية، عن طريق تمكينهم من تحديد التكلفة - حتى التكلفة التي يمكن أن تزيد بعد عشر سنوات. وكان يمكن لاستخدام الإنترنت للتعامل في المشتقات أن يؤدي إلى الأسعار المنخفضة، للطاقة على سبيل المثال، عن طريق الجمع الفوري بين المشترين والبائعين في مناطق جغرافية شاسعة. وأعلنت إنرون أن أرباحها بلغت حوالي مليار دولار في عام ٢٠٠٠، وجعلتها مبيعاتها تحتل المرتبة السابعة بين أكبر الشركات الأمريكية، طبقاً لقائمة مجلة «فورشن». وفي الوقت نفسه ارتفع سعر سهمها إلى ٩٠ دولاراً، حيث بلغ إجمالي القيمة السوقية لأسهمها ٧٠ مليار دولار. ووصفتها «فورشن» بأنها أكثر الشركات ابتكارًا في البلاد.

إلا أنه اعتباراً من أوائل ٢٠٠١ أخذ سعر السهم في الانخفاض، حيث لم تعد الشركات التي لها علاقة بالإنترنت والاتصالات تحظى باهتمام المستثمرين. ودون علم معظم المراقبين، أو على الأقل بتجاهل من محللي الأوراق المالية، أصبح سعر الأسهم الآخذ في الانخفاض يمثل ضغطاً ماليًا متزايداً على الشركة، التي أفرطت في استخدام أسهمها لضمان القروض وغيرها من الالتزامات ولتجميل الصفقات في أعين المقرضين والمستثمرين الخارجيين. وفجأة استقال مدير عام إنرون جيفري سكيلنج في أغسطس، وبدأت شائعات المشكلة المالية في الذيوع. وأخيراً، وفي شهر أكتوبر، صدمت «إنرون» وول ستريت بإعلانها عن خسائرها التي بلغت ٦١٨ مليون دولار. وأعلنت في اليوم ذاته، وبقدر أكبر من الهدوء، عن تخفيضها حقوق المساهمين بمقدار ١,٢ مليار دولار. وهبط سعر السهم هبوطاً سريعاً. وفي وقت لاحق من أكتوبر، طلبوا من المدير المالي أندرو فاستوف، الذي قد يكون الشخصية الرائدة في التلاعبات المحاسبية المزعومة، أن يستقيل.



ومن النادر أن تلقى شركة بهذا الحجم الكبير والشهرة نهايتها على هذا النحو من

السرعة. لقد كانت أكبر حالة إفلاس فى التاريخ الأمريكى. وفقد الآلاف من العاملين وظائفهم على الفور تقريباً، وسرعان ما سيفقد آلاف غيرهم وظائفهم. ويساوى سهم إنرون الآن بضعة بنسات. وفقد الكثير من العاملين البالغ عددهم عشرين ألفاً مدخرات المعاش التقاعدى الخاصة بهم، بعد أن كانت الشركة قد شجعتهم على شراء أسهم إنرون بسندات المعاش التقاعدى. كما فقدت صناديق المعاشات فى أنحاء البلاد مليارات الدولارات فى استثماراتها بإنرون.

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه التحقيقات، انتحر كليفورد باكستر نائب رئيس مجلس الإدارة السابق الذى كان قد استقال فى وقت سابق من العام الماضى وكان من المقرر استدعاؤه للشهادة. واتضح أن إنرون ومراقبها المالى أرثر أندرسن، يتخلصان من الوثائق. وفى شهر فبراير استقال رئيس مجلس الإدارة كينيث لاى من مجلس الإدارة ورفض الإدلاء بشهادته طواعية أمام الكونجرس. وتزايد احتمال إجراء تحقيق جنائى. وعند استدعاء العديد من مسئولى إنرون للإدلاء بشهاداتهم أمام الكونجرس، رفضوا الإجابة عن الأسئلة، مستشهدين بالتعديل الخامس من الدستور الأمريكى.

وبالنظر إلى سمعة إنرون كشركة للتعاملات المالية، كان من الطبيعى افتراض أن تكون خسائرها تتعلق بأنشطة فى عقود الطاقة التى تنظم تنظيماً فضفاضاً والمشتقات المالية التى تخصصت فيها. والمشتقات كما أوضحنا أدوات مالية «مشتقة» من القيمة الممتازة للسهم أو السند أو برميل البترول، أو وحدة الكهرباء، بل والطقس، إلى جانب سلع وأصناف أخرى. وتعطى المشتقات حائزيها الحق فى شراء أو بيع تلك الأصول الممتازة فى وقت ما مستقبلاً بسعر معين. ومن بين ميزاتها أن المستثمر يكون عليه وضع القليل من المال لشراء أو بيع قدر كبير من الأسهم، أو البترول، أو أية أصول أخرى لا حصر لها. ولكن هذا يجعلها تنطوى على مخاطرة كذلك، ذلك أن الكثير من أسواق المشتقات غير منظم بالمرة.

ولم يفهم أحد معاملات إنرون فهماً أكثر اكتمالاً إلا بعد إشهار إفلاسها. وبينما كان يجرى التلاعب فى عمليات التعامل الخاصة بالشركة لتضخيم الفوائد، فقد انطوت أكثر التلاعبات تكلفة على استخدام شركات خارج الميزانية وضعت فيها بعض استثمارات إنرون فى شركات التكنولوجيا الفائقة والطاقة فى الداخل والخارج. وركزت الصحافة فى البداية على مقدار الديون التى أخفتها إنرون خارج ميزانيتها. إلا أن الأمر الأكثر أهمية هو أن إنرون حققت باستخدام هذه الاستثمارات أرباحاً لم يسبق لها تحقيقها، حيث غطت الخسائر الضخمة. وهذا هو ما أوضحه التحقيق الداخلى الذى أجراه ثلاثة أشخاص بتكليف من مجلس إدارة إنرون فى أكتوبر برئاسة ويليام باورز الابن من كلية الحقوق بجامعة تكساس. ووجد تقرير باورز أن إنرون حققت فى الفترة من يوليو ٢٠٠٠ إلى أكتوبر ٢٠٠١ أرباحاً مقدارها مليار دولار لم تكسبها بالفعل - أو حوالى ٧٢ بالمائة من إجمالى الأرباح التى قالت إنها حققتها فى تلك الفترة.

ولا يزال مقدار ما علمه مسئولو مكتب أرثر أندرسن للمحاسبة عن أنشطة إنرون غير واضح، إلا أن صغار موظفى أندرسن اشتكوا لرؤسائهم من أساليب المحاسبة غير الصحيحة، وأعدم أندرسن آلاف الصفحات من المستندات المتصلة بإنرون. ولم يكن أندرسن مجرد مراجع حسابات، بل كان كذلك مستشاراً فى إقامة الشركات موضع البحث. ولو عدنا للوراء لوجدنا أنه من الواضح أنه حتى الخبراء لا يمكنهم تحديد ما كان يجرى فى إنرون من التقارير المالية أو الطلبات التى تتقدم بها إلى لجنة الأوراق المالية والصرف وأقرها أندرسن. ويعد عدم دفع إنرون أية ضرائب دخل تقريباً طوال خمس سنوات بنقل أرباحها إلى مواقع مختلفة فى الخارج تفصيلة صغيرة، مقارنة بتلك التجاوزات الأخرى. فقد أصبح هذا التهرب من الضرائب أمراً عادياً بالنسبة لكثير من الشركات.



وإذا كانت المعلومات التى نعرفها الآن صحيحة، فإن أنشطة إنرون المشكوك فيها لم تكن تلاعباً يمكن إرجاعه إلى «الاقتصاد الجديد»؛ إنه تلاعب وحسب. وإثبات التلاعب يتطلب أن يصدق المحلفون بما لا يدع مجالاً للشك أن إنرون كانت لديها نية الخداع. وربما كانت المستندات المعدومة تحتوى على الدليل. وقيل لى إن أجهزة الكمبيوتر التى أخرجت تلك المستندات يمكن أن تحتوى كذلك على بيانات محيت من عليها باستخدام برامج يسهل الحصول عليها. إلا أن الكثير من المراقبين يعتقدون أنه من المحتمل أن تكون هناك عقوبات جنائية، وأن من المحتمل أن يتحدث بعض المسئولين مقابل حصولهم على الحصانة. وقد يكون من الأيسر مواجهة قدر أقل من الأدلة فى المحاكم المدنية. وحاليا يرفع الموظفون والمستثمرون فى أنحاء البلاد الدعاوى. وقد يكون النجاح فى مقاضاة مديرى الشركة ومسئوليها الوسيلة الأكثر فاعلية لإصلاح تلك الممارسات.



وفى الوقت نفسه يوضح تقرير باورز أن العديد من الموظفين كانت بينهم صراعات على المصالح وكانوا يتقاضون أتعاباً مبالغاً فيها مقابل ما يؤدونه من عمل. فقد حصل المدير المالى أندرو فاستوف على ٣٠ مليون دولار من خلال تلك الشركات. وحصل أحد مرؤوسيه، واسمه مايكل كوبر، على ١٠ ملايين دولار. كما باع المديرون أسهم الشركة فى الوقت الذى شجعوا فيه الموظفين على شراء المزيد منها. وباع كينيث لاى ما تزيد قيمته على ٢٠٠ مليون دولار، وكان يبيع الأسهم عقب الشكاوى الداخلية بعد أن لفت موظف فى الشركة انتباهه إلى الشكاوى الخاصة بالمخالفات المالية. وكانت المشاكل المالية المحتملة معروفة للمديرين قبل أن يعلم العامة بأمرها. وقرر بنك «سيتيجروب»، وهو من كبار مقرضى إنرون، تغطية قروضه من العجز المحتمل فى أواخر ٢٠٠٠ وأوائل ٢٠٠١، طبقاً لما ذكرته صحيفة «نيويورك تايمز».

كانت إنرون تعطى المال بسخاء للمشرعين ورجال الصحافة، حيث ساهمت بستة ملايين دولار فى الحملات السياسية خلال العقد الماضى، أعطى ثلاثة أرباعها للديمقراطيين. وكان مستقبل إنرون يعتمد اعتماداً كبيراً على تحرير أسواق الطاقة. وكان «لاى» مقرباً من الرئيس بوش، وساهم على سبيل المثال فى حملة انتخابات حاكم تكساس بثلاثة أضعاف ما ساهم به فى حملة منافسه. والتقى لاى ومديرو إنرون مرات كثيرة بنائب الرئيس ديك تشينى وفريق العمل الخاص بالطاقة التابع له، بينما كانت الحكومة تضع سياسة جديدة للطاقة. وقد رفض تشينى بموافقة من الرئيس بوش تسليم مستندات تتعلق باللقاءات إلى مكتب المحاسبة العام، الذى يقاضيه الآن. وقيل إن تشينى حاول مساعدة إنرون فى الخروج من استثمار فى محطة لتوليد الكهرباء فى الهند. وربما أثر «لاى» كذلك على التعيينات فى اللجنة الفيدرالية لتنظيم الطاقة ذات النفوذ.

كما دفعت إنرون للصحفيين والمعلقين السياسيين المشهورين مبالغ كبيرة جداً باعتبارهم «مستشارين»، ومن بين هؤلاء بول كروجمان حين كان يكتب لمجلة «فورشن»، وويليام كريستول من «ويكلى ستاندارد»، وإيروين ستلزر الذى كان يكتب باستمرار فى «ويكلى ستاندارد» وكثيراً ما كان يمتدح إنرون، ولورانس كودلوف من شبكة «سى إن بى سى». وكان كريستول يتلقى سنوياً ١٠٠ ألف دولار مقابل عمله كمستشار، بينما يبدو أن الآخرين كانوا يتقاضون مبالغ أقل من ذلك. وقبل أن تنهار إنرون بكثير، أعلن كروجمان، الذى كان فى يوم من الأيام يمتدح الشركة ثم أخذ ينتقدها انتقاداً شديداً، من تلقاء نفسه أنه تلقى أموالاً من إنرون. كما كانت إنرون تدعو رجال بنوك استثمارية بشكل فردى إلى شركاتها المربحة.

كانت أكبر حالة إفلاس فى التاريخ الأمريكى. وفقد الآلاف من العاملين وظائفهم على الفور تقريباً، وسرعان ما سيفقد آلاف غيرهم وظائفهم. ويساوى سهم إنرون الآن بضعة بنسات. وفقد الكثير من العاملين البالغ عددهم عشرين ألفاً مدخرات المعاش التقاعدى الخاصة بهم، بعد أن كانت الشركة قد شجعتهم على شراء أسهم إنرون بسندات المعاش التقاعدى



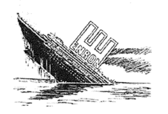
إذ كانت بحاجة إلى هؤلاء المصرفيين للمساعدة فى جمع الملايين من المستثمرين الذين لا يعتريهم الشك. فقد كانت إنرون توزع النفوذ بنفس الطريقة التى توزع بها الغاز، ويبدو أنها لم تكن تفرق بين الاثنين.

وكانت أنشطة إنرون تتسم بالتعقيد، غير أنه ليس من الصعب فهم الطريقة التى كان يضلل بها مديرو الشركة المستثمرين، حيث كان ذلك يحدث فى بعض الأحيان بالالتفاف حول الأسس الإرشادية المحاسبية، وفى أحيان أخرى بوضع حدود لتلك القواعد. وأهم حقيقة بشأن إنرون هى مدى ضعف أداء الشركة فى كثير من الفروع المختلفة الخاصة بأعمالها - إن لم يكن معظمها - حتى وإن كانت وول ستريت تظن أنها مزدهرة. ولم يكن هؤلاء بحال من الأحوال المديرين الأفذاذ الذين كانت الصحافة تتحدث عنهم. فعلى سبيل المثال، قدر آلان سلون من مجلة «نيوزويك» أنها خسرت فى أواخر التسعينيات حوالى مليارى دولار كانت تستثمرها فى اتصالات واسعة النطاق، ومليارى دولار فى المرافق البرازيلية، ومليارى دولار فى استثمارات فى المياه، ومليار دولار آخر فى محطة توليد الكهرباء الهندية. وقد أبدى مديرو إنرون قدراً يدعو للدهشة من العجز فى مرات الفشل تلك. ومع ذلك فإنه قبل أن تعلن إنرون انخفاض أرباحها فى الخريف الماضى، كان ستة عشر من بين سبعة عشر من محللى الأوراق المالية الذين تتبع عملهم فرانك بارتنوى، أستاذ القانون بجامعة سان دييجو وخبير المشتقات، قد وضعوا توصيات «بيع قوى Strong Buy» و«بيع Buy» على الأسهم. وقبل أسابيع فقط من إعلان إفلاس إنرون فى ديسمبر، اعتبرت وكالات تقدير الديون ذات التأثير الكبير - موديز وستاندارد أند بورز وفيتش/إبكا - أن سندات إنرون حازت «درجة استثمار Investment Grade».

ومن بين خطط إنرون الكثيرة المشكوك فيها، نجد أن أهمها كان يتصل بالشركات التى تتم خارج الميزانية. وتلك الشركات التى ادعوا أنها مستقلة كانت تستغل على نطاق واسع للمساعدة فى تمويل الاستثمارات الرأسمالية، وخاصة فى صناعة الطاقة. واستغلالها فى «شركات الخدمات المالية منتشر إلى حد كبير الآن»، طبقاً لما قاله دوجلاس كارمايكل أستاذ المحاسبة فى كلية باروك بنيويورك والنائب السابق لرئيس المراجعة بالمعهد الأمريكى للمحاسبة القانونية العامة.

وسرعان ما صاغت إنرون خدعة شرط الاستقلال. وقد أدار فاستوف وتابعه ميتشل كوبر أهم صراع للمصالح. وكان تعيين فاستوف بموافقة من مجلس الإدارة. ومن ناحية أخرى اختير كوبر إلى حد ما لأن وضعه فى الشركة كان متدنياً بحيث لم يكن من الضرورى الإعلان عن دوره. وحددت إنرون حينذاك أساليب معقدة لتوفير الثلاثة بالمائة اللازمة من الحصة؛ وكانت فى بعض الأحيان لا تراعى هذا الشرط. وأخيراً حصلت على المستثمرين، وبينهم الكثير من أشهر المؤسسات المالية فى الولايات المتحدة، لإقراض المال للشركات، وهو ما كان فى كثير من الأحيان عن طريق ضمان تسديد الدين من خلال إصدار أسهم إنرون. والواقع إنرون والشركات كانت فى العادة شيئاً واحداً فى حقيقة الأمر، فالشركات المستقلة بحق لم تكن لتقوم باستثمارات ذات شروط على هذا القدر الكبير من محاباة إنرون.

وطبقاً لما جاء فى تقرير باورز، فقد مكنت تلك الشركات إنرون من المبالغة فى الأرباح وإخفاء الديون بطريقتين. وكانت أولى هاتين الطريقتين هى بيع إنرون الأصول للشركات، وبذلك تخلق لنفسها أرباحاً دون أن تضطر لتسجيل الالتزام الذى تفرضه الشراكة. بل إن إنرون كثيراً ما فعلت ذلك قبيل



نهاية ربع السنة، لتضخيم الأرباح التى تنقل إلى وول ستريت. وبعد ذلك كانت غالباً ما تعيد شراء الأصول بعد ذلك، وهو عادة ما تكون فيه فائدة للشراكة، وهو ما يفترض أن القصد منه تلاعب آخر قبل تقرير الربع التالى.

والأمر الأهم هو أن إنرون أنشأت العديد من الشركات التى مكنت الشركة من تغطية الخسائر فيما تسمى استثماراتها التجارية فى شركات أخرى. وكان أحد تلك الاستثمارات فى «ريذمس نت كونيكشنز» وهو شركة حديثة جداً لتقديم خدمات الإنترنت. وقد استثمرت إنرون فى الشركة ١٠ ملايين دولار فى عام ١٩٩٩، وارتفع سعر سهمها ارتفاعاً كبيراً، مما جعل حصة إنرون تساوى ٣٠٠ مليون دولار. واستطاعت إنرون تسجيل جزء كبير من هذا الارتفاع فى سعر الأسهم على أنه أرباح. ولكنها دخلت بعد ذلك فى شراكة أسمتها LJM1، مما اقتضى من LJM1 تعويض أى خسارة تتعرض لها إنرون إذا هبط سعر سهم ريذمز. ومن غير المحتمل أن أية شراكة كانت ستوافق على ذلك التعاقد بدون تعويض مجزى. إلا أن إنرون مكنت LJM1 من الموافقة عن طريق ضمانها ضد الخسائر من خلال وعدها بضخ الأموال من أسهمها. وفى النهاية أفلست ريذمز، ولكن إنرون تحاشت الإعلان عن خسائرها هى فى الشركة التى تزيد على ١٠٠ مليون دولار، حسب علمى.

وأدى نجاح تلك الشراكة إلى دخول إنرون عام ٢٠٠٠ فى عملية تغطية مشابهة ولكنها أكبر بكثير شملت شركة «نيو باور» التى كانت تبيع الكهرباء فى أسواق الجملة والقطاعى، وسرعان ما فشلت كذلك. وغطت إنرون العديد من الاستثمارات الأخرى بهذه الطريقة، مما خلق سلسلة من الشركات المعروفة باسم «رابتور»، إلا أن ريذمز ونيو باور عوضتا معظم الخسائر المعلنة وتعديل أرباحها فى الخريف الماضى. وما حدث فى المقام الأول هو أنه بينما هبط كذلك سهم إنرون وأسهم المستثمرين التجاريين مثل ريذمز، لم تستطع تلك الشركات الوفاء بالتزاماتها أو الحفاظ على ما يلزم من رأس المال المملوك. والواقع أن الهيكل الاستثمارى كان قد ساء فى وقت سابق من ذلك العام، وأعد المديرون إصلاحاً مؤقتاً كان يمكن أن يفلح لو كان سهم إنرون قد توقف عن الهبوط. كما بدا أن شروط لجنة الأوراق المالية والصرف للحفاظ على وضع الشركات الأخرى ذات الصلة لم تراع. وأخيراً اتفق أندرسن وإدارة إنرون على ضرورة الإعلان عن الخسائر وتخفيض حقوق المساهمين.

وليس مبلغ المليار دولار الذى اكتشف تقرير باورز ضياعه هو بالضرورة كل ما كذبت إنرون بشأنه. فهو وحده يساوى ثلث أرباح إنرون بعد تسديد الضرائب فيما بين ١٩٩٧ و٢٠٠١. إلا أن فرانك بارتنوى، الذى كتب كتاباً ممتازاً عن تجربته فى عمليات المشتقات فى شركة «مورجان ستانلى»، وكانت تسمى F.I.A.S.C.O. يعتقد أن أرباح إنرون تضخمت تضخماً كبيراً فى العمليات التى لم تحقق فيها لجنة باورز. وهو يقول، على سبيل المثال، إن المتعاملين بالغوا فى قيمة ما لديهم من عقود مشتقات وعقود طاقة. فالطريقة التى كانوا يحسبون بها تلك القيم، وهى غالباً ما كانت تتطلب تقديرات أسعار الكثير من السنوات فى المستقبل، لم يكن يعلن عنها.

وفى مثال آخر نال حظه من الدعاية للحصول على أرباح لم تكتسب، باعت إنرون مشروعها المشترك مع «بلوكبستر»، وهو سلسلة محال تجزئة لأشرطة الفيديو، لشراكة اسمها Braveheart أنشئت لبيع أشرطة الفيديو حسب طلب المستهلكين. واقترضت Braveheart بدورها ١١٥ مليون دولار من أحد البنوك، على ما يبدو بضمان أسهم إنرون. وأدخلت إنرون ١١٠ مليون دولار أو نحو ذلك من الأرباح المتوقعة فى دفاترها، ولكن الأرباح لم تتحقق قط. وذكرت صحيفة «فاينتشيال تايمز» اللندنية أن الشركة كثيراً ما كانت تحصل على أرباح من عقود خدمات طويلة المدى قبل معرفة المصروفات المستقبلية بوقت طويل.



[٢]

وهكذا فإن ما توفر حتى الآن من معلومات يشير بقوة إلى أن جيفرى سكيلنج وأندرو فاستوف هما من وضعا معظم تلك الخطط الجريئة. والواقع أن سكيلنج ربما نأى بنفسه فى النهاية من الناحية الرسمية وحمَّل فاستوف، الذى رُقّى مديراً ماليّاً للشركة، المسئولية كاملة. وشهد سكيلنج أمام الكونجرس أنه لم يكن لديه علم بالمخالفات المحاسبية فى تلك الشركات، وإن زعم مديرون آخرون أنه كان على علم بها. وفى كثير من الشركات، نجد أن المدير الذى يحظى بتأييد رؤسائه يمكن أن يتملق مرءوسيه ويقمعهم بسهولة. فالشركات على أية حال ليست ديمقراطيات.

ولكن كثيرين يتساءلون عن سبب اعتقاد شركة بها هذا العدد الكبير من المديرين الذين على هذا القدر من العلم والمعرفة أنها سوف تنجو بممارساتها شديدة الخداع. قد تكمن الإجابة فى سيكولوجية المقامرين التقليدية. فكلما لعبت أكثر فإنك قد تفوز. وربما كان سكيلنج وفاستوف يعتقدان، حتى ذلك الوقت على الأقل، أنه فى نهاية الأمر سوف تزدهر استثمارات «الاقتصاد الجديد» وتقيلهما من عثرتهما. وربما قالا لنفسيهما إنهما حينذاك سيجعلان الكل فى أحسن حال.

والتفسير الثانى أكثر إزعاجاً. إذ يبدو أن هناك كثيرين آخرين كانوا يفعلون الشىء نفسه. فلماذا كان محاسبو إنرون ومحاموها يقرون تلك الأنشطة؟ إن وول ستريت تموج الآن بمخاوف من أن شركات أخرى بالغت فى أرباحها بسبب ممارسات محاسبية على نفس القدر من التضليل وضعتها مكاتب محاسبة ومحاماة كبرى. وتجرى لجنة الأوراق المالية والصرف تحقيقاً حول شركة «جلوبال كروسينج». وتنخفض أسعار أسهم شركات مثل «ورلد دوت كوم»، و«ريلاينت سيرفيسيز»، وشركة الأدوية الأيرلندية «إيلان»، وحتى «جنرال إلكتريك» تخوفاً من أنها قد تضطر إلى تعديل أرباحها مع تزايد فحص دفاتر الشركات. وتشير «بزنس ويك» كبير المحاسبين السابق فى لجنة الأوراق المالية والصرف لين تيرنر يقدر أن المستثمرين يرون أن أسعار أسهم الشركات تهبط بمقدار ٢٠٠ مليار دولار، حيث عدلت الأرباح بسبب ما قيل فيما بعد إنها أخطاء محاسبية. وهو يرى أن عدد الشركات التى اضطرت لتعديل أرباحها تضاعف منذ عام ١٩٩٧، ويعتقد الخبراء الاقتصاديون فى مركز تنبؤات ليفى فى تشاباكا بنيويورك أن الأرباح فى أنحاء العالم قد تكون مبالغًا فيها بنسبة ٢٠ بالمائة فى المتوسط.

وفى الوقت نفسه أقرت واشنطن نفسها المزيد والمزيد من أساليب المحاسبة التى مكنت الشركات من تقدير الأرباح المستقبلية بسخاء، وخاصة حين تأتى الأرباح من التعامل فى المشتقات. ويقسو تقرير باورز بصورة خاصة على أرثر أندرسن. فهو يشير إلى أن أندرسن «لم يعلن عن جوهر المعاملات بوضوح كاف يمكِّن قارئ البيانات المالية من فهم ما يجرى». كما يرى تقرير باورز أن أندرسن له دور مهم كمستشار فى إنشاء شراكة رابتور، حيث حصل على حوالى ٦ ملايين دولار كأتعاب عن تلك الشركات وما يتصل بها فقط.

وبالمثل يرى تقرير باورز أن محامى شركة إنرون، «فنسون أند إلكنز»، كانوا كثيرا ما تطلب منهم المشورة والموافقة القانونية الخاصة بالعمليات المثيرة للجدل. وحادثة واحدة تبين ذلك. ففى أغسطس تلقى كينيث لاى خطاباً من مجهول يحذره من أن محاسبة الشركة مضللة إلى حد كبير. وبعد أسبوع تقدمت كاتبة الخطاب شيرون واتكنز، وهى نائب مدير فى إنرون. وأراد لاى التحقيق فى مزاعمها، ووافقت الإدارة ومجلس الإدارة على أن يتولى مكتب محاميها فنسون أند إلكنز ذلك الأمر. ومن غير المستغرب أن فنسون وجد أن اتهامات واتكنز غير صحيحة. إلا أنه اتضح فيما بعد أنها جميعها صحيحة.



[٣]

هل نتوقع إصلاحاً جاداً للممارسات التى أتت على إنرون؟ يقول دوجلاس كارمايكل من كلية باروك: «ما لم يحدث ذلك الآن، فلن يحدث فى أى وقت آخر». والحقيقة الأكثر وضوحًا التى وجدتها فى تقرير باورز هى أن شركتى Chewco وLJM1 انهارتا فقط لأنهما لم تراعيا حدّاً أدنى معيناً من المعايير الرأسمالية. فلو أن هاتين الشركتين راعتا شرط ٣ بالمائة من رأس المال لكان من الممكن ألا تكشف إنرون عن الكثير من الخسائر، ولاستمرت الخدعة. وقد أدى شرط الثلاثة بالمائة لكيانات الأغراض الخاصة، الذى لم يأت ذكره فى القانون، إلى ظهور الأرباح المبالغ فيها والخسائر الخفية فى أنحاء أمريكا.

ولا يبدو أن القيادة الفعالة للإصلاح سوف تأتى من البيت الأبيض. فرد الفعل الأول لمستشار الرئيس بوش الاقتصادى الرئيسى خريج هارفارد لورانس لاندسى هو أنه يفخر بأن الحكومة لم تفعل شيئاً لإنقاذ إنرون. فقد قال إن فشلها دليل على «عبقرية الرأسمالية». أما وزير المالية بول أونيل فقد أدلى بملاحظة على نفس القدر من الحمق. وكان حريّاً بمدافع أصيل عن الأسواق الحرة أن يغضب من المعلومات المضللة التى أصدرتها إنرون وإساءة استغلالها لثقة المستثمرين الأساسية فيها. ولا بد أن يكون خبراء الاقتصاد الحر من بين أكثر المدافعين المتحمسين عن المعلومات الدقيقة والعمليات التجارية «الشفافة».

وفى يناير الماضى أشار الرئيس بوش إلى

كانت إنرون تعطى المال بسخاء للمشرعين ورجال الصحافة، حيث ساهمت بستة ملايين دولار فى الحملات السياسية خلال العقد الماضى، ثلاثة أرباعها للديمقراطيين. وكان مستقبل إنرون يعتمد اعتماداً كبيراً على تحرير أسواق الطاقة. وكان «لاى» مقرباً من الرئيس بوش، وساهم على سبيل المثال فى حملة انتخابات حاكم تكساس بثلاثة أضعاف ما ساهم به فى حملة منافسه



أن أنشطة كتلك التى تمارسها إنرون لا يمكن التغاضى عنها. ولكن الإصلاحات التى اقترحتها الحكومة حتى الآن ضعيفة، ومنها مقترحات لجنة الأوراق المالية والصرف الخاصة بالرقابة المحاسبية، والقواعد الجديدة الخاصة بسندات المعاش التقاعدى، والحد الأدنى من التزامات الاطلاع الخاصة بالمديرين. إلا أن إجراء هذا الإصلاح على الفور لا يقتصر على حكومة بوش. فبعد الانهيار المذهل لصندوق التغطية «لونج تيرم كابيتال مانادجمنت» عام ١٩٩٨، لم تدع وزارة الخزانة فى حكومة الرئيس كلينتون إلى قواعد جديد كان يمكن أن تحسن الاطلاع بشأن التعامل فى نفس النوع من الأوراق المالية التى كانت إنرون تتعامل فيها. ولم يطالب آلان جرينسبان بصفته رئيس بنك الاحتياط الفيدرالى بشروط اطلاع أقوى. وخلال التسعينيات قلل كل من الجمهوريين والديمقراطيين شروط إعلان الشركات لمعلومات دقيقة. فقد أقروا تشريعاً فى عام ١٩٩٥ لحماية المديرين من مقاضاة المستثمرين لهم. كما منعوا المحاسبين من تبنى شروط اطلاع أقوى تتعلق بحق الاكتتاب بشراء السهم الخاص بالعاملين وكيفية تعويض ما يسمى النية الحسنة فى الاندماجات. وفى عام ٢٠٠٠ وافقوا على تشريع يحرر تماماً التعامل فى مشتقات الطاقة وسواها غير المدرجة فى البورصة.

وبالنسبة للخبراء الاقتصاديين، فقد دعا كثيرون منهم من حيث المبدأ إلى تقديم أسواق رأس المال فى أنحاء العالم معلومات تامة ودقيقة. وأسرع بعضهم بإلقاء اللوم فى الأزمة المالية الآسيوية فى عام ١٩٩٧ على سوء التقارير المالية، وكذلك فعل كثيرون فى وول ستريت وفى مؤسسات الإقراض الدولية وفى واشنطن. وفى ضوء الأحداث الأخيرة، تبدو المؤسسات المالية الأمريكية منافقة بعض الشىء.



وهناك أربعة مصادر لعدم مسئولية الشركات تتطلب الاهتمام. فلا بد من تحسين معايير المحاسبة وممارستها. ويوافق دوجلاس كارمايكل على أن أحد أهم الإصلاحات هو تعزيز التشريعات المتعلقة بالكيانات ذات الغرض الخاص مثل شركات إنرون. كما يقول مثل كثيرين غيره إن وجود جهاز قانونى لمراقبة المعايير المحاسبية وتنفيذها ضرورى. وفى أوائل شهر فبراير بدا الكونجرس مهتمَاً بإصلاح الممارسات المحاسبية أكثر من اهتمامه باتخاذ أية إجراءات أخرى.

كما أن إصلاحات معاشات التقاعد ملحة كذلك. فلا بد من تشجيع العاملين على تنويع ممتلكاتهم. وقد رأى الكثير من العاملين فى إنرون سندات تقاعدهم وهى تدمر، مما يجعلنا نظن أن خسائرهم تثير تساؤلات بشأن المقترحات التى تطالب مؤخراً بخصخصة التامينات الاجتماعية، وهو ما يقتضى إدارة الناس لاستثماراتهم كذلك. ونتوقع أنه سيكون هناك بعض الإصلاح فى ممارسات استثمار المعاش التقاعدى، إلا أنه قد يكون متواضعاً.

وما ينبغى أن يكون واضحاً الآن هو ضرورة تنظيم المشتقات تنظيماً تامّاً. ويقول الخبير الاقتصادى راندال دود، الذى يدير مركز دراسات المشتقات فى واشنطن: إنها لا بد أن تخضع لنفس الشروط التى تخضع لها الأوراق المالية الأخرى. ولا بد من إجبار من يتعاملون فيها على كشف مصادر رأس المال التى تقوم عليه، وعلى الإبلاغ عن التعاملات بدقة، وعلى التسجيل كمشاركين فى السوق. وهو يقول إن مشروعات القوانين المنظمة الجديدة تجرى صياغتها فى الكونجرس، إلا أنه يظن أن فرص الموافقة عليها لا تزيد على ٥٠ بالمائة. وأنا أرى أن تقديره مرتفع.

وأصعب أنشطة الشركات رصداً هى تلك التى تنطوى على صراعات على المصالح. وقد يشترط الكونجرس كذلك على المحاسبين فصل بعض الممارسات الاستشارية عن ممارستهم الخاصة بالمراجعة. إلا أن هذه ليست الصراعات الوحيدة على المصالح التى كشفتها فضيحة إنرون. وبصورة خاصة، فإنه غالباً ما يعمل محللو وول ستريت، الذين ينصحون المستثمرين بخصوص الشركات، فى بيوت استثمار تكسب كذلك مئات الملايين بجمعها المال من تلك الشركات نفسها. والكل يستفيد من جعل أسعار السهم مرتفعة والبيانات المالية تبدو فى حالة جيدة. وفى الوقت نفسه تقدم الصحافة الاقتصادية، وخاصة برامج أخبار المال واسعة الانتشار القليل من الشك، أو عدم الشك، فيما يتعلق بتصريحات هؤلاء المحللين، الذين يتضح أن الكثير منهم متأثرون بمصالح شركاتهم. وقد عرض أحد المحللين الحالة الحقيقية، مما أدى إلى فصله فى العام الماضى لأنه حث عملاءه على بيع أسهم إنرون.

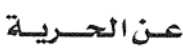
والسؤال الأساسى الذى يبرز من فضيحة إنرون هو إذا ما كان المطلوب من البيانات المحاسبية أن تعكس الظرف الاقتصادى الحقيقى للشركات أم لا. وفى كثير من الشركات، ومن بينها إنرون، كان هناك فى أفضل الأحوال تظاهر بذلك، وكثيراً ما لم يكن هناك وجود حتى لهذا التظاهر. وربما كان أفضل إصلاح شامل، كما يرى بارتنوى، هو إقرار تشريع لجعل الشركات وموظفيها ومديريها ملتزمين قانوناً، لكى لا يخالفوا الشرط العام الذى يقضى بأن يعكس الإعلان الواقع الاقتصادى للشركة.

ويبدو من المشكوك فيه أن يكون هناك قدر كاف من الضغط العام لإحداث مثل هذا التغيير. إذ يبدو أن أكثر القوى نفوذاً فى واشنطن وول ستريت تميل إلى تجاهل عيوب النظام المالى التى كشفها انهيار إنرون. ولم يتضح تماماً بعد ما الذى يقنع الكونجرس بتنفيذ المعايير الأخلاقية التى خانتها إنرون. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
March 14, 2002.

ترجمة : أحمد محمود





حرية الفكر

لو أن الناس جميعًا اجتمعوا على رأى واحد، وخالفهم فى ذلك فرد بعينه فى تأييد رأى مخالف، فليس هناك ما يبرر إسكات الناس لهذا الفرد، كما أنه ليس هناك ما يبرر قيام الفرد بإسكاتهم إذا أتيح له ذلك.

ولو كان الرأى ملكية خاصة ليس له قيمة إلا بالنسبة لصاحبه فقط، وإذا كان الضرر المترتب على حرمان شخص من إبداء رأيه ضررًا فرديًا، لكان الأمر مختلفًا بعض الشىء عما إذا كان هذا الضرر سيلحق بقدر ضئيل من الأشخاص أو بفريق كبير منهم.

ولكن الضرر الخاص الذى يترتب على كبت حرية التعبير عن الرأى هو سلب الجنس البشرى بأكمله من الأسلاف حتى الجيل الحاضر من تلك الحرية، سواء فى ذلك الذين ينشقون عن الرأى العام، أو الذين يلتزمون به.

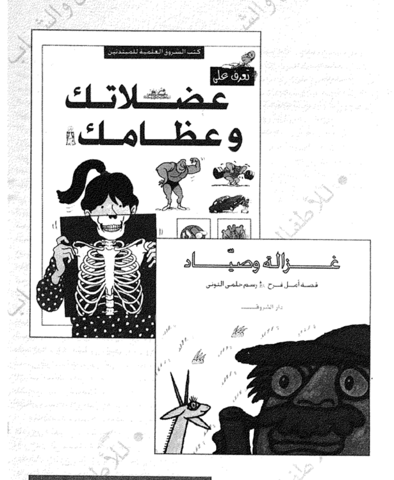
فقد يكون الرأى المراد كبته بالقوة رأيًا صحيحًا. وبالطبع سينكر صحته هؤلاء الناس الذين يرغبون فى إخماده، غير أنهم معرضون للخطأ أيضًا. وليس لهم السلطة التى تتيح لهم تحديد هذه المسألة بالنسبة للناس أجمعين، ومنع كل شخص آخر من إبداء حكمه فيها، فإذا رفضوا الاستماع لرأى ما لتأكدهم من أنه رأى زائف، فذلك بافتراض أن يقينهم هو يقين مطلق، وأن كل كبت لحرية المناقشة معناه افتراض عدم وقوعهم فى الخطأ.

وتكفينا هذه الحجة العامة دليلاً قاطعًا على خطأ القائلين بتقييد حرية الفكر والمناقشة.



للأطفال والشباب • للأطفال والشباب • للأطفال والشباب • للأطفال والشباب • للأطفال والشباب • للأطفال والشباب • للأطفال والش

دار الشروق تقدم كتبها الفائزة









أطلبها من

دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠

ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥ www.shorouk.com email: dar@shorouk.com









فى الرواية المصرية الجديدة

فاروق عبدالقادر

لفتت هذه الظاهرة اهتمام متابعى المشهد الأدبى فى مصر، فقد شهد العام الأخير (منذ منتصف ٢٠٠١ على وجه التقريب) صدور عدد كبير من الأعمال الروائية. أما أن يواصل الكتَّاب الذين رسخت أقدامهم وأسماؤهم - أيًا ما كان الرأى فى أعمالهم ومشروعاتهم - الإضافة لما قدموه، فليس هذا ما أثار الاهتمام (فى ذات الفترة صدرت أعمال جديدة لكلٍ من علاء الديب وجميل عطية وفؤاد قنديل وسعيد بكر ومصطفى نصر وهالة البدرى وفتحى إمبابى. وسواهم ممن يليهم)، لكن صدور أعمال كثيرة هى الأولى أو الثانية (وفى أحوال قليلة: الثالثة) لأصحابها، الذين تقع أعمارهم - على وجه التقريب، لصعوبة معرفة تواريخ الميلاد على وجه الدقة - بين الثلاثين والأربعين، فاقل القليل من لم يبلغ الثلاثين أو جاوز الأربعين، فهذا ما أثار الاهتمام، وطرح - على الفور - أسئلة مشتبكة: هل هى «موجة جديدة» فى الرواية المصرية؟ هل تمثل هذه الأعمال - سواء من حيث موضوعاتها أو أدواتها الفنية - تجاوزًا أو اختلافًا؟ بم تتميز هذه الأعمال على وجه العموم؟

واضح أننا لن نستطيع مقاربة الإجابة قبل أن نعرض للأعمال ذاتها[١].

هنا أود أن أقول إننى قد استبعدتُ عددًا من الأعمال رأيت أنها دون المناقشة الجادة. هذا من ناحية.

من الناحية الأخرى فإننى بذلت ما وسعنى من الجهد فى السعى لهذه الأعمال، وإذا كان قد فاتنى بعضها فإننى أعتذر لأصحابها، ليس هذا أمرًا مقصودًا لكن قدر الجهد. من ناحية أخيرة فإننى لم أقف عند بعض هذه الأعمال بسبب ما لقيت من حفاوة تختلف أسبابها باختلاف أصحابها، وعلاقاتهم، لكننى حاولت تقديم قراءة أقرب ما تكون إلى الموضوعية، قدر ما تطيق القدرة الإنسانية..« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى..».



ولنبدأ - على الفور - بواحدة من هذه الروايات التى حظيت باهتمام واضح هى «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسوانى (وهى روايته الأولى بعد مجموعتين من القصص القصيرة).

والقاهريون الأقحاح - لو صح هذا الوصف - يعرفون هذه العمارة التى تتوسط القاهرة، هى مكان الأحداث، منها يخرج الأبطال وإليها يعودون، والروائى يقدم تعريفًا بالمكان وتحولاته منذ فكر المليونير هاجوب يعقوبيان، عميد الجالية الأرمنية فى إنشائها فى ١٩٣٤، «وتعاقد لبنائها مع مكتب هندسى إيطالى شهير، فجاءت تحفة معمارية جاوزت كل توقع..»، وسكنها نفر من صفوة المجتمع فى ذلك الحين: وزراء وباشوات من كبار الإقطاعيين ورجال صناعة أجانب واثنان من مليونيرات اليهود، وفوق السطح الفسيح «بُنيت خمسون غرفة صغيرة، لا تتجاوز مساحة الواحدة مترين، وتُغلق باقفال تعطى مفاتيحها لأصحاب الشقق يستخدمونها فى أغراض مختلفة..

وفى عام ١٩٥٢ قامت الثورة فتغير كل شىء، بدأت هجرة اليهود والأجانب خارج مصر، وكانت كل شقة تخلو يستولى عليها أحد ضباط القوات المسلحة، أصحاب النفوذ فى ذلك العهد، حتى جاءت الستينيات فصارت نصف شقق العمارة يسكنها ضباط (..) ثم جاء الانفتاح فى السبعينيات، وبدأ الأثرياء فى الخروج من وسط البلد إلى «المهندسين» و«مدينة نصر»، باع بعضهم شقته فى عمارة يعقوبيان، وخصصها البعض الآخر كمكاتب أو عيادات لأبنائهم حديثى التخرج، أو قاموا بتأجيرها مفروشة للسياح العرب.. (..) وكانت أهم نتائج هذه التحولات انقطاع الصلة بين عالم الغرف الصغيرة فوق السطوح من ناحية، وأصحاب الشقق وساكنيها من الناحية الأخرى.

هكذا إذن، تعكس «عمارة يعقوبيان» وجهًا من وجوه «النُخَب» المصرية - لو صح الوصف - من ثلاثينيات القرن الماضى إلى نهاياته على وجه التقريب، وهى - زمن الكتابة - تقوم على وجود عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم أصحاب الشقق (والمحلات) من جانب، وسكان غرف السطح من «الهامشيين» أو «المهمشين» من الجانب الآخر. من الأول سوف نرى أبطالاً رئيسيين:

أولهم «زكى البسيونى»: سليل النخبة القديمة التى قوضت ١٩٥٢ عالمها، ومن ثم أحبطت توقعاته المأمولة فى السلطة والقوة، وهو الآن وحيد فى الخامسة والستين، فى حياته متعتان لا يزال قادرًا على ممارستهما، وهو يبدو خبيرًا متفرغًا بهما، ذواقة لهما: الشراب والجنس (لكن هذا لا يمنع أن تخدِّره عاهر وتسرقه!)، وفى حياته كذلك شوكة حادة لا يقوى على انتزاعها هى صراعه مع أخته الأرملة الشريرة (لم تفلح محاولة الروائى فى إكسابها أية ملامح إنسانية، ولم يكن ينقصها سوى أن «تركب المقشة» مثل أية ساحرة شريرة!)، ثم «حاتم رشيد»: الصحفى الكفء الذى يرأس تحرير صحيفة تصدر بالفرنسية فى القاهرة، ابن أستاذ القانون العظيم الذى كان عميدًا لكلية الحقوق من زوجة فرنسية، نشا فى رعاية الخدم فاغتصبه أحدهم وهو فى التاسعة، وبقيت هذه حقيقته الحقة:

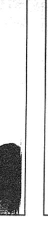
إنه سلبى فيما يجب على الرجال أن يكونوا إيجابيين فيه، وكثيرًا ما القى به شذوذه إلى إذلالات ومهانات شتى، لكنه استقر زمنًا مع عشيق له التقطه من بين جنود «الأمن المركزى» (يقول لنا الروائى إن هذه ممارسة مألوفة فى عالمهم)، وعلى يديه جاءت نهايته الدامية. أغلق الكاتب الدائرة وغسل يده: ما يبدأ بالشذوذ ينتهى للجريمة! ثالث الثلاثة هو «الحاج محمد عزام»: المليونير الكبير، صاحب محلات الملابس أسفل العمارة وشقة فى الطابق السابع منها، فيها أقامت زوجته السرية قبل أن تنقض الاتفاق وتصمم على الاحتفاظ بجنينها. أجهضها الحاج ونبذها بالقسوة اللائقة. من قاع القاع جاء: ماسحًا للأحذية فى مكان منزوٍ من ذات الشارع، اختفى عشرين عامًا ظهر بعدها ومعه الثروة. من أين؟ لا تَسَل، لكن تأكد أنه لن يكون طريقًا مشروعًا، بل أن يكون شريفًا. ذلك حال أثرياء هذا الزمان. ومادامت الثروة قد جاءته، فلم لا يسعى إلى السلطة؟ صحيح: لماذا لا يدخل مجلس الشعب؟ لو تحقق له هذا لعقد الصفقات بالملايين. سيكون الحاج سبيلنا لرؤية فساد رموز السلطة، من «كمال الخولى» المسؤول الخطير فى الحكومة و«الحزب القومى» إلى «الرجل الكبير» المحتجب فلا يراه أحد، لكنه يتقاضى نسبة الربع من أى توكيل يتجاوز عائده مئات الملايين!

من العالم الثانى، عالم السطوح، سوف نرى أهمهم: «طه الشاذلى» وحبيبة صباه «بثينة». طه كان ابن «عم الشاذلى» بواب العمارة، صبى ذكيٍ مجتهد متطلع، استطاع أن يحمى نفسه فشبَّ وهو يحمل الحد الأدنى من التشوهات العقلية والنفسية التى يخلقها وضعه المتدنى إزاء أصحاب الشقق وأبنائهم، نجح بمجموع كبير فى الثانوية العامة، لكن وضع أبيه حال بينه وتحقيق حلمه فى الالتحاق بكلية الشرطة (الطريق المختصر للقوة والسلطة)، وفى كلية «الاقتصاد» دفع به وضعه الطبقى نحو فقراء الجامعة، ومنهم - وهى خطوة منطقية ومعقولة - إلى الجماعات الدينية التى ارتبط بها حتى لقى مصرعه فى عملية اغتيال ضابط كبير من «أمن الدولة». «بثينة»: جارته فى السطوح وحبيبة الصبا، ما أن حصلت على «دبلوم التجارة» حتى حدث ما يحدث لكل الفقراء: مات الأب فجأة دون تعويض أو معاش، وكان عليها أن تدخل للغابة تلتمس العيش لها ولإخوتها، وسرعان ما تعلمت كيف تستثير الرجال، وكيف تترك لصاحب المحل الذى تعمل بائعة به أن يعبث بجسدها على أن يفى بالتزامين: أن يُبقى على عذريتها، وأن يدفع لها عشرة جنيهات فى كل





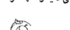








مرة، وكان طبيعيًا أن تفتر علاقتها بطه، ثم تذوى حتى لا يعود لها أثر.



هل يدهشك أن تنتهى الأحداث فى «عمارة يعقوبيان» بحفل زواج بثينة من زكى البسيونى فى «بار حكيم»؟ هل هى مكافأة يمنحها الروائى (المحب لفعل الخير!) لاثنين من أبطاله لقيا كثيرًا من العناء، أم أنها محاولة مرتبكة لوضع نهاية تلملم ما تبقى من خيوط؟ أيًا ما كان الجواب فوراءه ثقل الواقع الموضوعى الذى خنق علاقة الحب بين طه وبثينة. ولن يتسع المقام لمتابعة الشخوص الثانوية والعلاقات والأحداث الصغيرة التى تشكل النسيج الحى للعمل. أكتفى هنا، بملاحظتين حول أمرين يمكن أن يثيرا بعض الخلاف والجدل. الأولى هى أن الشخصية التى تمارس سلوكًا جنسيًا شاذًا - بالفعل أو بالإمكان - موجودة فى الرواية المصرية منذ «حليم الأكبر» لعادل كامل و«زقاق المدق» لنجيب محفوظ، إضافة لبعض الشخوص الأخرى فى «الثلاثية» و«المرايا» وسواها. أما التناول التفصيلى لحياة هذا الممارس ومشاعره وتفاصيل ممارساته، فموجود فى أعمال من الأدب العالمى المعاصر، عند جان جينيه وسارتر وتنيسى وليامز وسواهم. ولست أجد فى هذا التناول تزيدًا مادام يضيف إلى شخصية صاحبه، وتكوينه النفسى - الجنسى، والعوامل التى أدت به لأن يصبح على ما هو عليه. الملاحظة الثانية حول التناول التفصيلى والمسهب كذلك، لمختلف المراحل التى قطعها طه فى رحلته مع الجماعات الدينية، والروائى يتابعها من مرحلة لأخرى: من الاستهواء إلى التنظيم إلى هجرة «المجتمع الجاهلى» لمجتمعهم الخاص، حيث التدريبات القاسية، وحيث العمل على حل مشاكل الشباب الجنسية بتزويجهم من «الأخوات»، إلى الحشد العقلى والنفسى والعاطفى المتقن الذى يؤدى بالمخلصين منهم إلى تمنى الشهادة والموت فى سبيل الله. ولست أرى فى ذلك تزيدًا كذلك، فتلك النماذج موجودة فى مجتمعنا، وهى ليست قليلة ولا خاملة، ولا بأس بأن نراها فى تحولها التدريجى من الهم الخاص إلى العام، فهذا أدعى إلى تبين مواطن الخلل فى الواقع السياسى - الاجتماعى الذى يحرم طالبًا ذكيًا مجتهدًا من الالتحاق بالكلية التى يريدها، ثم يسجنه ويعذبه وينتهك رجولته بأكثر الأساليب غلظة ووحشية، فيخرج من سجنه قنبلة موقوتة، ساعية للانفجار والتفجير جميعًا.

من وسط القاهرة لأعماق الصعيد مع خالد إسماعيل وروايته «كحل حجر» والقرية التى يختارها الراوى يحددها تحديدًا: «كوم غريب، مركز طما، محافظة سوهاج». وهى ذات القرية التى تدور فيها، وحولها، روايته الأولى «عقد الحزون، الصادرة فى ١٩٩٩، ولما كانت صورة الحياة فى هذه القرية هى أثمن ما يقدمه خالد، ولما كانت هذه الصورة موجودة - على نحو أكثر كثافة - فى روايته الأولى، فلنا أن نستخلصها من العملين معًا. والحقيقة أن بينهما كثيرًا من الوشائج يمكننا أن نجملها فى أن الرواية الأولى تكاد أن تنحصر فى القرية وما حولها، حيث حصل الراوى على شهادته الجامعية ويلوب بحثًا عن عمل، وتنتهى بمجيئه إلى القاهرة ليعمل - هو الحاصل على الشهادة العليا - «نفرًا من الأنفار». الثانية تراوح بين حياة الراوى فى القاهرة، وما يحدث فى القرية حين يزورها أو يستعيد ما حدث له فيها.

وعلى نحوٍ ما يمكن القول إن يحيى حقى قدم ملامح من الحياة الصعيدية فى عشرينيات القرن الماضى (عمل فى مدينة «ملوى» عامين من ١٩٢٧ إلى ١٩٢٩، فى وظيفة «معاون إدارة» التى كانت تقتضيه التنقل بين القرى لأداء عديد من المهام، وتجد هذه الفترة تعبيرين عنها: فى كتاباته النثرية: «خليها على الله» بوجه خاص، وفى قصصه «الصعيديات» فى مجموعتيه «دماء وطنى» و«أم العواجز» بشكل خاص كذلك)، ثم جاء يحيى الطاهر عبد الله ليقدم ملامح أخرى عن صعيد الخمسينيات والستينيات (بدأ كتابة القصة فى ١٩٦١، وقدم من الصعيد إلى القاهرة فى ١٩٦٤، وصدرت مجموعته الأولى فى ١٩٧٠)، وها هو خالد إسماعيل يقدم ملامح من صعيد التسعينيات (خالد من مواليد ١٩٦٨). فما الجديد والمختلف؟

رأى يحيى حقى الصعيد بعينىْ الموظف، ابن العاصمة، لكنه محب متفهم متعاطف، يرى كل شىء فلا يقنع إلا إن وصل لأعماقه، ونظرته الرحبة تضم الطبيعة والإنسان والحيوان فى كلٍ واحد، ولعل أوضح ما فى هذه «الصعيديات» اهتمام الكاتب بوصف قوة الدافع الجنسى وتوثبه للانطلاق وتحقيق الارتواء، رغم ما يتبع هذا الارتواء من دمار: جسدى ونفسى واجتماعى كذلك هذا من ناحية. من الناحية الأخرى ثمة خيوط غير مرئية تحرك مصائر البشر، تتحكم فى حركتها تقاليد راسخة كالقدر (إن هذا ما يحدث فى أهم تلك الصعيديات: «أبو فودة» و«الراعى والغجرية» و«البوسطجى» و«حكاية فى سجن»).

يحيى الطاهر كان مختلفًا. هو ابن هذه الأرض وليس وافدًا إليها من أى مكان آخر. فى أعماله الأولى قدم صورة لحياة الناس فى قرى الصعيد ومدنه الصغيرة: أسرى يضطربون فى واقع قاس (ما أشد حرارة الشمس ووهجها فى قصصه!)، تحكمه علاقات حديدية صارمة، محددة سلفًا، تنتظم طقوس الحياة اليومية حتى أدق تفاصيلها، لون من الثقافة - بالمعنى الأنثروبولوجى للكلمة - فى مجتمع محاصر، مغلق مثل انغلاق «الطوق والأسورة»، السيادة فيه معقودة للرجل، ولكبار السن منزلة خاصة، والنساء حارسات لهذه السيادة، لا يهم حضور الرجل، الفيزيقى، أو غيابه (بالرحيل أو بالموت) لأنه حاضر دائمًا، فهو «الأب الرمزى» كما يعرفه المشتغلون بالتحليل النفسى، لذا حين يُقتل الأب يصبح الثأر ضرورة لا محيد عنها كى تتواصل الحياة. فى هذا المجتمع المغلق، صارم الحدود والملامح، تصبح الأسرة هى البنية الأساسية التى تنظم العلاقات وتحدد الأدوار، هنا فإن علاقة الأخت بالأخ أوضح العلاقات: الأخت تشتهى أخاها تشتهى الأنثى للذكر، والأم موجودة، ساهرة - بروح الرجل - على حراسة التقاليد التى وضعوها حاضرين وغائبين. إنه عالم يصطخب بشهوات محاصرة، متوثبة للتحقق، لكن الواقع يعوق تحققها، ويضع لها العقاب الصارم: الدمار أو إيقاع الأذى بالجسد موضع الرغبة. ثم هو عالم تلعب فيه الأسطورة دورًا مهمًا كجزء من الموروث فى المجتمع المغلق، من جانب، ومعادل إنسانى لهذا الواقع، من الجانب الآخر.

واقع الصعيد الذى يقدمه خالد إسماعيل فى روايتيه مختلف من وجوه عدة. والحقيقة أننا نجده عنده «واقعين» لا واحدًا: واقعًا يتمثل فى حكايات «الكبار»: الأب والأعمام والأجداد، من ناحية، والثانى ما يعيشه الراوى («يحيى» فى الأولى و«إبراهيم» فى الثانية) بنفسه، وينتهى فى الأولى بقدومه إلى القاهرة، واحدًا من «الأنفار» رغم شهادته الجامعية، فى حين تتابع الثانية محاولاته للعمل بالتدريس، ثم الصحافة، والبحث لنفسه عن موطئ قدم فى المدينة الكبيرة، وتتجسد محاولاته - أكثر ما تتجسد - فى السعى لإقامة علاقة تنتهى بالزواج، يُخفق فى ثلاث منها، ويخايله الأمل فى الرابعة.



أحد وجوه الاختلاف يتمثل فى تفكك الأطر التقليدية الراسخة للعائلة، فنحن نجد الأجداد - الأشقاء (عبد الله وعبد الحى وعبد الخالق) يتلاحون ويتخاصمون، وينذر أحدهم أن يقاطع أباه حتى لا يمشى فى جنازته أو يتقبل العزاء فيه، وقد أوفى نذره، والأخ «محمود» يرفض استضافة أخيه - راوى «عقد الحزون» - فيقطع هذا الأخ كل علاقة له بأخيه الوحيد، بل يبلغ هذا الأمر أقصاه: يبصق الابن على أبيه «الخال عبد الستار» ويشهر فى وجهه المطواة!

ملمح ثان هو ظهور «الجماعات الدينية» فى قرى الصعيد ونجوعه، فى «عقد الحزون» يتابع الراوى ظهورهم، واستيلاءهم على جانب من «جرن» القرية أقاموا فيه «زاوية» لهم، وكان على رأسهم اثنان لا يخلو مسلكهما من الشبهات، بل إن بينهم علاقة لواط تعرفها القرية كلها.. «وكل يوم يخطب «عنتر» خطبة بعد العصر، والناس مندهشون من حكمة المولى الذى يمنح العاصى الهداية حتى لو بلغت ذنوبه عنان السماء..»، لكن الرواية لهم بالمرصاد، وكذلك أهل القرية، ليس مهمًا أن نتتبع ممارساتهم. وكبيرهم يتزوج امرأة «منقبة» من طما، أو وهم يبيعون الكراسات والكتب الدينية والأدوية المستخلصة من الأعشاب والتى تداوى كل الأمراض، لكن المهم أن نلقى بالاً إلى ممارساتهم مع الأقباط، وقد فضل كثيرون منهم هجرة القرية.. «اختاروا الحياة بعيدًا عن النجع بعد قيام «الشيخ عبيد» وشبان «إصلاح المنكر» بالاعتداء على القسيس «شاكر».. ضربوه وخلعوا ثيابه وألبسوه جلبابًا عاديًا ثم حملوه إلى «الزاوية».. وأجبروه على أن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» ثم أطلقوا سراحه فى الليل.. (..) بعد هذه الحادثة تكررت شكاوى النصارى من سرقة بهائمهم المربوطة فى غيطانهم.. (..) وأُغلقت أبواب بيوت النصارى ثم فوجئنا بأن العمدة و«الشيخ عبيد» و«عنتر» قد اشتروا هذه البيوت، واستقرت الأحوال على أن شبان «إصلاح المنكر» هم «أهل الشريعة» يطبقونها على من يرون أنه مخالف للدين..»، ويعدد الروائى بعض ممارساتهم تلك، ويترك لك جواب السؤال: هل هم حقًا، «يصلحون المنكر» أم هم يشعلون النار ويفسدون كل شىء؟

ملمح مهم ثالث يتبدى فى الاختلاف المتعلق بشيوع الممارسات الجنسية أو المتصلة بها. وإذا كانت «البنت نوال» - فى قصة يحيى الطاهر الجميلة «جبل الشاى الأخضر» - قد لقيت عقابًا صارمًا أدمى جسدها الصغير لأنها كانت تجد المتعة فى أن تحك فخذيها ببطن الجاموسة وهى راقدة على ظهرها، فإن البنات والصبيان أصبحوا يمارسون ألعابهم الجنسية وأشكال عبثهم الصغيرة هنا أو هناك فى غيبة الكبار. إن «خالد إسماعيل» أكثر صراحة ووضوحًا من سلفيه وهو يزيح الأستار عن الممارسات واللقاءات الجنسية المتخفية وراء واجهات الظاهر. فى روايتيه كلتيهما سوف نجد «عايدة» و«فايزة أم كحكة» و«وديدة»، كلهن يقحبن، ونجد أخريات واقفات على الحد الفاصل بين التعهر الخفى والمعلن، ولعل لهن جميعًا أصولاً عند «نرجس» فى قصة يحيى حقى ذات الجمال







الخشن «أبو فودة». يقول عنها أنها كانت تخون زوجها يوم السوق من كل أسبوع، وتتردد على الموظفين العزاب بانتظام.. «وتضع الثوب الذى يروقها فى قعر قُفتها، تحت البيض وربطة الكتاكيت..». الفرق بين «نرجس» وكل هاته النسوة أن الأولى كانت «بحراوية» وافدة، أما هن جميعًا فمن قلب النجع وأهله، وليس هذا بالفرق الهين!

وقارئ يحيى الطاهر يعرف أن أعماله كلها تنتظم فى منظومتين كبيرتين: الأولى عن حياة الناس فى قريته «الكرنك القديم»، والثانية عن «الرجل الصغير» وضياعه فى المدينة، كذلك أمر خالد إسماعيل، ففى أعماله (وأعنى هنا مجموعتيه القصصيتين أيضًا) المنظومتان، وإننى أعتقد أن ما قدمه عن قريته هو الأفضل والأبقى، ولعل فى «كوم غريب» الكثير الذى لم يقله بعد.

لنواصل تصعيدنا فى مصر العليا إلى الجنوب من «كوم غريب» تقع قرية «الحاجر». أغلب الظن أنها على حدود أسوان، قريبة من مصنع السكر والمعبد على ضفاف النيل. هذه القرية هى موضوع رواية أسماء هاشم (الأولى): «المؤشر عند نقطة الصفر». أهمية هذا العمل، عندى، تتمثل فى وجهين: الأول أنه يكشف تكوّن وعى فتاة من أعماق الصعيد، حصلت على قدر بسيط من التعليم ثم خرجت للعمل فى «بازار»، تخالط السائحين، وتقيم معهم علاقات هشة وعابرة، وتغريهم بشراء الأشياء ذات الطابع «السياحى» التى تمتلئ بها هذه «البازارات». بعد انتهاء عملها تعود لتعبر النهر إلى الغرب، ثم تهبط الطريق المغبَّر إلى حيث تقيم «العائلة الممتدة». تلك العائلة، ومن حولها «الحاجر» كلها، هى التى تمثل تمامًا المجتمع المغلق، انغلاق «الطوق والأسورة». ولعل أمارات هذا الانغلاق هى التى تجمع الحكايات المتعددة فى الرواية: حكاية «العمة عائشة»: كانت فتاة جميلة، وكانت «عايقة» كذلك، تهتم بنظافة جسمها وثوبها، وتولع «بالحناء» بوجه خاص.. «يداك لا تخلوان من الحنة، تجلسين أمام باب غرفتك، ترسمين بالحنة قلوبًا وزهورًا وسنابل وتيجان»، هى متأهبة دائمًا لاستقبال الرجل، لكنه لا يأتى! مرة واحدة جاء، لكنه كان غريبًا عن «الحاجر» وليس من أبنائها، فهَوت الأم على الحلم بضربة واحدة، وبقيت العمة عانسًا يدب الذبول إلى روحها والتجاعيد الصغيرة إلى وجهها، تقضى الوقت فى المناكدة والمشاكسة وممارسة طقوس جلب الرجل بشتى الطقوس وحمل الأحجبة والتمائم، وهو لا يأتى. وثمة أيضًا حكاية «زينب»: ابنة عم الراوية وزوجة أخيها، تقول عنها: «تزَوجت أخى» وأنجبا بنتين ذواتى رؤوس ضخمة وأطراف نحيلة لا تقوى على حملهن فيسقطن بعد خطوة أو اثنتين، يستنجدن بالقادم، ويهززن أذرعهن كطيور مكسورة.. (..) الأطباء يقولون إنه تراكم جينات وراثية مرضية نتيجة زواج الأقارب؟ وجدتى لا يعجبها الكلام.. وتقول إن جدى ابن عمها وأنجبت منه الكثير..»، ثم حكاية القريبة التى جاء بها أبوها وعهد بها إلى الجد لأنه لم يجد لها زوجًا ينتمى إلى القبيلة، ولم يجد الجد حلاً سوى أن يعرضها على ابنيه ليتزوجها أحدهما، فتزوجها العم لتشتعل نار جديدة فى البيت الكبير. وهناك، أخيرًا، حكاية الراوية نفسها «سمية»: لقد نجحت فى أن تحقق نوعًا من التوافق مع هذا المجتمع المغلق، أعانها وعيها بحدوده على أن تتواءم معه، وأن تتعاطف مع ضحاياه: تُصغى للعمة وتلاطفها وتتفهم دوافع سلوكها النكد المشاكس، وتأتى لزوجة أخيها - سرًا - بأقراص منع الحمل، وتقول لنفسها، ولنا: «على مدار تشكُّل الوعى كانت تتكشف لى تجارب عديدة عن كائنات مقهورة، مفردات فى كيان منظوم لا يمكنها أن تعيش خارج سياقه، خوف حقيقى بدأ يتضخم مع استطالة قامتى.. يحيلنى إلى شىء ضمن أشياء عديدة تكوّن منظومة مجتمع تحركه أعراف خاصة وتعاليم صارمة، ينمو داخل نفسه..».

لكن هذا كله لم ينقذها. كان لا بد أن تصطدم بمنظومة هذه الأعراف الصارمة: خفق قلبها لشاب يعمل مرشدًا سياحيًا فى الفندق المجاور، كانا يلتقيان كل صباح، يعبران عن عواطفهما بالاهتمام الصادق والكلمات المواربة. مرة واحدة - بعد أن لاحت نذر النهاية - كادت الرغبة فى البوح أن تغلبهما: «كانت يدك مرتجفة وكذلك يدى.. حدَّقت فى عينىَّ فرأيتُ الحزن واليأس فى عينيك، وأنت رأيتَ الوَهَن فى عينىَّ. كان كل منا يلوذ بالآخر، غير أننا لم نفعل إلا تبادل ضغطات خفيفة مواسية..». أما لماذا جاءت النهاية فلسبب واضح وصارم: إنه ليس من القبيلة، لكنه من «مدينة الغرباء».

وهذا يؤدى بنا إلى الوجه الثانى من وجوه أهمية هذا العمل، والذى يتمثل فى نجاح الكاتبة فى تصوير الحدود القائمة بين الجماعات الداخلية الثلاث التى تشكّل وجه الحياة فى هذه البقعة - وسواها - من صعيد مصر. تقول الراوية فى نجواها لصاحبها: «كنت أتمنى أن أقول له إن النيل كان يفيض ويغمر بمائه وطميه مساحات شاسعة، فتخرج من تحت طميه الزروع، وتنهض جدران المعابد والمنازل ووجوه بشرٍ يحملون سمرة طميه المتدرجة. كفَّ الآن عن الفيضان وانزوى فى مجرى ضيق.. تاركًا فى الشرق مساحة شاسعة أكسبها المعبد الفرعونى أهمية خاصة، فتشاجر عليها الثلاثة، كلٌّ يرى أنه الأحق بها: القبائل القديمة التى تعيش منذ القدم على حافة النيل الشرقية والغربية أيضًا. النوبة المهجرة مستندة إلى تاريخ قديم فى إقامتها على حافته، محاولة استثمار تضحيتها الإجبارية لتوفير مكان مماثل. أما الفئة الثالثة: الوافدون الذين عمَّروا المدينة، ألا يعطيهم هذا الحق فى الزحف ليحتلوا حافة النيل؟ كنت أتمنى أن أقول له إننا، نحن الثلاثة، نتحاور ونتحاور، حوارات قصيرة مبتورة، لكننا لا نمتد خارجنا.. نتحرك إلى دواخلنا فقط».

إنما لهذا تنتهى قصة الحب التى لم تكد تبدأ. لكن الرواية - حين تجنبت تحقيق انتصار زائف لا تسمح به معطيات الواقع الموضوعى، أشارت إلى أمل أن يصبح المستقبل مختلفًا عن الماضى والحاضر: الاعتراف بما يمثله هذا الانغلاق، متمثلاً فى زواج الأقارب، فتسافر «زينب» تلتمس العلاج لطفلتيها فى القاهرة. هذا من جانب. من الجانب الآخر فإن السجلات التى يحتفظ بها الجد فى «قدس أقداسه»، والتى تحوى أسماء أفراد القبيلة وأنسابهم، قد تعرضت للاهتراء والبلى، وترى الراوية فى هذا بصيص أمل قد يفتح نافذة صغيرة يدخل منها صاحبها وسواه.

تلك رواية أسماء هاشم: لا تخلو من إسهاب هنا وإطناب هناك، ولا تخلو من تعثر فى التعبير عما تريد الراوية أن تقول، لكن ما أزعجنى حقًا، حتى هممت - أكثر من مرة - بالتوقف عن القراءة، هو الأخطاء اللغوية الفادحة التى لا تخلو منها صفحة واحدة. مازلت غير قادر على التسامح مع مثل تلك الأخطاء: كيف لكاتب أن يكتب «نصًا أدبيًا» وهو لا يعرف لغته، أى لا يعرف أدواته الحقيقية فى التعبير؟

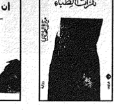
تلك رواية أسماء هاشم: لا تخلو من إسهاب هنا وإطناب هناك، ولا تخلو من تعثر فى التعبير عما تريد الراوية أن تقول، لكن ما أزعجنى حقًا، حتى هممت. أكثر من مرة. بالتوقف عن القراءة، هو الأخطاء اللغوية الفادحة التى لا تخلو منها صفحة واحدة



بعيدًا عن الوادى كله تأخذنا ميرال الطحاوى، إلى صحاريه الشرقية والغربية، خاصة الأولى منهما، فى «نقرات الظباء». هو عملها الثالث بعد «الخباء، ١٩٩٦» و«الباذنجانة الزرقاء، ١٩٩٨». وتثبت الكاتبة فى نهاية عملها الأخير أن «الخباء» أعيدت طباعتها ثلاث مرات، وأنه تم اختيارها «كأفضل عمل روائى عام ١٩٩٦، وترجمتها الجامعة الأمريكية فى القاهرة إلى الإنجليزية» كما صدرت فى لغات أخرى، كما تذكر أن روايتها الثانية «فازت بجائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام ٢٠٠٠» كما ترجمت إلى لغات متعددة.

لا عليك من هذا كله، فنحن نعرف أنه لا يدل - بالضرورة - على جدارة الأعمال موضوع «الجوائز» المختلفة، وأن عديدًا من الأسباب قد تكون وراءها، وعلينا أن ننظر للأعمال ذاتها، بمنأى عن تلك الهالات. والحقيقة أن «الخباء» كانت - عند صدورها فى ١٩٩٦، بعد مجموعة من القصص القصيرة - مفاجأة منعشة: عمل صلب متماسك، تستعيد فيه الراوية - فاطمة - عالمًا قديمًا، بل هى تستصفيه من قبضة العدم، ذلك أنه يتراجع تحت خطى النور أو التقدم أو «الحضارة» كما تقول الراوية ذاتها، وهى تقدم أدلتها على تقوض قواعده. إنه عالم البدو، بدو الصحراء الشرقية القريبة من القرى على وجه التحديد. وهى تستحضره بقوة الفن فتبعث الحياة فى طقوسه وممارساته وعاداته وتقاليده وأمثاله و«مجاريده» أو قصائده فى الفرح والحزن. عالم تبدو فيه السيادة للرجل، لكن السيادة الحقيقية هى للأم - الجدة - المؤسسة. صحيح أن الأب هو محور الحياة فى عالمَ فاطمة، لكن الكلمة الأخيرة هى للجدة «حاكمة» - لاحظ دلالة الاسم. هى حارسة التقاليد، القيِّمة عليها، فى حضور الرجل أو غيابه، أهم هذه التقاليد التى تحرص الجدة على التزامها، وتلزم الآخرين بالتزامها، هو ما يتعلق بالمرأة ومكانتها المتدنية. والبيت الذى تعيش فيه الراوية نموذجى لتجليات هذا التدنى، بيت كله من النساء: الأم مريضة ملازمة حجرتها فى بكاء دائم، لا يعيش ممن تنجب سوى الإناث، وثمة أربع منهن، إضافة للأم البديلة والخادمات المقيمات والعابرات. أما الرجل - الذكر - الأب فهو يشرِّق ويغرِّب، يغيب مع قوافله كثيرًا ويحضر قليلاً.. «وحتى حين يأتى فلن تكف (الجدة) عن فرك الدخان، وستلمع عيونها الضيقة الصغيرة بمكر وهى تسأله عن رحلته ومرعاه، يجلس بين يديها ضئيلاً، كأننى لم أر صدره الملىء بالعظمة قبل ذلك، وكأنى لم أره يمشى والكل يركض من رهبته..». وما أكثر الأمثال - التى تمثل ضوابط للسلوك الاجتماعى - التى تطلقها الجدة ضد الإناث، وهى أولهن كما تقول. خذ بعضها: «قيِّدها بقيد حديد، وارميها فى بيت سعيد..»، «اقبرهن قبل أن يقبرن سيرتك وفضائلك..»،











«إن ما هابت السكك، تشرد النعجة..». وها هى الجدة تدلى بأقوالها المأثورة عن البنات: «جلبة شوم، قنايتهم حرام، بضاعة تربيها لغيرك، إن تركتها بارت، وإن بعتها عليك الخسارة.. يكفينا الله شر بلاياهم..»، ثم تقول متباهية بحظها الحسن: «والله ما عاشت لى بنت.. (..) مسافة ما البنية توأوأ يأتيها ستَّار الصبايا.. يحمل ويشيل..». (أليس هذا من صميم «ثقافة البدو» لو صح التعبير؟ أليس استمرارًا لتقاليد «الوأد» الشهيرة؟ أليس ترجمة دقيقة للقول البدوى المأثور: نِعْمَ الصهر القبر؟). وليست المسألة أقوالاً فقط، لكنها محددات للسلوك: توافق الجدة على أن تتزوج الفتاتان الكبيرتان من أب وابنه، وبعد اشتداد المرض على الأم، ثم موتها تأتى الأخت الكبرى «صافية» لترعى أختيها، وتظل سنة كاملة لا تعود لبيتها وزوجها الذى تبدو نافرة منه، وحين يأتى هذا ليطلبها تكون كلمات الجدة لها: «يا خلفة السوء، ماذا يقول فينا العربان؟ (..) والله إن ما جمعت خلقاتك وأطعت سيدك ورجلك لأذبحك كيف الذبيحة وأعلقك فى وتد بيته.. ياعاصية.. يا ملعونة..»، ومن عجب أن تدور دورة الأيام، وتموت الجدة، فتشغل «صافية» مكانها على الفور، ويقدم لها موروثها المنطق: «القافلة لا يسيرها إلا الحداء..»، لكن خطو الأيام تحمل مزيدًا من نذر تقوض هذا العالم، من هذه النذر أن الأختين الصغيرتين، من أم أخرى أصبحتا «تُجُران الأوراق، وتمتطيان الدواب، ويسرح بهما الغفر للمدرسة البعيدة..»، وتقول أمهما للراوية مقفلة هذا القوس كله: «آه يا فاطم لو جدتك «حاكمة» رأت ذلك، كانت سفحت دمهما على البوابة.. الزمن رياحه عاتية..».

وإذا كان كل ما فات من تحقير توجهه الجدة لحفيداتها، فإن نصيب «بنات الفلاحين» اللائى يأتين للعمل عندهم أكثر قسوة وبذاءة، فهى تنهرهن وهن يغنين أثناء عملهن فى تجهيز القطن.. «تخرج إليهن بمشيتها العنيفة وجسدها المتخشب: «إخرسى.. إخرسى ياخليعة..» تركلهن بما تطوله يداها: «اخرجن يا بغايا يا قليلات الحياء.. فلاحات مفضوحات بلا ستر.. بغايا..»، ويقينها الذى لا يتزعزع أبدًا أن «الفلاحين أنجاس.. يسرقون كحل عينك..»، والحقيقة أن موقف أولئك البدو من الفلاحين وسواهم يقف على حدود العنصرية وفكرة نقاء الدم. هذا هو الأب يدلِّل ابنته الراوية: «هل تحبين أن تصبحى مثل أميرات الترك؟ تجرين ذيل ثوبك وينحنى الناس للأميرة فاطم الجميلة؟ وسوف يأتى ولىُّ النِّعم نفسه ليخطبك «أطرده مثل كلب.. «فاطم» بنت الأكارم تتزوج من جركسى؟ إنها مهرة عدنانية أصيلة.. اذهب يا تركى يا أحمر..». أليس هذا ما يعنيه أعراب الصعيد حين يقول مثلهم السائر: ياخدها التمساح ولا ياخدها الفلاح؟

إن تلك الجوانب من «ثقافة البدو» ـ لو صح التعبير مرة أخرى ـ هى أكثر ما لفت نظر قارئى «الخباء» ومن كتبوا عنها. بقيت نقطتان جديرتان بالإشارة: الأولى هى «المدام» أو «الخواجاية» أو «آن»: أجنبية تتردد على أخبيتهم، وتدرس كل شىء عنهم، وتقول الراوية إنها «تقتنى كل شىء» من طير وحيوان ونبات وزواحف، تأخذ الراوية معها كى تداوى ساقها المهيضة (وينتهى الأمر إلى بترها!)، وتعلِّمها اللغات و«الحضارة» كما تقول، وينتهى الأمر بالراوية كذلك أن تقول عن نفسها: «فاطم انشطرت نصفين: نصفًا يرطن، ونصفًا يهنهن بالمجاريد..». ولأن هذه الخواجاية» (وهى شخصية تجد أصولها عند فتحى غانم فى «الجبل، ١٩٥٧» على سبيل المثال) تكتشف أن فاطمة حكاءة متفننة فهى تقدمها لضيوفها كى تحكى لهم. النقطة الثانية هنا هى ما تحكيه: حكاية موازية متخيلة يبدعها خيال فاطمة عن «مسلِّم» وامرأته «سقيمة» وابنتهما «زهوة»، وهى حكاية كثيرة التفاصيل، تصدر عن التراث الأسطورى، وتعبِّر عن أشواق الراوية وأحلامها.

ولعل هذا كله وراء ما لقيت «الخباء» من اهتمام.



هذا العالم الخاص والمتفرد هَجَرته الكاتبة فى عملها التالى لتعود إليه فى هذا العمل الأخير، ولضيق المجال سنرجئ مناقشة «الباذنجانة الزرقاء» ـ هنا والآن ـ لنرى كيف استعادت عالمها القديم. وفى إيجاز يمكن القول إن «نقرات الظباء» هى رواية تمام تقوض هذا العالم وانهيار قواعده. تحالفت عوامل عديدة لتقويضه: بعد ١٩٥٢ استولى النظام الجديد على «إقطاع البدوان» وقُسمت الأرض بين الفلاحين، وراح الأب يبيع لأولئك الفلاحين أنفسهم (والذين ظلوا دائمًا موضع الزراية والاحتقار) ما تبقى له من أرض حتى تظل «المضيفة» عامرة.. «لإيقاد النار بعد النار والقهوة بعد القهوة وذبح شياه جديدة..»، ويدور الحديث دائمًا حول موضوعات ثلاثة لا رابع لها: الأسلاف أو الأجداد وما كانوا عليه من عزٍّ ومنعة (اقرأ: استبداد وتسلط)، والخيول: أنواعها وخصائصها، ثم الصقور أو الجوارح بشكل عام: طباع كلٍّ منها ومزاياه وعيوبه (أكثر من مرة فى العمل قد تحس بأن المعلومات المتعلقة بالخيول والجوارح تجاوزت حدود توظيفها فى العمل، وأصبحت مقصودة لذاتها وغرابتها!). الأب هو ما يتجسد من خلاله تقوض هذا العالم (ولعله ينتهى بموته)، ظل يعيش حكايات الأسلاف والخيل والصيد، والعالم يتغير من حوله وهو لا يبالى أكثر من مرة شهد بنفسه أمارات هذا التقوض: حين ضاق به الحال كتب رسالة إلى الأمير «فيصل آل سعود» يذكره بالعلاقات بين القبائل، ومعاهدة التحالف بين الأسلاف، ولم يتلق ردًا بطبيعة الحال، فقنع بأن يعمل فى خدمة أولئك الذين مازالت خبراته بالخيول والصقور تعنى شيئًا ذا قيمة عندهم: السعوديين و«الكوايتة» ومن إليهم، وانتقاه واحد منهم صحبه إلى رحلات صيد فى جبال الألب وجبال أوزبكستان وسواها ليرى كيف أصبح الصيد «معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاسلكى والبنادق الآلية ويحددون مواقعها بالرادار.. (..) بعد أن عاد من تلك السفرة الطويلة علَّق على بابه لافتة باسم «الشيخ مطلق الشافعى السليمى، خبير خيول وصقور..». إنه مصمم على الحياة فى العالم الذى يشهد انسحابه إلى العدم، وهو لا ينسى ـ فى رقدته الأخيرة ـ ما فعله الأمير بجوارحه، حين أمر بإطلاقها جميعًا، ثم صادها بالشراك الفجر التالى كى يثبت لهم أنه «حتى الطير الحر يمكن أن تعقفه من طعمته..»!



إذا كانت تلك هى «الحياة العامة» للأب، لو صح التعبير، فإن حياته الخاصة يلفها غموض والتباس مقصودان. وقد تقرأ العمل أكثر من مرة وتبقى معك الأسئلة: «مهرة» راوية العمل، من أمها؟ إذا صبرت على فك الخيوط المشتبكة، وحلَلت نقاط الغموض والالتباس التى أشرتُ لأن الكاتبة تصطنعها اصطناعًا كى تضفى على عملها لونًا من الكثافة، وتبتعد به عن البوح والوضوح، فقد تقول إنها ابنة «هند» التى أحاطتها المأساة. تلك المأساة أيضًا عليك أن تلملم خيوطها من هنا وهناك، وقد تقول إنها أخطأت مع ذلك الرسام الأجنبى الذى أقام زمنًا بينهم، ورسم لهم تلك اللوحة التى يتوارثونها، وقد رسم «هندًا» وهى عارية. تزوجها الأب وبعد أن وضعت طفلتها سُجنت حتى الموت.

تزوج بعدها «سهلة»، ابنة العم الآخر، ولا يعرف أحد حقيقة العلاقة القائمة بين الزوجين، لكنها تبدو لنا تعاليًا من جانب الزوجة، واستخذاءً من جانب الزوج، و«النجدية»: الأم ـ الجدة ـ المؤسسة، مكافئة «حاكمة» فى «الخباء»، وإن كانت أقل تسلطًا، ربما لأنها «حضرية» بنت مدينة، لا تعرف إن كانت ابنتها «سهلة» ما تزال عذراء أم دخل بها زوجها. وكأنما لا يكفى كل هذا الغموض والارتباك، فتجعل فى حياته امرأة غريبة تعلق بها تعلقًا جنسيًا منذ كان مراهقًا. والآن قل لى أنت: هل يتسق هذا وكون الأب «تلقى تعليمه فى «فيكتوريا كولدج»، وكاد أن يناله ليسانس الأدب الإنجليزى.. (..) ومع ذلك، كان يتحدث (الإنجليزية) بطلاقة ويحفظ أشعار جوته، وهو الذى درَّس لى روايات شكسبير بإنجليزية متميزة وصوت متزن ممسرح..». هذه الصدوع فى بناء الشخصية الرئيسة هى أوضح وجوه الضعف فى «نقرات الظباء». شاءت الكاتبة أن تحشد فيها كل شىء فضاقت حتى تفتتت بما فيها. وينتهى العمل كله بدليل القوافل القديم (وهو إحدى شخصيات «الخباء»)، وقد طعن فى العمر، وأصابه الخَرَف حتى أصبح يهرف بما لا يعرف، كأنه قارئ يرتِّل على قبرٍ دُفن فيه العالم القديم!



ورغم أننى لا أود أن أعيد كتابة ما سبقت كتابته إلا أننى أعتقد أن المشهد سيبقى ناقصًا دون إشارة ـ وإن تكن موجزة ـ إلى نجوى شعبان وروايتها «نوة الكرم» (راجع، من فضلك: «بعض ما قال الترجمان، مجلة «المصور»، ١٨/١/٢٠٠٢). هى روايتها الثانية بعد «الغُر ٢٠٠٠»، وهى، مثلها، تقع أحداثها فى مدينة الكاتبة وإطارها المرجعى: دمياط، لكنها، هنا فى «النوة» دمياط حين كانت ثغر مصر، ميناءها الذى يلتقى عنده النهر والبحر، إليه تأتى السفن من كل مكان، ومنه تخرج إلى كل مكان، على أرضها يلتقى القراصنة والقباطنة والبحارة والصيادون، يأتون من الشمال والشرق، يبقى منهم من يبقى ويرحل من يرحل، وعلى أرضها كذلك ـ وكما كانت مصر دائمًا ـ يتعايش المسلمون والأقباط.

والفترة التى اختارتها الكاتبة من التاريخ محددة تحديدًا دقيقًا: وُلد التوأمان «غياث الدين» و«ليث الدين» فى اليوم الأول من العام الأول من القرن السادس عشر، وقبل أن ينقضى عشرون عامًا كان العثمانيون قد دخلوا «مصر المحروسة» و«أعملوا السيف فى رقاب أهلها»، وحمل «سليم» زبدة فنانيها وصُناعها وأسطواتها إلى بلاده. فرَّ «الخزَّاف» (اقرأ: الفنان) من هذا المصير، خرج من «المحروسة» يضرب فى أرض مصر، واستقر زمنًا فى دمياط حيث ارتبط بالفتاة الشبقة المنطلقة «سنانية»: الأخت الصغرى للتوأمين وأختهما الكبرى «ليل». كذلك فرَّ «المفزوع»، وكان واحدًا من «الزعران» فى المحروسة، وظل مختبئًا أربعين عامًا قبل أن يخرج إلى العالم فى ١٥٥٧. ولأن دمياط مفتوحة على العالم كله. فقد ارتبط مصير هذه الأسرة

فى «نقرات الظباء». شاءت الكاتبة أن تحشد فيها كل شىء فضاقت حتى تفتتت بما فيها. وينتهى العمل كله بدليل القوافل القديم (وهو إحدى شخصيات «الخباء»)، وقد طعن فى العمر، وأصابه الخَرَف حتى أصبح يهرف بما لا يعرف، كأنه قارئ يرتل على قبرٍ دُفن فيه العالم القديم

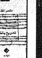


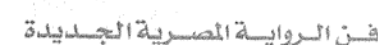








الدمياطية العريقة بالبحر: على ظهور السفن قضى التوأمان معظم سنّى حياتيهما: أصبح «الريس ليث» قرصانًا شهيرًا يجوب البحر غاريًا حتى أصبح «القرصان الرسمى للسلطنة العثمانية»!، أما «غياث» - الذى يفتقد جسارة توأمه فقد عمل سنوات طويلة وكيلاً لأحد التجار فى مارسيليا. حتى «ليل»: امرأة متفردة، شخصية روائية بامتياز: عكفت على تربية إخوتها حتى بلغت العنوسة، لكنها ذات مشاعر متأججة وحياة داخلية ثرية، كانت أشهر «كحكية» - أى صانعة للكعك - فى دمياط، تعرضت لمطاردة «شيخ الطائفة»، وأقامت علاقة مفعمة مع «المجبِّر» الذى يداوى ساقها المهيضة. أقول: حتى «ليل» القابعة فى دمياط لا تبرحها، جاءها قرصان شهير صديق لأخيها «غيث»، أشهر إسلامه وتزوجها، وشمس أنوثتها تتأهب كى تسحب خيوطها الأخيرة!

وأود أن أقف لحظة عند شخصية «الترجمان» (اقرأ: المثقف) الذى سجل لنا كل شىء، ولأنه يعرف الكثير، ولأن موقفه واضح إلى جانب المقهورين والفقراء ضد الظالمين والمتسلطين، فإنه يتعرض مرارًا لألوان قاسية من التعذيب، تركت آثارها على جسده لكنها لم توهن من روحه حتى الرمق الأخير. وقد لقى جزاءه الحق: احتضنه الشعب فأقام قبةً على قبره، وكرَّسه وليًا من أوليائه، وجعل ضريحه إلى جانب ضريح رفيقة أيامه الأخيرة: «المقدسة آمونيت»، الراهبة القبطية الحكيمة، التى وهبت سنوات عمرها كله لخدمة الفقراء ومداواتهم من علل الأجساد والأرواح.

وينعكس طابع العصر على العمل الروائى كله، ولعل أوضح شواهده أن دمياط - من حيث هى ميناء مصر - هى أقرب إلى طبيعة المدن «الكوزموبوليتانية»، يلتقى على أرضها العالم كله: هذا «نور الدين»: أنجبته «ليل» قبل أن تنطفئ شمعتها فى رودس، وأبوه فى البحر، وحين رحلت «ليل» احتضنته آمونيت، أما حين وقفت هذه أمام «محكمة تفتيش» متهمة بممارسة السحر، ونَجَت من الموت بمعجزة، ضاع نور الدين حتى وجد نفسه بين جماعة من المشردين على أرض فرنسا.. فى فرنسا عرف نور الدين مع المشردين الجوع والنوم فى العراء، وفى يوم طرقوا باب كنيسة لطلب الخبز فخرج إليهم راهب حادثهم بالفرنسية التى لا يعرفونها، وطرأ على بال نور الدين أن يحدثه باللاتينية التى علمته آمونيت.. (..) التحق نور الدين بخدمة الكنيسة، ولما ضموه للرهبنة منحوه اسمًا جديدًا: «أوغسطين»، وسوف نراه - فى الصفحة الأخيرة - يركب البحر فى طريقه للتبشير و«نشر اسم الرب بين هؤلاء الذين ليس لديهم الناموس» فى أفريقيا!

ثم هذا «المطراوى»: كبير تجار دمياط وأثرى أثريائها، يملك الأرض والعقارات والبشر والقصر الجميل المطل على النيل، هذا المطراوى ليس سوى الفتى السلافى «ماتياس»: اقتنصه جنود «الانكشارية» من وطنه فى شرق أوروبا، حسب نظام «الدقشرمة» السائد، الذى يقضى باختيار الأقوى والأذكى والأجمل من صبية العائلات الأوروبية المسيحية للالتحاق بالعسكرية العثمانية، على أن يمنح اسمًا جديدًا ودينًا جديدًا..»، ولأن ضابط الانكشارية قنص أكثر من العدد المطلوب، فقد باع بعضهم أرقاء لحسابه. «تنقل ماتياس بين عدد من «اليسارجية» المختصين فى تجارة العبيد بيض البشرة حتى وصل إلى البندقية حيث اشتراه المطراوى الأب لغرض فى نفسه..»، وفى قصره الجميل عاش حياة ليلية يلفها الغموض وتحيط بها الأقاويل، حُملت «سنانية» إلى قصره جارية بعد موت زوجها الخزاف، قامت بينها وبين صاحب القصر علاقة ساخنة قوامها الشبق والتحدى، وبعد أن دبَّ إليهما الملال عمد المطراوى إلى إذلالها. هل مات المطراوى ميتة هادئة كما يحكى صاحبه، أم قتله «غياث الدين» المسلم المتشدد الذى كان يعرف عنه كل شىء؟ لا ضرورة للجواب ولا جدوى منه!

هذه الشخصيات وتلك المصائر.. ألا ترتمى عليها ظلال من عالم الروائى العربى الذى يكتب بالفرنسية (لكن أعماله كلها مترجمة للعربية، وتلقى اهتمامًا كبيرًا من قراء الرواية المعاصرة) أمين معلوف (١٩٤٩ -) إن معلوف - من روايته الأولى والشهيرة «ليون الأفريقى، ١٩٨٦» إلى الأخيرة - فيما أعرف - «رحلة بالداسار، ٢٠٠٠» - يُطوِّح بأبطاله على اتساع العالم وامتداد التاريخ. وسواء كان أبطاله يعيشون فى التاريخ القديم أو الحديث (بطل روايته «سلالم الشرق، ١٩٩٦» مولود فى ١٩١٩)، فهم متسقون تمامًا وواقع المرحلة التاريخية التى يعيشونها. على أن هناك فارقًا مهمًا ودالاً: فى حين أن الهم الرئيس فى مشروع أمين معلوف ذو طابع عربى شامل، إلا أن الهم الرئيس فى «نوة الكرم» ذو طابع مصرى خالص: فى حنين البطلتين «ليل» و«آمونيت» إلى مصر وحديثهما عنها، فى الطقوس التى تمارسانها معًا: الرحلة إلى الهرم الأكبر والغفوة داخله التماسًا لشفاء ساق «ليل»، زيارات الأديرة المختلفة المتناثرة فى دلتا مصر وصعيدها، والطقوس التى يمارسها أهل «واحة سيوة» حيث عاش الخزاف مع «سنانية»، والطقوس التى يمارسها شبان وشابات دمياط انتظارًا ليوم القيامة... إلخ.

إن هذه «المصرية» العريقة والراسخة تتخلل العمل كله. فهذه الشخصيات لا يمكن إلا أن تكون مصرية لأعمق الأعماق. خذ مثالاً واحدًا: هذا هو «الترجمان» يضيق بخنوع الناس أمام شتى أشكال الفقر والقهر والظلم والاستبداد، دون أن يثوروا، ها هو يحاورهم ويحرضهم: «إلى متى تظلون منكسرين؟ اجأروا بالشكوى.. تمردوا.. تحدوا.. قولوا لا..» لا يرد أحد من الناس «بإمكانكم أن تقولوا لا دون أن تودعوا فى السجن الشريف، أو تمزقكم السياط والخوزقة والتجريس.. افعلوا كما فعلتم من قبل: انشدوا أشعار السخرية من العيش ومنهم، انظموا الأغانى واحكوا القصص، اكتبوا ليعرف أحفادنا من بعدنا أننا لم نخضع..».

وهذا ما فعله الترجمان.



ماذا يمكنك أن تقول لكاتب مثل منتصر القفاش؟ ماذا تقول لكاتب يعرف لغته معرفة جيدة، وله جرأة عليها، ويحقق، كذلك، درجة كبيرة من السيطرة على أدوات القص، ونادرًا ما يخفق فى التعبير عن مشاعر شخصياته واستبطان أدق خلجاتها، ونادرًا ما يخفق فى تقديم وصف - يبدو محايدًا - للأشياء والأماكن. لكن السؤال الرئيس هو: ماذا يفعل بهذا كله؟ فيم يوظف أدواته؟

لننظر فى عمله الأخير «أن ترى الآن» (هو عمله الروائى الثانى بعد «تصريح بالغياب، ١٩٩٦): إبراهيم شاب يعمل محاسبًا فى فندق كبير تتم تصفيته، وهو يشارك فى إجراء حسابات هذه التصفية، ولديه قلق حول مستقبله العملى بعدها، كل ما لديه مجرد وعود. متزوج من «سميرة» من عامين، ولم ينجبا لعيب فيها. ذات يوم تنبثق فى رأسه فكرة تافهة: أن يقوم بتصوير امرأته.. «تناول الكاميرا - يومها - والتفت إلى زوجته والتقط لها عدة لقطات متتالية وهو يدور حولها، اندفع يصورها دون تفكير فيما يفعله، وداوم على هذا أيامًا عديدة، ورغم اندهاشها أعجبتها اللعبة وصارت تسلم نفسها للكاميرا، وتتخذ أوضاعًا استغربها إبراهيم إلا أنه سعد بها، وأظهر لها كل الرضا بمباغتاتها: فتح روب الحمام عن آخره، نومها على بطنها عارية، خروجها إليه فجأة من غرفة النوم واضعة شمعدانًا مشتعلة شموعه فوق رأسها وتصيح فيه: صورنى..».

وسوف تصبح هذه الصور هى الحدث الرئيس فى الرواية القصيرة (١١٨ص)، ستصبح مثل كرة الثلج، كلما انحدرت زاد حجمها وزاد تلوثها. فى حياة إبراهيم صديقة - عشيقة - زميلة سابقة فى الجامعة، وهى الآن مذيعة تليفزيونية، مطلقة بعد زواج قصير. يقول عن علاقتهما: «لا يستطيع أن يوقفها عند حدٍّ فى أى شىء بينهما، فلم تكن الحدود مطروحة فى علاقتهما، واقتنعا بأن راحتهما الحقيقية يجدانها فى وجودهما معًا، ويسعدان بتحقيقها بأى شكل ودون تردد..».

هل تكون «سمراء» هل التى فعلتها؟ هل هى التى «أرسلت خطابًا يضم صور زوجته: بشنب، بعين واحدة والأخرى مطموسة، بجسد انتثر عليه - بقلم الحواجب.. شعر غزير، بقدمين طالت أظافرهما، بنهدين تضخما حتى كادا أن يبتلعا الصورة، والحلمتان كخرطومين طويلين..».

هذه السطور التى نقلتها لك كلها من الصفحات الأولى، أما بقية الصفحات كلها فمخصصة لتداعياتها: هجرت سميرة بيتها، وظل إبراهيم يبذل جهوده فى مصالحتها، خلال هذه المصالحة نتعرف إلى بقية شخصيات الرواية وأهمها «عبد العظيم»: خال سميرة الذى ظهر فجأة فى حياتها ليلعب دور المدافع عنها، وينتشر أمر هذه الصور فتحاصر إبراهيم فى العمل وخارجه، بل تتراكم الصور فى النهاية حتى تملأ شقته.. «بكل قوته دفع إبراهيم باب الشقة، بدت انفراجة دقيقة، استطاع من خلالها فهم أن الصور ملأت الشقة ووصلت إلى السقف وتمنعه من الدخول..».



مثل هذه «التيمات» تعود أصولها إلى مصادر معروفة فى فنون الغرب المعاصرة، هى - على التحديد - مسرح العبث والرواية الجديدة.

ولن يتسع المقام لتقصى هذه الأصول، يكفى القول إن التيمة الرئيسة فى الرواية: تصوير البطل لامرأته ثم تحول هذا الفعل التافه إلى كابوس يصحبه فى ليله ونهاره، ثم تزايد الصور وتكاثرها حتى تملأ شقته وتمنعه من دخولها، تلك التيمة هى ما نجدها فى عمل ارتود أداموف «الغزو»، حيث يغرق البطل فى الأوراق التى كتبها كاتب ميت، وعليه أن يعيد ترتيبها، وهى ما نجده كذلك فى عمل يونيسكو «الخراتيت» حيث تملأ هذه الكائنات البنية

إن الهم الرئيس فى «نوة الكرم» ذو طابع مصرى خالص: فى حنين البطلتين «ليل» و«آمونيت» إلى مصر وحديثهما عنها، فى الطقوس التى تمارسانها معًا: الرحلة إلى الهرم الأكبر والغفوة داخله التماسًا لشفاء ساق «ليل»

القبيحة الطرقات والبيوت والمكاتب، وتحاصر «بيرانجيه» الإنسان الوحيد الباقى، ونجدها فى أعمال أخرى، ثم إن تحول الأمر التافه (صور الزوجة) إلى قضية تشغل الحياة كلها، فلا تفسح مكانًا لسواها، هو أمر متردد فى مثل هذه الأعمال، ولنضرب مثالاً واحدًا:

عمل أداموف «لعبة البنج ـ بونج»: يلتقى البطلان فى حانة ليلعبا البنج ـ بونج أمام جهاز آلى موضوع فيها، شيئًا فشيئًا يتزايد انشغالهما بهذه الآلة حتى تصبح كل شىء فى حياتيهما: إن فكرا فهما يفكران فيها، وإن حلما فهما يحلمان بها، وإن اختلفا فهما يختلفان حولها.

إن كل حياتيهما تصبح معلقة بتلك الكرات الصغيرة التى تتدحرج على الطاولة. يتقدم بهما العمر ونراهما فى المشهد الأخير عجوزين مازالا يلعبان البنج بونج.

تناقض طفولى خائب، خيبة الحياة التى أنفقاها ومركز اهتمامهما هذه الآلة، وفى حمى اللعب يقع أحدهما ميتًا، ويبقى الثانى وحيدًا. والحقيقة أننى لم أكن لأندهش لو وقع بطل «أن ترى الآن» ميتًا: هاهو قد فقد عمله، وخسر زوجته، وخسر شقته فلم يعد قادرًا على دخولها، فماذا بقى له وإلى أين يذهب؟ من الناحية الأخرى، فإن فى العمل آثارًا من «الرواية الجديدة» ـ الموجة التى عَلَت فى الأدب الفرنسى حول ستينيات القرن الماضى ـ من حيث الاهتمام بوصف الأشياء فى ثباتها وحركتها، بطيئة كانت أو سريعة، مؤقتة أو دائمة، ثابتة أو متغيرة.

بل إن البطل يمضى خطوة أبعد فيتمنى لو كان شيئًا، وهو فى اختياره للشىء الذى يتمنى أن يكونه يكشف عن دوافع أخرى.

إنه يتمنى لو كانت الذاكرة مثل الكاميرا، موضوعه المفضل، وبداية كل ما هو فيه: «ماذا لو كانت الذاكرة مثل الكاميرا، بمجرد إخراج الفيلم منها تصير بلا ذاكرة، مهيئة لاستقبال أفلام أخرى بدون ذكريات من صور قديمة قد تأتيها فى أية لحظة..». اختياره لموضوعه: الكاميرا، وراءه كل الأفكار المرتبطة بموضوع «النظرة»، وأن تصبح هنا وهناك فى الآن نفسه، والعلاقة بين الأصل والصورة: التطابق والاختلاف، ثم إذا عمد شخص إلى التدخل فى هذه الصور، بالحذف أو الإضافة أو إدخالها فى علاقات مختلفة أو تحويلها لموضوعات مختلفة، انفتحت كل الأبواب أمام أبهاء المرايا بغير انتهاء.



بقى القول إن هذا البطل يختلف عن «أبطال» الرواية الجديدة ـ لو صح وصفهم بأنهم كذلك ـ فى أنه مسرف فى تحليل مشاعره واستبطان ذاته، وكشف مختلف ملامح الصورة التى يرى نفسه عليها، أبرز هذه الملامح أنه «لا يفعل» بل «يحدث له». ها هو يتمرد على وضعه ويتمنى شيئًا: «كل ما يريده إبراهيم أن يكون صاحب ذكريات من نوع: «لما حدث هذا قررت، وفعلت، وذهبت، وجئت، وتحملت حتى استطعت..».

لا أن تكون ذكريات من نوع: «لما حدث هذا. قلت وماله؟..».

على أن السؤال الذى يجب أن يطرح هنا على الفور هو: ما جدوى هذا كله؟ بعبارة أخرى: ماذا يريد الروائى أن يقول لقارئه؟

ها قد استولى على وعيه واهتمامه قدر ما استغرقته قراءة عمله، فماذا بعد؟

لستُ ممن يستنكفون السؤال عن «جدوى» العمل أو «رسالته»، فإننى على يقين أنه ما من شىء مجانى، ولستُ أصدِّق أن كاتبًا قعد ليكتب عملاً، ثم قدمه للناس كى لا يقول شيئًا، وإلا استحال الأمر لهوًا وعبثًا.

رواية منتصر الأولى «تصريح بالغياب» كانت مختلفة: صياغة طازجة ومتالقة لتجربة مجند شاب قضى الأيام الأخيرة من فترة تجنيده مع سرية صغيرة تقوم بالخدمة فى مدرسة لتعليم الفتيات التمريض.

وتتناول هذا العالم الذى ينسج خيوطه الشباب من الجنسين: مجندين وطالبات، عالم سداه ولحمته الحكايات الصغيرة والمشاعر الطازجة وانطلاقات الخيال.

وفيه ـ كما سبق القول ـ صياغات متالقة، خذ مثالاً واحدًا: هذا هو «النقيب الشرفى» خلف مكتبه فى ليلة «نوبتجيته»، يستمتع بالحديث إليهم: «البنات يجعلن الجيش فُسحة، والفسحة لا بد فيها من حكايات، والحكايات عند العساكر، والعساكر قُدامه، وقدامه لا ينطق أحد بكلمة، والكلمة لا بد أن ينطقها هو، وهو يحكى عن بنات زمان.. إلخ».

بمثل هذه الهدايا الصغيرة، استطاع الروائى أن يرشو قارئيه، فينصرفوا عن سؤاله: وماذا بعد؟

أخشى ما أخشاه أن تتحول كتابة منتصر القفاش إلى شىء يشبه تلك الحلوى الهشة التى كنا نسميها «غزل البنات»: تنفث فى الفم حلاوة ما أسرع ما تتلاشى فلا يبقى منها شىء، وتلك خسارة أظنها فادحة! ■

وإلى العدد القادم، نطالع معًا مزيدًا من النماذج.

(١) الأعمال الواردة فى هذا القسم هى، على الترتيب:
* علاء الأسوانى: عمارة يعقوبيان، ميريت، ٢٠٠٢.
* خالد إسماعيل: كحل حجر، ميريت، ٢٠٠١.
: عقد الحزون، الأحمدى للنشر، ١٩٩٩.
* أسماء هاشم: المؤشر عند نقطة الصفر، ميريت، ٢٠٠٢.
* ميرال الطحاوى: نقرات الظباء، شرقيات، ٢٠٠٢.
: الخباء، شرقيات، ١٩٩٦.
* نجوى شعبان: نوة الكرم، ميريت، ٢٠٠٢.
* منتصر القفاش: أن ترى الآن، شرقيات، ٢٠٠٢.
: تصريح بالغياب، شرقيات، ١٩٩٦.

الزمن .. الفن

وعملية تشكيل المتلقى

أحمد فؤاد سليم

حين نتأمل منهج القسمة الرباعية فى الوحدة «الأرابيسكية» المكررة، وكذا القاعدة «الشكلية» للمفروكة فى سياق الفن الزخرفى الإسلامى، وكيف تتعامد فوق بعضها بزاوية معقوفة، قابلة للتشطير دون عَدَد، لا نظن أننا بعيدون عن ذلك المعنى الكونى لتعامد الرأسى على الأفقى فى العلامة المصرية القديمة «عنخ»، ولا عن فكرة التربيع للقاعدة الهرمية فى مصر القديمة باعتبار المربع أساسًا لعمارة حُجرة الدفن التى هى حياة الروح، بل هى كذلك مثلما نراها فى قياس «جالينيوس» الرباعى، ومثلما هى فى تشطيرات «ابن سينا» فى «الفيض الإلهى» - من حيث «العقل» و«النفس» و«الجسم» و«العقل الفعال» - بل هى لصيقة حين نقترب من صناعة الفن الخالص، كلما استدعينا الجوهر الرباعى القديم للفن، من حيث دَعاهُ الإغريق «زمانًا، وحركةً، ومكانًا، وسكونًا»، بل إنه هو ذاته ذلك التعامد «الصليبى» داخل مربع يسكن فى محيط الدائرة، وتُلامِس زواياه الأربع أطراف محيطها، كما أخذها «ليوناردو دافنشى» (١٤٥٢ - ١٥١٩)، عن «باوللو فوتروفيوس» فى منتصف القرن الأول الميلادى، وصار إذ ذاك معيارًا لقياس الميزان الجمالى فى الصورة الفنية، وللأنماط المعمارية منذ النهضة الإيطالية.

لقد شغلنى هذا الموضوع خلال السنوات الأخيرة، فبينما كنت أتأمل لوحات الفن، كانت تعترضنى متقاطعات أَخَذَت على عاتقها إما تشكيل التلقى، وإما تعويقه عن مهمة إلقائه فى الوعى، إذ كانت الصورة الفنية تُجمل فى فضائها تلك «الرباعية الوجودية - بدورها - التى قال بها «هايدجر» عن الماضى والحاضر والمستقبل، ثم هذا «الرابع» المتمثل فى الزمن من حيث هو «تلامُس» لكل تلك الآنات» الكبيرة الثلاثة.. إذ ما هو الفارق بين هرم «خوفو» وبين هرم آخر مماثل فى الحجم تم بناؤه الآن، فوق الأرض الصحراوية نفسها. وكيف يمكننا أن نتلقى الهرم «المتزمِّن» فى «الوجود» الماضى، والهرم المتزمِّن فى الوجود الحاضر، وكيف ينبغى أن نقيس الفارق بين الدرجة العليا للإلقاء فى الوعى، وبين الدرجة الدنيا لذلك الإلقاء. بل، وكيف نرى المشهد إذا عدنا إليه بعد عشر سنوات وقد تغيَّرت علاقاتنا بالأشياء، وبالطبيعة من حولنا، وتغيَّرت الصداقات، والانتماءات، والأيديولوجيات، والعواطف والمصالح كلها مجتمعة، تلك التى تشكل فى مجملها شاهدًا على معنى وجود الذات المتلقية، أى زمنية هنا تعترض وتتقاطع فى مركز «المقاربة»، وأيها تتجاوز الأخرى إلى فكرة «القيمة».

وكيف تكون القيمة هنا فى حوارها مع الوجود المتزمِّن فى الهرم، أهى نسبية متضاعفة، أم هى نسبية متناقصة؟ وما هى تلك الزمنية التى تتقدم عن الأخرى، زمنية المتلقى، أم زمنية العمل الذى تقع عليه عيوننا؟ زمنية الوقائع والنسيج التاريخى، أم هى زمنية الزمان لذاته هو؟

وكيف يتم ذلك التفاعل المذهل بين «الآنات» الحاضرة، وبين «الآنات» التى يمثلها هرم خوفو.

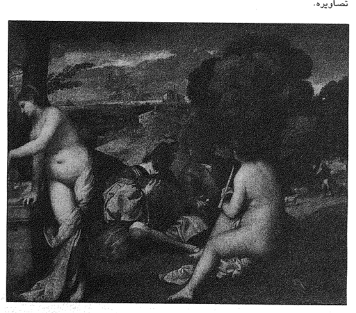
سوف أحاول هنا تفسير ما أريد طرحه من خلال مجموعة نماذج. وسوف نلحظ على التو إمكانية واضحة لمئات النماذج المماثلة، إنما كان هذا الاختيار تلقائيًا وربما متعاطفًا بعض الشيء مع وقائعه.

١. جورجيونى. الكونسير الريفى. ويبدو فيها التخاطر بين الأشخاص والطبيعة. وهى تمثل تلخيصًا لثورة جورجيونى على الموضوعات التقليدية، حتى اعتبرها النقاد والفلاسفة فى السنوات الأخيرة مفتاح الفن الحديث قاطبة. فلنلاحظ علاقة التضاد الحالم، والتحليق فوق الواقع، وخلق وضعية جديدة مساوية للطبيعة، وربما تتجاوزها.

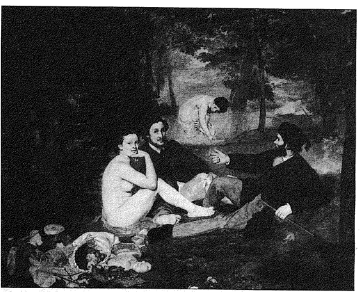
وهناك بعض الظن بأن الفنان العظيم (تيتيان) تلميذ جورجيونى قد أكمل هذه اللوحة بعد وفاة جورجيونى، وغالى آخرون فزعموا بأن (تيتيان) قد رسمها هو نفسه فى شبابه تحت تأثير أستاذه جورجيونى.

(موسوعة لاروس، الطبعة الإنجليزية، دار نشر «هاملين». لندن، ١٩٨١ ص ١٢٤، ١٣٥).

ونحن نختلف فى نظرنا إلى العمل الذى يفسر تمامًا منهج وتقنيات جورجيونى التى تعتمد على استرجاعه للخيالى، وللمفردات التى اشتهر بها أسلوبه باعتباره العرى من موضوعات الطبيعة الحية، ولاستخدامه فن المنظر فى كونه معادلاً، وثورة على «الأيقونية»، وهو عكس ما ذهب إليه «تيتيان» فى تصاويره.



٢. لوحة إدوارد مانيه «الغذاء على العشب» ١٨٦٣، زيت على توال مقاس ٢١٠سم × ٢٦٥سم لاحظ التقابل بين جورجيونى ومانيه. اثنان يرتديان ملابس عصرهما، وامرأتان عاريتان تقريبًا. ثم علاقة التعادل الموضوعى مع الطبيعة. والمسافة الزمنية بين اللوحتين حوالى ثلاثمائة عام.



ما هو الفارق بين هرم «خوفو» وبين هرم آخر مماثل في الحجم تم بناؤه الآن، فوق الأرض الصحراوية نفسها؟

النموذج الأول:

لوحة «الكونسير الريفي» أو الخلوي - كائنة الآن في متحف اللوفر - لـ«جورجيوني» - «جورجيو بارباريللي جورجيوني» (١٤٧٧ - ١٥١٠) - التي كان لها الفضل الأول في نقل الصورة من مجرد الرؤية المثالية إلى اللمسة الحسية. حيث قام جورجيوني برسم عاريتين بضّتين، عارمتي التفاصيل إحداهما تعزف «الفلوت» في حديقة عامة بينما ظهر إلى جوارهما رجلان يرتديان الملابس الرسمية لعصرهما.

إن لوحة «الكونسير الريفي» ليست فقط المعجم الأول لمفتاح الفن الجديد، وإنما هي فوق ذلك الأم المباشرة للوحة «غذاء على العشب» لإدوارد مانيه (١٨٣٢ - ١٨٨٣)، إذ رسم «مانيه» عاريتيه على نفس السياق، وبرفقتهما رجلان يرتديان أيضًا الملابس العصرية لزمنهما، وفي وضْعات تكاد تماثل نفس وضعات العارية عند جورجيوني، ومثل ذلك أيضًا الشجرة التي اختار لها «مانيه» نفس الزاوية اليسرى للصورة متطابقًا في ذلك مع جورجيوني. لا نقدم هنا نقدًا مقارنًا للعملين المهمين، بل على العكس، نحن نقدم هنا «وجودًا مُتزمنًا» في لوحة جورجيوني، مثلما نقدم أيضًا زمنًا استعاديًا، ومستعارًا في لوحة «إدوارد مانيه» (لاحظ أن بين الصورتين ما يقرب من أربعمائة عام).

إن المسافة التي بينهما هي «زمن»، والمخزون الذي يفصلهما عن بعضهما البعض هو «زمانية»، غير أن «الآنات» عند جورجيوني هي التي تُسعِّر القيمة - فالقيمة هنا في الكونسير الريفي نسبية «متضاعفة» بتوالي «الآنات» - إذ نحن لا يمكننا أن نتصور هذا العالم خلوًا من «الكونسير الريفي» لـ«جورجيوني» مع أن الحال هو ذاته بنفس القدر من لوحة «الغذاء على العشب». فهل هذا الزمن الاستعادي في لوحة «مانيه»، نسبي التناقص في القيمة، أم هو نسبي التزايد في القيمة، وهل «القيمة» هي وحدات من الواقع، والوقائع، والأحداث، والنسيج التاريخي، أم هي «زمانية الزمن» في ذاتها عند التوافق في مستويات، وأنساق متشابهة، وماذا لو أزحنا الحديقة الباريسية الغنّاء في لوحة «غذاء على العشب»، واستبدلنا بها المنظر «الفينيسي» الريفي الملهم في لوحة جورجيوني، «الكونسير الريفي».

هل نتقابل مع الفكرة القائلة بـ«تفتيت الزمن» أو بتفجيره - أي إزاحة «الموجود المتزمّن» - أي الماضي الذي أخذ يصير حاضرًا، من جورجيوني إلى مانيه، ومن مانيه إلى جورجيوني، ومن ثم نقف على فتحة البوابة التي سوف تشهد فيض الآنات.

النموذج الثاني:

فلو كان الحال كذلك بين «جورجيوني ومانيه»، على ما بينهما من تشابه واختلاف، فإن الأمر يصير أكثر إمكانًا - أي أكثر انطباقًا لأنه أقل حيرة - في لوحة «وصيفات الشرف» عند كل من فلاسكيز «دييجو فلاسكيز» (١٥٩٩ - ١٦٦٠)، و«بابلو بيكاسو» (١٨٨٢ - ١٩٧٣) هناك ثلاثمائة عام على التقريب، تفصل بين اللوحتين اللتين تحملان نفس الاسم «وصيفات الشرف» (Los Meninas)، وبنفس اللغة الإسبانية ونفس الموضوع، والأشخاص جميعًا، والعناصر، والبناء العام، ومنطقة المركز القياسي، والزوايا، بل ونفس المستويات الثلاثة عند كليهما، والتي يفصح أولها عن الملك «فيليب الرابع» واقفًا مع زوجته خارج اللوحة، حيث تبدو صورتهما منعكسة على المرآة المعلقة داخل اللوحة، ثم المستوى المنظوري الثالث حيث يبدو الباب مفتوحًا على البعد وقد غمره الضوء الخارجي فكشف عن المساحة البعدية بين تصورنا لوقفة الملك وزوجته خارج اللوحة تمامًا. ثم أخيرًا وضعة الأميرة «مارجريت» في مركز الثلث الأدنى من اللوحة. إنه انطباق يكاد يكون كاملاً. وهو انطباق أراده بيكاسو بوعي واحتفال للكشف عن براعة «فلاسكيز» من خلال أشهر لوحات الفن، التي هي منهج الحركة الانطباعية خاصة.

فالاختلاف بينهما هو أيضًا في ثلاث نقاط. أولاها هو هذا الأسلوب الذي يباعد بين الماضي في لوحة فلاسكيز وبين الحاضر في لوحة بيكاسو، أو هو الماضي الذي «أعدمه» الزمن ولكنه ظل مؤثرًا في الحاضر الذي سوف يُعدم في المستقبل وهكذا، بحسب هايدجر. والنقطة الثانية تتمثل في أبعاد هاتين اللوحتين، إذ هي عند «فلاسكيز» (٣١٨-٢٧٦سم) منجزة في العام (١٦٥٦)، زيت على قماش بينما هي عند بيكاسو (١٩٤-٢٦٠سم) منجزة في العام (١٩٥٧) زيت على قماش أيضًا، وأما النقطة الثالثة، فتتمثل في ذلك الاختلاف المفصح عن اليقين الأيديولوجي في لوحة «بيكاسو» حيث رسم «فلاسكيز» وهو يقف أمام حامل الرسم داخل الصورة، فإذا به يبدو عملاقًا متوج الرأس داخل الصورة التي رسمها بيكاسو من أدناها إلى أعلاها بحيث بدا جميع الآخرين أقزامًا، على عكس ما كشفت عنه لوحة «فلاسكيز» حين رسم نفسه وهو يقف داخل الصورة أمام حامل الرسم، فبدا حجمه مماثلاً لحجم الآخرين، فنحن هنا أمام إعلان سياسي كرّس فيه بيكاسو القيمة العليا للفن وللفنان متجاوزًا بسببها الحاكم ومن يحكم.

أما بيكاسو الذي قام بإنجاز أربع وخمسين لوحة تحضيرية لصورة «فلاسكيز» «وصيفات الشرف» قبل أن ينتهي إلى لوحته التي أنجزها في العام (١٩٥٧) هذه، فقد تحرك في «الوجود الزماني» وفجّر الآنات الأكثر تاريخية، حيث الماضي حاضرٌ ومؤثِّر، وبالتالي أزاح التاريخ حين كشف عن وحدات القيمة المتبدِّية في آنات الزمن لذاتها.

وماذا يكون الحال إذن عند وجود مستويات متباينة لمجموعات المشاهدين؟

نُذكِّر بأننا لا نتحدث هنا عن مناهج الفن، أو التقنيات، أو الاتجاهات والمدارس، وإنما كلامنا مؤسسٌ على فكرة مؤدّاها أن الزمن صنو للقيمة، وأن الزمنية «قيمية» بحد ذاتها ما دامت كذلك.

ونأتي الآن إلى المُشاهد الذي قد يكون «عربيًا» فيرى في الملك «فيليب» ابنًا «لفيليب الثالث» الذي كان الدعامة الأساسية التي أدّت إلى طرد العرب من إسبانيا - ثم إلى «المُشاهد الأوروبي» الذي قد يرى «فيليب» ابنًا لذاك الذي خلّصهم من العبودية العربية. هذان نقيضان تاريخيان يحملان زمنًا ماضيًا، ولكنه زمن لم يتم إعدامه بسبب فلاسكيز، إنما المستويات المتنوعة التي يملكها المُشاهد الاعتيادي، أو المُشاهد المثقف، سوف تكشف في التو عن ذلك العالم الذي لم يدر بخلدنا قط، هذا هو «زمن» «مفتت» إلى «آنات»، أو هو وجود ماض ولكنه متزمّن في الحاضر، ومؤثر في المستقبل، أو هو ليس بتاريخ بقدر ما هو «علم بالتاريخ» الذي لابد هو بدوره أن يكون زمانيًا.

النموذج الثالث:

نأتي الآن إلى النموذج الثالث، فقد انشغلت برسومات المخطوطات في مقامات الحريري «للواسطي» منذ سنوات بعيدة. وأدركت آنئذٍ أن تلك الرسومات لو قيض لها الآن أن تختار مسرحها الزمني تلك السنوات التي نعيشها في بداية الألفية الثالثة، لقلبت موازين الفكرة الجمالية رأسًا على عقب، ولجعلتنا نعيد النظر في اعتقادنا بجدوى كل من خداع «المنظور» و«التباين الظلي» للعناصر.

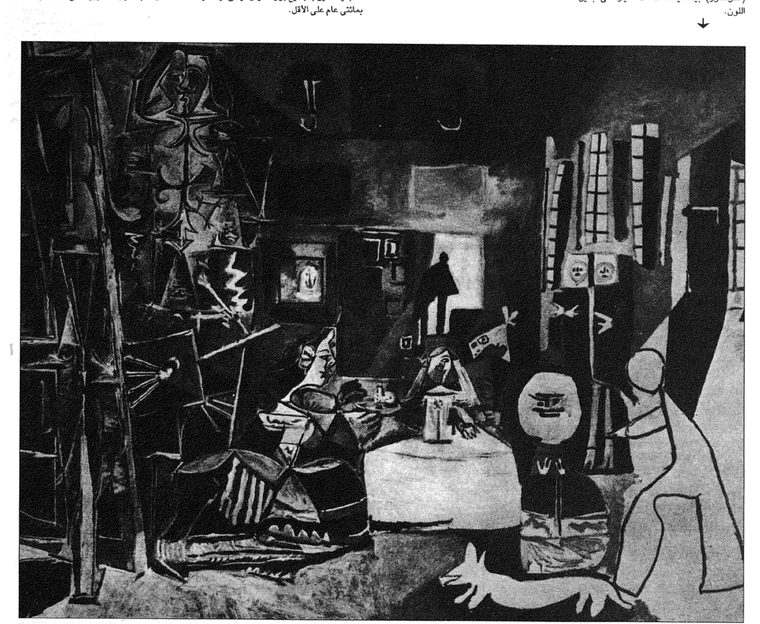
لقد اكتَشَفْتُ حين تأملتها بعضًا من الوقت - جانبًا من تلك الطرافة والوجاهة، بل والمخاطر الجسورة التي تضمنتها أفكار فيلسوف كبير مثل فيرابند، «بول فيرابند»، حين اعتبر «العلمية» أشد عَجْزًا من «الأسطورية»، إذ لأي سبب - حسب تفنيد فيرابند - يسيطر العلم حتى يصير «أبَوِيَّة» جديدة تحكم السلوك الإنساني، وتكبت العواطف، وتقدم الإرشاد للشعور، متجاهلين تجاهلاً تامًا ذلك الغامض الذي يعيش فينا ويحركنا، بينما أمكن للأسطورة - حسب فيرابند - أن تكشف النقاب عن هذا الجانب القوي الفاعل الذي أسقطه العلم من الحساب.

وفي كتابه القيم «نسبية المعرفة العلمية عند فيرابند ١٩٢٤-١٩٩٤» «Feyerabend» من ترجمة «د. محمد أحمد السيد»، حيث يقول بالنص: «لقد أنشأ مخترعو الأسطورة الحضارة، بينما اكتفى العلماء بتغييرها». وهو قول يحمل كل المخاطر الجديرة بإعادة النظر.

ونذكّر أن دار الكتب القومية في باريس، وهي من أعلى مراتب العلم تصنيفًا، قد وضعت رسوم مخطوطات الحريري التي أنجزها الفنان العراقي الواسطي تحت اسم مشتريها «شيفر» - فأنت إذن لا تعرف في تلك المكتبة سوى «شيفر»، إذا أردت أن ترى عبقرية «الواسطي» - وثمة ذلك الحس «الأسطوري» الذي يوحد الحريري بالواسطي، أي بين الشعر والفن بعد أن فصلت بينهما أعوام قاربت مائة وخمسين. إذ كتب الحريري مخطوطاته «مقاماته» الخمسين، بينما قام الواسطي «يحيى بن محمود بن يحيى بن أبي الحسن الواسطي» برسمها في ٩٩ منمنمة، عكف فيها على أسلوب الخط المحيط بكل عنصر دون نظر إلى فكرة المنظور، أو تلك النسب المتناقصة للأحجام عند المستويات الأبعد في مساحة المنمنمة - بل كان البعد والقرب والفوق والتحت، في منمنماته شعرية، وشخصية، وعاطفية، وأخلاقية، وجوانية. أي ليست خاضعة «للعلمي»، بل لذلك الغامض في فعل النفس، إذ يتقصى «الواسطي» حركة الخط مبدأه إلى منتهاه، وكأنه في رسومه يضع مكانًا «للزمان» والعكس.

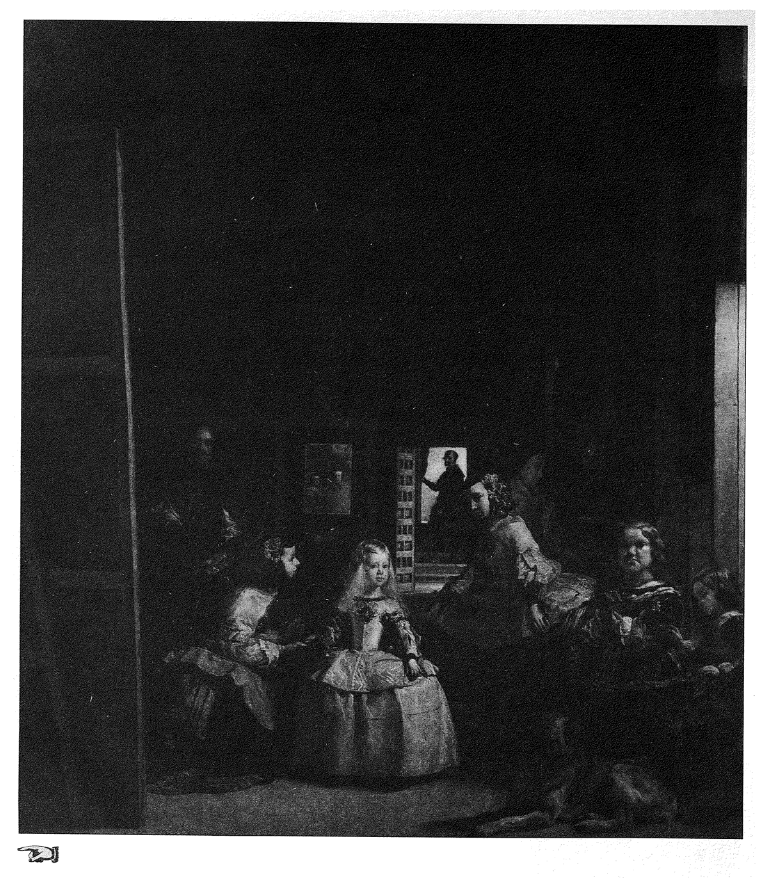
٣ـ لوحة بابلوبيكاسو (لوس منيناس) زيت على توال مقاس ٢٥٥×١٩٠سم ١٩٥٧ مقتنيات متحف البرادو بمدريد مع نفس لوحة فلاسكيز. لاحظ نفس العناصر التى شاهدناها فى لوحة فلاسكيز مع استثناءين اثنين:
الأول: صورة فلاسكيز يرسم على اليسار وقد ظهر عملاقًا بالمقارنة لجميع الآخرين.
الثانى: الاعتماد فى بناء العمل على الخط المحيط (الكونتور)، بينما يعتمد فلاسكيز على تباين اللون.

٤ـ لوحة «فلاسكيز» (لوس منيناس) الشهيرة أنجزها الفنان سنة ١٦٥٦، على الكانفاس مقاس ٣,٢٣م × ٢,٧٦م، من ممتلكات متحف البرادو بمدريد. لاحظ فلاسكيز نفسه على اليسار يحمل بالتة الرسم أمام لوحة على الحامل. ثم لاحظ مرآة صغيرة فوق رأس الأميرة مارجريت مباشرة حيث يبدو فيها وجها الملك والملكة منعكسين عليها، إذ يوهمنا الرسام بأنهما يقفان على مسافة خارج اللوحة فانعكست صورتهما على المرآة. ولنلاحظ أيضًا البعد المنظورى متمثلاً فى الضوء الساطع الذى يبدو من الباب الخلفى. ثم معادلة فكرة الوفاء بين مارجريت وصديقاتها ووصيفاتها، وبين الكلب الطيب المتمدد فى مقدمة الصورة.
وقد خصص متحف البرادو لهذه اللوحة قاعة بأكملها حتى يتمكن المشاهد من رؤيتها على بعد يسمح لشبكية العين بتجميع بؤر الألوان. وهى لوحة يعدها نقاد الفن الأب الأول للتأثيرية التى ظهرت بعدها بمائتى عام على الأقل.



إن تلك الحركة من المنشأ حتى المنتهى فى الخط المحيط هى فى ذاتها «زمان» يظل حاضرًا ما بقيت المنمنمة لدى المشاهدين. غير أن ذلك ليس هو موضوع كلامنا، وإنما هو الزمن الذى يفصل بين مقامات الحريرى وبين رسوم الواسطى. ثم هو ذلك الزمن الذى بسببه بدأت بعض الدوائر فى معاودة الكشف عن الواسطى فى السنوات الثلاثين الأخيرة. أو لعلها معاودة استحضار «الزمن» الذى كشفت عنه منمنمات الواسطى. إذ أخذ الزمن يتتابع منذ القرن الثانى عشر، وبينما هو كذلك أخذت رسوم الواسطى تزداد حضورًا، وتتدافع قوتها فى بعضها حتى تحررت من «الزمانية» وصارت «لا زمانية» ـ (أى هى صارت صالحة الآن لجميع الآنات، بل هى تلك الطاقة الكامنة فى إعدام الماضى المؤثر فى الحاضر، ثم إعدام الحاضر المؤثر فى المستقبل، ثم إعدام المستقبل ليصير ماضيًا، وهكذا، ثم هى كلمات «فيرابند» التى أخذت على عاتقها مهمة «نبش» «العلم» من أجل ملاقاة الغامض فى الوجود «المتزمن».

ففى كل دورة من دورات تلك الحلقات المتتابعة «الآنات» الزمنية، انشطرت «القيمة» وتبادلت المواقع مع الزمنية. فإذا بالواسطى يبدو ذلك العبقرى دون نظير فى فضاء كل هذا الزمن الذى سبق مولد «جورجيونى» فى القرن الرابع عشر ـ ويبدو لنا الواسطى فى رسومه التسعة والتسعين وكأنه زمن الحريرى، فلذلك نقف متاملين بين زمن «مستعار» وبين زمن أصيل «حاضر». بل نحن أمام زمن مركّب بحسب تفاعل الزمن المستعار من الزمن الحاضر. وأما الزمن الأخير، الذى هو حضورنا نحن كمشاهدين فيبدو وكأنه «وجود



متضاعف»، أى كونه طاقة متفاعلة متحررة من المكان، والزمان معًا.

النمـــــــوذج الرابع:

على أن الأمر لا يبدو كذلك فى هرم اللوفر بباريس. إذ يبدو الهرم الزجاجى المقام فى متسع منطقة الفناء الداخلى للمتحف العريق، ثلجيًا، قزمًا، حبيسًا فى مكانه. فهو «لا قيمة» له إلا بحسب انتسابه للتاريخى، وليس للزمنى. إذ هو فاقد لهذا النسيج التاريخى الذى تتمحور حوله الآنات.

ولعل هذا الصدام القاسى كفيل بإحداث التفجير الذى سوف يكون مسئولاً عن تفتيت «الزمنية»، و«التزمن» معًا. وهو الذى قد يجلب للمشاهد متعة تأمل هرم خوفو بينما هو ينظر لهرم اللوفر بعين زجاجية، عين عاجزة عن مكابدة فرحة الاجتياز فى الزمن.

غير أننا مع ذلك، نتأمل هذا الصدام الآخر، بين زمن ذلك الهرم الزجاجى ذى الآليات الحاملة الفولاذية، وبين زمن آخر أقل بعدًا من هرم خوفو. إنه هذه المرة صدام بين أساليب حاملة «لآنات» متتابعة، وبين الهرم الزجاجى الذى يمثل عمارة الفكر ما بعد الحداثى. صدام فى أبهاء هذا الفناء العريق لمبنى اللوفر بين ثلاثة مستويات زمنية يضمها مربع اللوفر. تُبرز إحداها روح النهضة الإيطالية فى العمارة الدينية، والثانية تمثل النهج الباروكى للزوايا المتقابلة وتبادل القباب، وأما الثالثة فهى تقدم ما يعرف بالجمال العملى ممزوجًا بالنقائية Purism فى العمارة الداخلية. إنه صدام التوالدات المتزمنة فى الوجود الحاضر، من حيث تم اختراع هذا المصطلح غير الدقيق «ما بعد الحداثة» «-Post Modern



٥ ـ من المقامة الثانية للواسطى «صورة الحارث وهو يجادل زملاءه فى أمور العلم فى دار الكتب بالبصرة والتى كانت منتدى للأدباء والشعراء وإذا برجل كثيف اللحية متغضن الوجه هو أبو زيد السروجى يدخل عليهم ويجلس فى أخريات الناس. وقد حشد الفنان العلماء المشتركين فى الندوة فى مستطيل واحد». «ورص الفنان الكتب أفقيا بعضها فوق بعض على الأرفف وفق الطريقة الشرقية بدلا من وضعها رأسية طبقا للطريقة الغربية».
النص بكامله للدكتور ثروت عكاشة من كتابه فن الواسطى، دار نشر دار المعارف ص ٢٤، ٢٥.

ism»، والذى هو فى نفس الوقت قطيعة للحداثة ذاتها، إنه الصدام الذى سوف يخوِّل لهِ إحداث تشظيات مستدعاة من الأزمنة، ثم جدولتها بعد تفتيتها فى الذاكرة المتلقية، ووضعها فى تناقضات من شانها أن تسقط التاريخ، وأن تقوم بإلغاء المنطق، والمعقولية معًا.

إن الهرم الزجاجى ليس سوى مزيج مروع، متضاعف التركيب بين هذا الماضى الذى ظل حاضرًا ومؤثرًا فى الحاضر الذى هو مؤثر فى المستقبل، ممثلاً فى هرم خوفو، وبين الماضى الأقل بعدًا، الذى يقوم الهرم الزجاجى بإزاحته ونفيه، بل وبإعدامه، ممثلاً فى عمارة النهضة الباروكية لعمارة مبنى اللوفر.

وبعد، أليست عملية التلقى ذاتها مرتبطة ارتباطًا لا فكاك منه بذلك المخزون المكون لثقافة فرد ما، ومجتمع ما، فى زمن بذاته. وهل يمكن لأحد منا أن يتلقى جمالية تحتوى على نفس تلك القيمة التى يتلقاها الآخر دون أن يكون رهينًا بذلك المخزون الفاعل لذكريات الثقافة، وبحركة نبضها الفاعل.

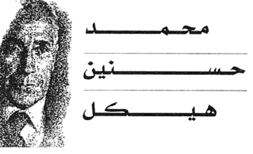
أولسنا ـ تحت وهم كوننا المؤهلين وحدنا لرسالة الثقافة ـ فى حرب دائمة كُتبت علينا ضد عمليات تنميط التلقى، حتى لا يكون ذلك التلقى أسيرًا لزمان ليس هو زماننا.

ثم ماذا نفعل بينما الزمن هو ذاته يفلت من بين أيدينا، ويتفكك تفكيكًا كلما طلعت الشمس وغربت. ■

هــرم خــوفــو ↑

هــرم اللوفر الزجاجي ↓



ملك تحت الحصار!

إذا كان يمكن وصف يوم أو أسبوع أو شهر فى حياة أمة بأنه كان علامة فارقة فى تاريخها، فإن شهر ديسمبر ١٩٤٨ هو ذلك الشهر فى حياة مصر الحديثة قبل ثورة سنة ١٩٥٢!

(والحقيقة أن تلك السنة ١٩٤٨ - فى تاريخ العالم العربى تكاد تشبه سنة ١٨٤٨ فى التاريخ الأوربى، وكانت تلك سنة تغيرات كبرى، وانقلابات، وحركات عصيان فى بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، والبرتغال، وروسيا، وصقلية، وحتى سويسرا - وفيها حوصر ملوك ورؤساء وأمراء، وبعضهم سقطت عروشهم مثل «لويس فيليب» ملك فرنسا الذى فر هاربا إلى إنجلترا - وكذلك يمكن القول أن عاصفة الثورة على المجتمعات الأوربية وصلت إلى مجتمعات الشرق متأخرة قرنا بالكامل عنها فى الغرب!).

وبصرف النظر عما إذا كان التحديد الزمنى - والتخصيص، ممكنا فى تاريخ تتواصل حلقاته، وتتسابق أحداثه، وتترتب النتائج فيه على مقدمات سبقتها، فإن شهر ديسمبر ١٩٤٨ شهر لا يترك لباحث أو دارس أو قارئ مجالا غير أن يتوقف عنده ليسمع ما يكاد أن يكون رغم مضى السنين، أجراسا تدق منذرة، ومصابيح حمراء تشتعل محذرة.

والشاهد أن أيام ذلك الشهر تعكس تغيرات هائلة حلت وكان حلولها استحقاقا حان أوانه على المعادلات الحاكمة فى الشأن المصرى، وعلى مقدمتها ثلاثية السلطة بين الإنجليز - والقصر - والوفد.

○ فى ذلك الشهر - ديسمبر ١٩٤٨ - انتقل التأثير الدولى الأهم على القرار المصرى من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة، أى من الإمبراطورية البريطانية التى شاخت وخفت صوتها إلى الإمبراطورية الأمريكية النازلة على الدنيا كما تنزل الطائرات على مهابطها - ومحركاتها تزعق، وسرعتها تصرخ رغم أن كوابحها تعمل، ثم إن عجلاتها تلامس الأرض كأنه احتكاك نارى بغير شرر!

وباختصار ففى هذا الشهر بدا وكأن الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط - وجود يشحب، وأن الإمبراطورية الأمريكية زحف يتقدم، مع أنه لا يزال يدعى البراءة وينفى عن نفسه «تهمة» الإمبراطورية، بمقولة أن دوره العالمى فى الواقع شركة مساهمة مفتوحة لكل من يريد الدخول إلى زمان جديد يتيح للشركاء نصيبا فى الأرباح يأخذها كل جَسور ينظر إلى اليوم وينسى الأمس!

○ وفى ذلك الشهر بدا القصر الملكى مغلقا على نفسه، وبدا الملك «فاروق» فيه مشغولا مهموما بمشاكل تكالبت تحاصره: على المستوى الشخصى الإنسانى، وكذلك على المستوى العام. ولأول وهلة ظهر الملك «فاروق» خائفا من عناصر أفلتت من سيطرته وتحولت إلى مخاطر تقترب من عرشه وتهدد حياته، حتى بدا وكأن وصف الأمير «محمد على» - ولى عهده - فى حديث له مع السفير البريطانى قابل للتصديق، رغم أن قائله كاره للملك حاقد عليه. وكان ولى العهد قد ذكر للسفير البريطانى فى حديث بينهما «أنا أعرف «فاروق» أكثر منك، إنه «خواف» أبوه زرع فى قلبه بذرة الخوف، وأمه تكفلت بالبذرة وحولتها إلى نبت ضعيف لا يقوى على الريح، وخصوصا إذا جاء الريح من ناحيتها. والحقيقة - يقول ولى العهد - أن «الولد» لا «يعقل» إلا إذا وجد من «يشكمه»، وهو ما لا يقدر عليه أحد فى مصر، ولذلك فإن «شكم» الملك مسئوليتكم (الحكومة البريطانية)، وهو فى نفس الوقت مصلحته لأنه يعيده للصواب».

وفى ذلك الشهر بالتحديد، كان رهان الملك فى فلسطين يخسر، وجيشه يُحاصر، وزوجته «فريدة» تتسلم ورقة طلاقها، وكذلك شقيقته «فوزية»، وأمه تعلن العصيان عليه، والمرأة التى عرض عليها أن تتزوجه وتشاركه العرش والتاج تبعث له من باريس ترفض عرضه وتكسر قلبه!

○ وفى ذلك الشهر بدا واضحا أن قرار الوفد استقر أخيرا فى يد «فؤاد سراج الدين» (باشا). وكان القرار فى ذلك الحزب عند البداية شراكة بين زعامة «النحاس» وإدارة «مكرم» - ثم تحول إلى شراكة نفوذ بين السيدة «زينب هانم الوكيل» و«فؤاد سراج الدين» (باشا) - ثم انتهى إلى حالة من الغموض ظهر وسطها «فؤاد سراج الدين» (باشا) وكأنه «وكيل دائرة الحزب ومدير أملاكه»، وتلك ثقافة تقليدية عرفها عصر الملكيات الزراعية الكبيرة فى مصر، وكان هذا النجم الصاعد فى الحياة السياسية المصرية مستوعبا لهذه الثقافة، وقد نقلها معه من الزراعة إلى السياسة، أى من إدارة تفتيش زراعى واسع إلى إدارة حزب سياسى كبير.

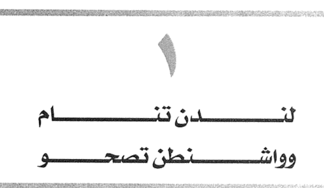
وذلك أدى إلى اختلاف كبير فى ممارسات حزب الأغلبية، فالعادة أن الوفد يعتمد على قواعد جماهيرية يستطيع تحريكها عند اللزوم، وعلى مجموعة مبادئ عامة ظلت توجه الرأى العام المصرى طوال مرحلة طلب الاستقلال، بالإضافة إلى قدرة على المناورة السياسية، مع ملاحظة أن أى مناورة يقوم بها أى حزب لابد لها حتى تحقق كامل نتائجها - أن تكون قريبة من قواعده الجماهيرية، وموصولة بمشاعر الرأى العام.

لكن الوفد وهو يتحول - فى ظروف مستجدة، من عقلية حزب جماهيرى شعبى يستشعر آمال الناس ويتقدم للتعبير عنها ويحرك ويحرض - إلى دائرة أملاك زراعية شديدة البراعة فى جمع المحصول، وتأمين المخازن، وعقد الصفقات، وتوزيع الأقساط وضمان تحصيلها، طرأ عليه تحول أثَّر على شخصيته ذاتها وعلى طبيعة نشاطه!

....

....

[وهذا التصوير لثقافة «فؤاد سراج الدين» (باشا) لا يضيره ولا يسيء إليه، لأن كل شخص يقبل على العمل العام ويدخل ميدانه، يصل إلى هناك ومعه حمولاته الثقافية الكاملة (وفيها الموروث بخصائص الطبيعة، وفيها المؤثر بالبيئة والتربية والقيم الموجهة، وفيها المكتسب بالعلم والمعرفة والتذوق - وأخيرا فوقها المتراكم بالتجربة مع الحياة والناس والظروف)، ولذلك فإن هذا التصوير لثقافة «فؤاد سراج الدين» (باشا) هو فى الجوهر توصيف موضوعى يعرض للحقائق دون أحكام قيمة. وغير ذلك وبعيدا عنه فإن قيمة الرجل العام تتأتى، ويكون الحكم عليه بالأهداف العامة، وبالأداء اليومى، وبمقدار ما يضيف أى سياسى من جهد ينجح وينفع.]



كانت بداية الظهور الأمريكى فى القاهرة مجىء «كيرميت روزفلت» - ممثلا لمكتب الخدمات الخاصة (الذى تحول فيما بعد إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية). وكان «كيرميت روزفلت» ابنا لرئيس أمريكى سابق هو «تيودور روزفلت»، وبالتالى ابن عم للرئيس الأمريكى الحالى «فرانكلين روزفلت» الذى قاد الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها.

وتبين أول إشارة مكتوبة إلى مجىء «كيرميت» إلى القاهرة فى يوميات اللورد «كيلرن» السفير البريطانى العتيد فى مصر، وقد سجلها يوم الجمعة ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠ - على النحو التالى:

«جاء «كيرميت روزفلت» - وهو ابن الرئيس الأمريكى الراحل «تيودور روزفلت» للغداء معنا. لم أكن رأيته منذ كنا معا فى رحلة صيد فى «بكيلنلج» ضيوفا على «بيل آستور» و«جون هير». «كيرميت» تطوع الآن فى الجيش البريطانى، وجاء يرتدى زى ضابط برتبة «ماجور» فى لواء «ميدل سكس»، وكان الغداء مناسبة لطيفة. وكان معنا «هاملتون» و«جراهام» (من الهيئة الدبلوماسية للسفارة البريطانية). مرة أخرى وجدت «كيرميت» شابا حسن المعشر، ولاحظت أنه يتلعثم فى كلامه بأكثر مما كان فى الماضى. وخطر لى أنه يتعمد ذلك ليعطى نفسه فرصة للتفكير قبل أن يجيب على أى سؤال. وجدت «كيرميت» أيضا أكبر من سنه، وتحدثنا عن دخول أمريكا إلى الحرب، وقال إنه يتعجل دخولها وذلك ما دفعه إلى الالتحاق بالجيش البريطانى. وأنه تحدث فى الموضوع مع الرئيس، لكن الرئيس يعطى اعتبارا للموقف الداخلى، رغم أنه فى صميم قلبه معنا، وسألته إذا لم يكن التأخير راجعا إلى قرب انتخابات الرئاسة، وأجاب إن ذلك فى الغالب صحيح، ولكنه (كيرميت) لا يستطيع أن يقاوم نفاد صبره فى انتظار دخول أمريكا إلى الصراع!».

وتكرر تواجد «كيرميت روزفلت» بعد ذلك فى مجتمعات القاهرة، حيث تختلط «الطبقة الراقية» المصرية بالصفوة من ضباط الحلفاء (الإنجليز والأمريكين والفرنسيين وغيرهم) - على أنه كان يختفى ويظهر، ثم يعرف أصدقاؤه أنه كان فى «جدة» أو فى «القدس» أو فى «بيروت» أو فى «استنبول»، ثم يفهم الجميع أن «كيرميت» يتحرك فى محيط واسع، وأنه فى هذا المحيط يقوم بدور «ما» هو مسئوليته الحقيقية، والدليل أنه غائب دائما عن وحدته العسكرية البريطانية حتى وإن ظل يرتدى زيها الرسمى!

ويعرف السفير البريطانى اللورد «كيلرن» فى القاهرة أن «كيرميت روزفلت» يلتقى بالملك «فاروق» - ولا يثير ذلك شكوكا لديه، لكنه لم يلبث أن راجع نفسه فى تأثير «كيرميت روزفلت»، وظهر ذلك فى برقية منه إلى وزارة الخارجية البريطانية رقم (٤٥/ ٢/ ١٠٥٣) موجها الكلام بالتحديد إلى السير «رونالد كامبل» رئيس إدارة الشرق الأوسط - قائلا:

«فى لقاء اجتماعى حضره أحد معاونى فى السفارة هنا، جلس الملك «فاروق» يتحدث عن تصوراته:

قال «فاروق» «أنه عندما تنتهى الحرب فإن المتاعب الحقيقية سوف تبدأ، لأن الروس (الاتحاد السوفيتى) - سوف يباشرون زحفهم السياسى». واستفاض الملك فى شرحه قائلا:

«فى العادة كان الروس يبدءون دعاياتهم وتحريضهم فى بلد، ثم يجيئون بعد ذلك لاحتلاله عسكريا، والآن غيروا الأسلوب، يحتلون عسكريا أولا ثم تأتى الدعاية بعد ذلك لإضعاف أى مقاومة لاحتلالهم. وفى موازين العالم المستجدة فإن القوة الوحيدة التى يمكن أن تتصدى للروس وتقاوم توسعهم هى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى ذلك فإن بلدان الشرق الأوسط لابد لها أن تساعدهم». وعندما لاحظ الملك وجود رجل إنجليزى بالقرب منه أضاف «لابد أن تقف بريطانيا مع أمريكا - بعد الحرب لمقاومة الشيوعية - وأعرف أن الدول الصغيرة هى التى ستدفع الثمن إذا لم تقم الولايات المتحدة بدورها»!

يضيف السفير البريطانى من عنده بعد ذلك ملاحظات واستنتاجات تطول بها برقيته عن الحد المعتاد، ويقول: «إننى لا أريد أن أقرأ فى كلام الملك «فاروق» أكثر مما يحتمله، لكن كلامه بهذه الطريقة عن الولايات المتحدة باعتبارها وحدها السد المنيع القادر على صد الشيوعية - له معان، أهمها اعتقاده أن الولايات المتحدة - دون غيرها - تملك موارد القوة القادرة. ومثل ذلك الاعتقاد قد يؤدى به إلى استنتاجات خاطئة يتصور فيها «فاروق» أن سياسته فى الدفاع ضد خطر شيوعى يراه، لا يتم بغير تعاون وثيق مع أمريكا».

ويمضى السفير البريطانى إلى «بكائية» طارئة على عجرفته التقليدية أيام خدمته فى مصر فيقول:

«من سوء الحظ - على نحو ما - أننا تحملنا وحدنا الجزء الأول والأخطر من الحرب، ثم جاء الأمريكيون فى الجزء الثانى منها، وبالطبع فإن المصريين وفيهم ملكهم، لن يفوتهم ملاحظة أن الأخبار الواردة من ميادين القتال فى أوربا - وتظهر أن الجيوش الأمريكية والسوفيتية هى التى تقود النصر ضد ألمانيا.

وعندما تبدو لهم الولايات المتحدة عملاقا، ويبدو لهم الاتحاد السوفيتى عملاقا آخر، ولا يخطر على فكرهم أن أمريكا لن تستطيع أن تتحمل التزام الدفاع عن الشرق الأوسط.

إننى آمل أن لا يمر وقت طويل قبل أن يفهم الملك «فاروق» - وغيره - أن أمريكا لن ترضى بحمل «الطفل» فى الشرق الأوسط America will not carry the Middle East baby..

إننى متأكد أن «فاروق» مرعوب من الشيوعية وإذا كان ذلك، فإن عليه أن لا يبحث عن حماية أمريكية، ولكن عليه أن يبحث عن تحسين أحوال شعبه.

لابد أن أضيف أننى أظن أن هناك من يزينون لفاروق لعبة أنه يستطيع استعمال الأمريكان لكى يثير غيرتنا، وذلك ابتزاز لا يصح لنا أن نرضخ له»!



لكن اللورد «كيلرن» لا يهجع لأن «كيرميت روزفلت» يقابل الملك «فاروق» كثيرا، وفى بعض المرات تطول اللقاءات فى بيت «كريم ثابت»، وكذلك يقرر السفير البريطانى أن يثير الموضوع مباشرة مع الوزير الأمريكى المفوض «بنكنى تاك» - ثم يكتب إلى وزارة الخارجية تقريرا عن هذا اللقاء (٢٧١/ ٦٢٩٧٥) يقول فيه:

«رتبت الفرصة لحديث صريح مع الوزير الأمريكى المفوض «بنكنى تاك» فى شأن الأحوال الراهنة هنا وقد ذكرت له ما يلى:

● المصريون يستغلون مؤتمر سان فرانسسكو لكى يتجاوزوا ضرورة مفاوضات مصرية - بريطانية مباشرة، وهذه دسائس «بدوى» (يقصد عبد الحميد بدوى باشا)، وعلى أى حال فسوف يكون لى «كلام قاس» معه حين يعود إلى القاهرة.

● هناك انطباع لدى «الجماعة» هنا بأن بريطانيا منتهية فى الشرق الأوسط، وأن مصر لابد لها من الاعتماد مستقبلا على أمريكا، وذلك انطباع أحمق يتجاهل الحقائق، وأهمها وجود تعاون بريطانى - أمريكى وثيق فى مناطق العالم كله.

● والمصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart ويحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) - خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتى أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام، وهى فى المحصلة النهائية تضر إمكانيات الدفاع عن الشرق الأوسط.

● قال لى «بنكنى تاك» أنه يتفهم ما قلت، وهو لم يترك فرصة لتبديد وهم المصريين بأنهم يستطيعون الإيقاع بين الحليفين الكبيرين (الولايات المتحدة وبريطانيا). لكنه لسوء الحظ يعرف أن «بعضا من رجاله» ينسون أنفسهم فى ممارسة مثل هذه الغوايات الخطرة للمصريين، وقد نبه بعضهم مرات إلى تلك السخافة.

● إننى أعرف بوسائلى أن «بنكنى تاك» حريص على الدور الخاص لبريطانيا فى الشرق الأوسط، وقد نقلت إلى قرينة ولى العهد اليونانى عنه كلاما ينصح فيه - حتى اليونانيين - بأن «علاقة وثيقة» بين الجميع



من اللورد «كيلرن» إلى الخارجية البريطانية: «المصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart يحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) - خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتى أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام»



وبين المملكة المتحدة هي الضمان الحيوي لأمنهم، وأن عليهم تقدير أن التحالف «الأنجلو أمريكي» قوي للغاية!».

وفي تقرير لاحق يزيد اللورد «كيلرن» بتسجيل ملاحظة قالها للوزير الأمريكي المفوض ونصها:

«قلت لـ «بنكني تاك» إن الولايات المتحدة لها «مبدأ مونرو» - خط منتصف المحيط الأطلسي والهادي أيضا - الذي أعلنته للقوى العظمى حتى تراعيه وتلتزم به ولا تتدخل في شئون الأمريكتين. وبالنسبة لبريطانيا العظمى فإن لدينا شيئا مماثلا في شأن الشرق الأوسط، ومن الضروري أن يراعيه الجميع ويلتزموا باعتبار أن المنطقة تخصنا وتخص أمننا ومصالحنا الحيوية!».

ثم يروي اللورد «كيلرن» في تقرير (٢٠٦ / ٢٢٣١) واقعة غريبة لا تظهر من حولها أية تفاصيل:

«قال لي الوزير الأمريكي المفوض أنهم استعادوا مبلغ ٤٠ مليون دولار بطريقة معينة «ولا أعرف كيف؟ - ولا من أين حصلوا عليها؟ - أو من؟» - وأنهم بسبب ذلك سوف يتركون يدنا طليقة في منطقة الشرق الأوسط!».



ويفاجأ اللورد «كيلرن» - ربما - حين يصله رد على برقياته المتكررة المحذرة من محاولة دخول أمريكي في مصر، ويكتب إليه وكيل الخارجية اللورد «كادوجان» بنفسه (١٩١٣/٣/١٦) قائلا:

صديقي العزيز

قرأت برقياتك الأخيرة، وأرى من المفيد أن يعرف الأمريكان حجم اهتمامنا وصلابتنا فيما يتعلق بدورنا القيادي في مصر، لكني أرجوك ألا تعطيهم الانطباع باننا نريد استبعادهم نهائيا من هذا البلد. إننا نريد منك أن تنقل إليهم ترحيبنا بتعاون يستلهم روح العلاقة الخاصة البريطانية - الأمريكية في مصر كما في غيرها، لكننا نريدهم في الموضع المناسب والموضوع المناسب أيضا.

ويرد اللورد «كيلرن» على اللورد «كادوجان» (٣٧١/٤٥٩٢١) برسالة يقول فيها:

عزيزي أليكس

لا تقلق لأني حريص دائما أن يكون واضحا في كل ملاحظاتي على محاولة الدخول الأمريكي في مصر أننا نتعاون معهم بنسبة ١٠٠٪ - واعتقادنا أن في مصر متسعا لنا وللأمريكان في نفس الوقت، لكني لا أريد أن أترك مجالا للشك في حقيقة أن قناة السويس هي شريان الحياة بالنسبة لنا. وأن اهتمامنا بالدفاع عن مصر متصل بدفاعنا عن أنفسنا.

دعني أضيف أيضا أننا في حاجة إلى أن يتخلص الأمريكان من إغراء العودة إلى العزلة وراء المحيط الأطلنطي كما فعلوا بعد الحرب العالمية الأولى. وأنا واثق أن ذلك لن يتكرر بسبب مطالب أمريكا في بترول الشرق الأوسط، إنني أسلم لهم بهذه المطالب، ولكن ذلك لا يبيح لهم الدخول بغير حدود في مصر لأن تلك بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت.

كان اغتيال «النقراشي» (باشا) قد جرى صباح ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وعهد الملك إلى «إبراهيم عبدالهادي» (باشا) برئاسة الوزارة خلفا له على الفور، وكانت أول خطوة قام بها رئيس الوزراء الجديد - دعوة السفير البريطاني في القاهرة لمقابلته

ويختم «كيلرن» رده على «كادوجان» بقوله:

ما هو رأيك - هل تراني على حق يا سيدي؟ Am I right sir?



ومن حسن حظ اللورد «كيلرن» أن سير الحوادث أثبت أن مخاوفه مبررة - لكنه لم يكن على حق.

والذي حدث أن حكومة العمال (برئاسة كليمنت آتلي) - وقد جاءت مهتمة ببرامج إصلاح اجتماعي استدعتها إلى السلطة وأقصت المحافظين بزعامة «تشرشل» رغم أنه قائد النصر، ثم تبين لها أنها لا تستطيع التورط في نفقات عسكرية باهظة - وارتأت أن تترك للولايات المتحدة مهمة «تطوير بعض الجيوش في الشرق الأوسط»، وبالذات تلك الجيوش التي طلبت معونة الولايات المتحدة وأولها الجيش التركي. وكان ذلك ما دعا الملك «فاروق» إلى عملية جس نبض يستكشف بها إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لتطوير الجيش المصري عن طريق «مساعدة في التدريب والتسليح». وعندما طرح طلب الملك في اجتماعات التنسيق (البريطاني - الأمريكي)، لم تكن هناك - على عكس المنتظر - معارضة بريطانية، وكانت الخطوة الأولى في تلبية طلب الملك، ضرورة قبول «بعثة عسكرية أمريكية إلى مصر»، وقد وافقت بريطانيا كذلك - وكان المفروض أن مجيء هذه البعثة الأمريكية خطوة أولى على طريق تطوير الجيش المصري - لكن مجيئها أصبح الخطوة الأخيرة أيضا، لأن المسألة توقفت عند هذا الحد. لكن مجرد وجود بعثة عسكرية أمريكية بالفعل في مصر - (ومن حسن حظ اللورد «كيلرن» أنه لم يكن في مصر وقتها، وإنما كان في منصب آخر قرب جنوب أفريقيا) - وكان ذلك استفزازا لأحلامه كما عبر عنها في مرحلة سابقة.

ثم وقع النفاذ الأمريكي السياسي الأكبر في مصر، ذلك الشهر الخطير أيضا ديسمبر ١٩٤٨.



كانت القوات الإسرائيلية قد اجتازت خط الحدود قبل يومين، واخترقت الجبهة المصرية، مهددة بتطويق الجيش الميداني وقيادته في فلسطين.

وكان اغتيال «النقراشي» (باشا) قد جرى صباح ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وعهد الملك إلى «إبراهيم عبد الهادي» (باشا) برئاسة الوزارة خلفا له على الفور، وكانت أول خطوة قام بها رئيس الوزراء الجديد - دعوة السفير البريطاني في القاهرة لمقابلته. وكتب السير «رونالد كامبل» إلى وزير الخارجية «أرنست بيفن» برقية سرية يروي فيها تفاصيل المقابلة:

«أبلغت «عبد الهادي» عزائي وأسفي لما جرى لسلفه، وهو في نفس الوقت صديقه وزعيمه قبل أن يصبح «عبد الهادي» رئيسا للديوان ويترك حزب السعديين. وكان «عبدالهادي» متأثرا وقلقا بسبب ما وصلت إليه الأوضاع على الجبهة، وهنا ذكرت له أن «حيدر» (باشا) وزير الدفاع قابلني صباح اليوم، ووجه إلى سؤالا عن أية مساعدات نستطيع تقديمها لهم، وأوضحت لرئيس الوزراء الجديد أنه من المفيد أن تعرف حكومة صاحب الجلالة البريطانية ما إذا كان الطلب الذي قدمه «حيدر» (باشا) بالحصول على معدات حربية وذخائر هو طلب رسمي باسم الحكومة المصرية، وإذا كان الأمر كذلك فعلى أي أساس سياسي وقانوني تم التقدم به؟ ورد «عبد الهادي» (باشا) قائلا: «إن الطلب بالتأكيد مُصدق عليه من قِبَل الحكومة المصرية، وأبدى أن مصر حاولت مخلصة أن تمتثل لقرارات مجلس الأمن، لكن اليهود أظهروا المرة بعد المرة ازدراءهم لسلطة الأمم المتحدة بقيامهم بأعمال عدوانية متكررة، ضاربين عرض الحائط بالهُدنة وبغيرها من قرارات مجلس الأمن، وانتهى الأمر باختراقهم الأراضي المصرية، والحكومة المصرية إذ تطلب أسلحة، فليس الغرض من ذلك هو العدوان، بل لكي تدافع مصر عن نفسها.

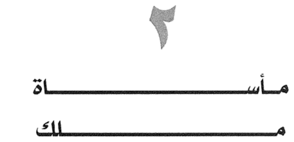
وسألت رئيس الوزراء المصري إذا كان يقترح قيام حكومة صاحب الجلالة برفع الحظر المفروض على الأسلحة من طرف واحد - فإذا كان، فهل أدخل في حسابه أن من شأن ذلك أن يفضي لا محالة إلى رفع الحظر بصورة عامة في المنطقة، مما يترتب عليه أن يتمكن اليهود من الحصول على الأسلحة، وكذلك على المتطوعين بحرية وعلنا، بحيث يصبح الوضع الأخير شرا من الوضع الأول.

وانتهيت بأن أوضحت لرئيس الوزراء المصري أنه متى ثبتت واقعة الغزو اليهودي للأراضي المصرية، فالمتعين أولا أن تتلقى حكومة صاحب الجلالة طلبا رسميا بالمساعدة من الحكومة المصرية، ثم تنظر في الإجراء الذي تستطيع اتخاذه. وأشرت إلى أن التعليمات صدرت إلى سفير صاحب الجلالة بأن أي طلب بالمساعدة من جانب الحكومة المصرية ينبغي أن يتم بموجب المعاهدة الإنجليزية المصرية لسنة ١٩٣٦، وبمقتضاها. وإنه لما يساعدنا كثيرا أن يكون تقديم الطلب المصري فعلا على هذا الأساس.

هناك سجل متفق عليه لهذه المناقشة سوف يرسل إليكم في الحقيبة.

ويُرجى من وزارة الخارجية تمرير ذلك على وفد المملكة المتحدة في نيويورك وواشنطن حسب برقيتي رقم ١٥٥ و٢٠١ على التوالي».

وكان الملك «فاروق» قد تحدث مع السفير الأمريكي في القاهرة بمثل ما تحدث مع السفير البريطاني، وكان الملك يتصور أن بريطانيا سوف تبادر - لكن الذي حدث أن الولايات المتحدة التي قررت دخول المنطقة (البحر الأبيض والشرق الأوسط) - سارعت وتحركت، وكانت البؤرة الساخنة في تلك اللحظة قد انتقلت إلى تل أبيب، مع تقدم عمليات الخطة الإسرائيلية «حوريف». وكتب الرئيس الأمريكي «هاري ترومان» إلى «دافيد بن جوريون» (رئيس الوزراء الإسرائيلي) وراح النفوذ الإمبراطوري في الشرق الأوسط يتحرك عبر المحيط من شاطئ إلى شاطئ - من أوروبا إلى أمريكا.



....

....

[لأن هذا الجزء من هذا الحديث يدور حول المأساة الإنسانية للملك «فاروق» وتأثيرها - بعيد المدى - عليه وعلى تصرفاته، فقد التزمت عند التعرض للوقائع خلاله بضوابط شديدة الصرامة، تفصل إلى أقصى حد ممكن بين العام والخاص. ومع أنى استمعت، خصوصا من السيدة «ناهد رشاد» ومن الأستاذ «كريم ثابت» إلى تفاصيل كثيرة عن المأساة الإنسانية للملك «فاروق»، فإنى أوثر ألا أروى شيئا مما سمعت هنا، لأنه قد يدخل فى «الشأن الخاص» - وقد اعتبرت أن ما يحق تناوله كشأن عام، هو ما ورد فى الوثائق كتابة، وما اطلع عليه من يعنيهم الأمر، وما تداولته الأيدى وحفظته الملفات، وكذلك فإن كل تفصيل فى هذا الجزء يعتمد على واحد من ثلاثة مصادر:

- ملفات مجلس البلاط الملكى (وهى ضمن محفوظات قصر عابدين وبالذات مجموعة محاضر ومذكرات المجلس عن الفترة ما بين ١٩٤٥-١٩٥٠).

- دفاتر يوميات قيادة الحرس الملكى وهيئة الياوران، (وكان الياور الملكى الخاص فى تلك الفترة هو اللواء «عثمان المهدى»، الذى أصبح رئيسا لهيئة أركان الحرب، وكان يشغل هذا المنصب فعلا عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢).

- وثائق الخارجية البريطانية وبالذات ما كتبه السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن فيما بعد) وكان مهتما برصد أخبار الملك «فاروق» وأسرته].

....

وفى الحقيقة فإن كافة المصادر تكاد تجمع على أن شهر ديسمبر ١٩٤٨ كان ذروة المأساة الشخصية للملك «فاروق» كرجل وإنسان، ففى اليوم الأول من ديسمبر تظهر فى ملفات مجلس البلاط مذكرة بخط يد «حسن يوسف» (باشا) - القائم بأعمال رئيس الديوان وبوصفه أمين مجلس البلاط - ومرفوعة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، وفيها أن الملكة «نازلى» اتصلت به تليفونيا من فندق «فيرمون» الذى تقيم فيه (مع الأميرتين فايقة وفتحية) فى كاليفورنيا - كى تبلغه أنها قرأت مثلها مثل كل الناس خبر طلاق الملك «فاروق» من زوجته الملكة «فريدة»، ومعه فى نفس الوقت خبر طلاق أخته الإمبراطورة «فوزية» من زوجها شاه إيران «محمد رضا بهلوى».

وفى المذكرة نقل «حسن يوسف» (باشا) عن الملكة «نازلى» أنها منزعجة لأن خبر الطلاق نُشر دون استئذانها. ونقل عنها «حسن يوسف» (باشا) أنه فيما يتعلق بطلاق «فاروق» فذلك شأن الملك وليس عليه أن يستأذن فيه أحدا، لكن عدم استئذانها فيما يتعلق بالأميرة «فوزية» أمر مستغرب لأنها ابنتها. وجاء فى المذكرة نقلا عن الملكة أن «جلالتها كانت تعرف أن زواج «جلالة مولانا» وزواج «جلالة الإمبراطورة» يواجه «بعض الصعوبات»، لكنها لا ترى ذلك سببا لتجاهل موافقتها».

ونقل سكرتير مجلس البلاط بعد ذلك عن الملكة، شكاوى كثيرة لديها، بما فيها عجزها عن تحصيل حقوق مالية تطالب بها من إيراد ممتلكاتها، ومع ذلك يُقال لها كل مرة أن التحويلات متأخرة، أو أن تحصيل الإيراد ضعيف. وفى المذكرة بعد ذلك نقلا عن الملكة «نازلى» أنها قررت عدم العودة إلى مصر فى الظروف الراهنة. وفى المذكرة أيضا عن الملكة الأم أنها حاولت الاتصال بابنها ولم تنجح، وأنها اتصلت بشقيقها «شريف صبرى» (باشا) الذى أبلغها أنه مثلها «قرأ الأخبار فى الجرائد رغم أنه (على الورق) عضو فى مجلس البلاط!»



كانت علاقة الملك «فاروق» بأمه الملكة «نازلى» علاقة شديدة التعقيد، وذلك أنها فى سنوات صباه خصوصا بعد وفاة والده الملك «فؤاد» (١٩٣٦) وحتى زواجه (١٩٣٨) - ملكت تأثيرا شديدا عليه، حتى قيل أنه تحت سيطرتها الكاملة.

ثم طرأ «شىء ما» على هذه العلاقة، عندما عرف «فاروق» أن الملكة «نازلى» تزوجت من «أحمد حسنين» (باشا) مرشده، وأمينه الأول، ورئيس ديوانه - ثم إن هذا الشىء الذى طرأ ظل مبهما وغامضا - مكتوما فى قلب الملك الابن - لا يبوح به.

....

....

[وإن كانت الملكة «فريدة» - السيدة صافيناز ذو الفقار كما كان اسمها قبل الزواج وبعد الطلاق - روت لى دون تفاصيل «أن معرفة «فاروق» بهذا الموضوع سببت له جرحا عميقا، خصوصا أنه كتم فى نفسه ولم يبح، فقد أراد والدته بقربه تعلقا بها، وأراد رئيس ديوانه إلى جانبه يساعده على ظروف صعبة اعتقد فيها أن الإنجليز يعادونه والوفد يتآمر عليه».

لكن انقلابا مفاجئا نزل على هذه العلاقة عندما قُتل «أحمد حسنين» (يناير ١٩٤٦) فى حادث اصطدام سيارته بلورى عسكرى (من الجيش البريطانى) على كوبرى قصر النيل يوم شتاء ممطر!]

....

....

وكان الملك «فاروق» قد هرع إلى بيت «أحمد حسنين» (باشا) فى ميدان المساحة بالدقى، وطلب من أمين البيت الكتوم «صادق» أن يفتح له غرفة نوم «الباشا»، ودخل الملك وأغلق الباب على نفسه قُرابة ساعة (وظهر فيما بعد أنه كان يبحث عن أية أوراق تكشف عن زواج الملكة «نازلى» بأحمد حسنين أو تشير إلى علاقة بين الاثنين). ثم خرج الملك من بيت (المرحوم) (بتعبير الملك فاروق)، عائدا إلى القصر، حيث أقبل لعزائه عدد من الأمناء يتقدمهم «محمود السيوفى» (بك) - وفوجئ «السيوفى» وهو يقدم عزاءه للملك قائلا: «إن خسارة «حسنين» (باشا) كبيرة، لكن البركة فى مولانا»، ورد الملك «فاروق» بلهجة غريبة، «خسارة إيه، كفاية بقى». وكانت دهشة الأمناء بالغة، وسرى فى القصر أن الملك لا يريد أن يعزيه أحد فى «حسنين» (باشا).

ويروى «حسن يوسف» (باشا) أنه بعد غياب «حسنين» بأسبوع، قال له «فاروق» «إنه اليوم فقط يشعر أنه بالفعل ملك». وكان «حسن يوسف» (باشا) يتفهم حجم الضغوط التى كبتها الملك داخل مشاعره، لكنه تمنى لو أنه (الملك) سيطر أكثر على أعصابه حتى لا يشعر من فى القصر (والدولة)، أن الجالس على العرش كان مقهورا ممرورا، (والواقع أن المشهد كان قريب شبه من أجواء شكسبير فى مسرحية «أوديب ملكا»).



ولم تستطع الملكة «نازلى» أن تفهم أكثر من أنه عندما مات «حسنين» اختفى عن أنظار «فاروق» آخر رجل فى مصر كان «يخاف منه»، وكذلك كان قولها إنه «ما كاد «حسنين» يدخل قبره حتى أصبح «فاروق» «نمرودا» يريد أن يظهر قدرته على البطش بكل الناس، حتى أنا أمه التى ولدته وأحبته».

(وفى تعبير «عبد الفتاح عمرو» (باشا) «أن موت «حسنين» أطلق فى مشاعر الملك «فاروق» عداء مكبوتا تجاه والدته، وكأنه كان هناك مخزون من الغضب ضاق به وعاؤه النفسى، فلما انكسر انفجر»).

وفيما بقى من شهور سنة ١٩٤٦ زادت سفريات الملكة «نازلى» إلى الخارج، وابتداءً من سنة ١٩٤٨ حطت رحالها فى الولايات المتحدة، حتى أبلغته عن طريق سكرتير مجلس البلاط يوم أول ديسمبر ١٩٤٨ أنها «لن تعود إلى مصر»!

ولم تكن تلك نهاية قصة الملكة «نازلى»، كما أن هذه القصة لم تكن القصة الوحيدة فى الأحزان الشخصية للملك «فاروق» (بصرف النظر عما إذا كان هو مسئولا عن هذه الأحزان أو كانت المسئولية على غيره).

كانت الملكة «فريدة» (صافيناز ذو الفقار قبل زواجها من الملك وبعد طلاقها منه) - هى القصة الأكبر فى حياة «فاروق».



لم تستطع الملكة «نازلى» أن تفهم أكثر من أنه عندما مات «حسنين» اختفى عن أنظار «فاروق» آخر رجل فى مصر كان «يخاف منه»، وكذلك كان قولها إنه «ما كاد «حسنين» يدخل قبره حتى أصبح «فاروق» «نمرودا» يريد أن يظهر قدرته على البطش بكل الناس، حتى أنا أمه التى ولدته وأحبته»



....

....

[وحين قابلتها أول مرة في بيت زوج خالتها «حسين سرى» (باشا)، كانت مصممة ألا تتكلم عن «فاروق» بأكثر مما هو عام، وفي أقل حد ممكن، وقُصارى ما قالته يومها «إنها تعرف أن «فاروق أحبها» وأنه «والد بناتها»، وهي لا ترغب في الإساءة إليه برواية شيء عن زواجهما وطلاقهما - ثم زادت بنبرة مبهمة أنه في كل ما يُقال فقد كان هو لسوء الحظ البادئ، قالت ذلك وسكتت ثم أضافت على استحياء «والبادى أظلم» كذلك يقول المثل! وابتسمت برقة - وغيرت مجرى الحديث مشيرة إلى مجموعة نخيل في نهاية حديقة البيت الريفي لحسين سرى (باشا) على أول الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية، وكانت السيدة «ناهد سرى» هي التي اختارت للبيت اسمه: «دار الحمد».]

....

....

وليس هناك (طبق كل الروايات) شك أن «فاروق» كان «البادئ»، ولعلها كانت بداية اضطرارية وتعويضية، ذلك أن الملك كان عاشقا لزوجته الشابة - لكنه لم يكن مجربا، فقد كان دون العشرين عندما تزوجها، والنتيجة (وذلك رأى الأميرة فايزة شقيقة الملك «فاروق») - أن الزواج كان «فرحا ملكيا» أكثر منه «فرحا إنسانيا». وترتب عليه (وهو أيضا رأى الأميرة فايزة) أن «فاروق» أراد أن يعوض وبالتالي راح يستعرض، ثم (رأيها كذلك) أن حاشية سوء ساعدته على جعل «الغلط» «طريقة حياة».

(والحقيقة أن هناك اعتبارا مؤثرا لابد من حسابه في الحكم على تصرفات «فاروق» في حياته الخاصة - وذلك أن ظروفه العامة من ٤ فبراير ١٩٤٢ (الانقلاب العسكري البريطاني) وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ (حين أقال وزارة «النحاس» (باشا)) - عزلته تقريبا عن ممارسة سلطته الدستورية كملك، وهمشت دوره السياسي، ومن ثم وجد لديه فراغا لم يعرف كيف يملؤه، خصوصا أن أفقه الثقافي لم يساعده، ثم إن ظروفه العائلية طاردته، وكذلك فإن «الهرب» - حتى في حياته الزوجية - أصبح أكثر من «الغلط» من طريقة حياة!).



ولعل أفضل مرجع تناول محاولة الملكة «فريدة» في الرد على البادئ الأظلم هو كتاب المؤلفة البريطانية «أرتميس كوبر» وعنوانه (القاهرة: سنوات الحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥). وكان المهم فيما كتبته المؤلفة البريطانية المشهورة أنها أسست ما قالته على الوثائق الرسمية للحكومة البريطانية سنة ١٩٤٣، وضمنها تقارير المخابرات العسكرية البريطانية، إلى جانب تقارير اللواء السير «توماس راسل» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة وقتها. وتجيء رواية «أرتميس كوبر» في كتابها بدءا من صفحة ٢٢٩ على النحو التالي:

كانت «فريدة» في أزمة بسبب مغامرات زوجها، وكان أكثر ما يضايقها علاقته المشبوهة بالعاطفة مع النبيلة «فاطمة طوسون» زوجة النبيل «حسن طوسون» ابن الأمير «عمر طوسون»

في بداية شهر مارس ١٩٤٣ أبدى الملك «فاروق» شكوكه من تكرار زيارة زوجته الملكة «فريدة» لرسام بريطاني جاء إلى مصر ضمن القوات البريطانية في ظروف الحرب اسمه الكابتن «سيمون إلويس».

كان هذا الضابط في الأربعينيات المبكرة من عمره، وقد وصل إلى مصر في نوفمبر ١٩٤١ مع الكتيبة العاشرة للهوسار. والحق بقسم العلاقات العامة بقيادة القوات البريطانية في مصر. وبعد وصوله بفترة قليلة ظهر «إلويس» في مجتمعات القاهرة، يرسم لوحات زيتية لعدد من الشخصيات ضمنها السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون»، والسيدة «كونسويلو رولو» الزوجة الجميلة للمليونير اليهودي الأشهر في مجتمع الإسكندرية، وغيره من نجوم المجتمع المصري - البريطاني المختلط في تلك الفترة الغريبة. وكان «إلويس» يعتبر نفسه «دون جوان»، وقد قال لأحد أصدقائه أنه يستمتع عندما يرسم لوحة لامرأة جميلة، لكن الإلهام لا يكتمل عنده إلا إذا عرف صاحبة اللوحة بطريقة حميمة.

كان «إلويس» طموحا وقد طلب أن يرسم صورة لملك مصر وملكتها الملكة «فريدة». ولم يكن لدى الملك «فاروق» فيما يبدو وقت، وكذلك فإن الملكة «فريدة» بدأت جلسات طويلة أمام الرسام الإنجليزي، والتقى الرسام بالملكة «فريدة» لأول مرة في بيت خالتها السيدة «ناهد سرى» (زوجة حسين سرى باشا)، وقد سبق الجلسات اتفاق بين «إلويس» وأحد مسئولي القصر، على أن يتقاضى «إلويس» مبلغ ألف جنيه استرليني عن الصورة، وأن يحصل على نصف أتعابه مقدما مع أمله في أنه إذا وجد الملك «فاروق» وقتا فإن نفس العقد يتكرر معه.

وقبل جلسات الرسم تلقى «إلويس» تحذيرات من أحد مستشاري السفارة بأن يكون حريصا في تصرفاته مع الملكة، لأنه يتعامل مع مجتمع شرقي له حساسياته وتقاليده، ولذلك يجب أن يكون شديد التحفظ في مسلكه، خصوصا في حضرة الملكة.

كانت الجلسة الأولى في قصر عابدين وتكررت الجلسات، ثم أبدى «إلويس» للملكة شكواه من أن حركة الوصيفات من حولها ومقاطعتهن لها تفسد عليه تركيزه، وأبدى أنه من الصعب مواصلة العمل في هذا الجو، وسأل الملكة إذا كان في وسعها أن تذهب إليه في مرسم يعمل فيه لأن ذلك سوف يكون أدعى إلى كمال الصورة.

كان اقتراح «إلويس» - حتى وإن كان مألوفا في مجتمعات غربية - صدمة لوصيفات الملكة في البلاط المصري. لكن «إلويس» أصر على أن مواصلة العمل في قصر عابدين صعبة عليه، وتمكن من إقناع الملكة «فريدة» من أن تذهب إليه حيث يسكن مع عدد من زملائه الضباط - وحيث يعمل أيضا.

كانت الملكة «فريدة» في بواكير العشرينيات من عمرها، وقد أنجبت لزوجها ابنتين هما «فريال» و«فوزية»، ولم تكن قد نجحت في إنجاب ولي للعهد يكفل استمرار حكم أسرة «محمد علي».

وفي ذلك الوقت كانت «فريدة» في أزمة بسبب مغامرات زوجها، وكان أكثر ما يضايقها علاقته المشبوهة بالعاطفة مع النبيلة «فاطمة طوسون» زوجة النبيل «حسن طوسون» ابن الأمير «عمر طوسون»، وكانت سيدة فائقة الجمال، وفي وقت من الأوقات عرض عليها الملك «فاروق» أن تحصل على الطلاق ويتزوجها هو بعد ذلك. في تلك الأيام أيضا كما روت الملكة «فريدة» فإن علاقتها بالملك «فاروق» ساءت إلى درجة أنه لم يعد بين الزوجين خطاب مباشر. وكانت الصلات بينهما عن طريق الوصيفات أو سكرتارية الملك، وكان ذلك هو السبب الذي أبدته «فريدة» لعدم استئذان أحد حتى زوجها في الذهاب إلى مرسم «إلويس» حتى يستكمل رسم صورتها، وكانت بذلك تعرض نفسها ومركزها إلى خطر شديد في مجتمع شرقي متحفظ، خصوصا أنه كان من الصعب إبقاء زياراتها لإلويس سرا. وكانت تذهب كل مرة وفي صحبتها وصيفة اسمها «عقيلة هانم». وكان وصولها كل مرة ملحوظا، وكان للقصر الملكي شبكة معلومات. وكان أفراد الشبكة من «السفرجية» السودانيين، ومعظمهم على اتصال بمحمد حسن النوبتجي الخاص القائم على خدمة الملك.

كان «سيمون إلويس» يعيش في شقة مع اثنين من ضباط سلاح الطيران هما «سوني ويتني» و«ويتني ستريب» والأخير من أسرة بريطانية - أمريكية وقد قُتل فيما بعد في فرنسا. وكان شريكا «إلويس» في شقته يعرفان بزيارات الملكة السرية إلى مسكنهم ويحرصان على التسلل خارجين منها عندما تجيء. ومن سوء حظهم أن الملك «فاروق» جاء مرة بنفسه إلى الشقة وهم داخلها، ومن سوء الحظ أيضا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين في نفس اللحظة إلى مساعدة «إلويس» على تهريب الملكة «فريدة» ووصيفتها من الباب الخلفي للشقة حتى لا يراهما الملك. وسرت حكايات كثيرة في مجتمعات القاهرة عن علاقة «إلويس» مع الملكة «فريدة». وطلب الملك - عن طريق «حسنين» - إبلاغ السفير البريطاني في القاهرة برغبته في نقل «إلويس» إلى خارج مصر. (ووجه الملك طلبا آخر إلى الجنرال «باجيت» القائد العام).

ويوم ١٦ يناير صدر أمر بسفر «سيمون إلويس» إلى جنوب أفريقيا. وكتب اللورد «كيلرن» في هذا التاريخ في يومياته ما نصه: «كان لابد من الخلاص من «إلويس» وإلا قام الملك «فاروق» بتطليق زوجته». وثار «إلويس» عندما عرف أن ذهابه إلى جنوب أفريقيا لم يكن مؤقتا كما قيل له، وكتب خطابا ملتهبا إلى الملكة «فريدة» حجزته الرقابة البريطانية بسبب ما تضمنه - وبينه غضب «إلويس» على السفير البريطاني الذي تدخل بنفسه لدى الماريشال «ويفل» لنقله من مصر.

والحاصل أن الوثائق والمراجع البريطانية هي أهم المصادر التي تابعت حياة الملك «فاروق» الشخصية، وبالذات تفاصيل ما طرأ على علاقة الملكة «فريدة» والملك «فاروق». وكان «المخبر الأنشط» في المتابعة هو الأمير «محمد علي» الذي تحدث مبكرا جدا مع السير «والتر سمارت» (مذكرة بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤١، ملخصها (نقلا عن

ولى العهد) «أن الملك «فاروق» فى حالة سيئة لأنه اكتشف وجود صداقة حميمة بين زوجته وبين «وحيد يسرى» (باشا) (وهو الابن الأكبر لسيف الله يسرى (باشا) - زوج الأميرة «سميحة حسين» (ابنة السلطان حسين كامل)، وكان فى بداية الأربعينيات من عمره، وجيها ناضجا ومجربا).

وفيما قاله الأمير «محمد على» أن «فاروق» طارد زوجته إلى بيت الأميرة «سميحة حسين» بظن أنها سوف تلتقى بوحيد (باشا) هناك، وأنه تهور عليها أمام الجميع وفيهم الخدم ولكن الموقف أمكن تداركه.

وبعدها بأسبوعين (٢٤ ديسمبر ١٩٤١) وكان «ولى العهد» المصرى يزور السفير البريطانى يهنئه بعيد الميلاد، سأله السير «مايلز لامبسون» عن أحوال الزواج الملكى، وقال الأمير «محمد على» «أنه لن يكون هناك طلاق»، ثم أضاف «ليس فى الظروف الحالية»!



طوال سنة ١٩٤٥ تلح برقيات السفارة البريطانية من القاهرة بشدة على العلاقات بين الملك «فاروق» والملكة «فريدة». وترد بداية الإشارات تلك السنة فى صدد الإعداد لمشروع زيارة ملكية يقوم بها ملك مصر وملكتها - ضيفين على الملك جورج السادس وزوجته الملكة إليزابيث سنة ١٩٤٦، لكن كبير الأمناء البريطانى «اللورد لاسيل» بعد أن قرأ عديدا من التقارير السرية لدى المخابرات البريطانية - بعث يسأل اللورد «كيلرن» عما إذا كانت علاقة الزوجين الملكيين المصريين قد ساءت إلى هذه الدرجة، وعما إذا كانت «فريدة» سوف تجيء مع «فاروق»، وماذا يحدث إذا جاء الملك وحده؟

ولم يكن لدى اللورد «كيلرن» جواب واضح، لكنه بعد أربعة أيام كتب (١٥٥/ ٣٠٧) يقول بالنص:

«شخصى وسرى - (وزير الخارجية - المكتب الخاص قصر «باكنجهام»).

قبل افتتاح البرلمان الجديد يوم ١٨ يناير تلقينا تقارير مضمونها أن الملك «فاروق» أرسل لزوجته الملكة «فريدة» - قائمة بأسماء الأميرات والنبيلات اللاتى دُعين معها إلى جلسة افتتاح البرلمان فى المقصورة الملكية. وعلى قائمة المدعوات لاحظت الملكة «فريدة» وجود اسم النبيلة «فاطمة طوسون»، والأمير «ماهواش طوسون». والملكة «فريدة» تعرف أن النبيلة «فاطمة طوسون» على علاقة حميمة بالملك «فاروق»، وأنهما يلتقيان فى بيت الأميرة «شويكار» التى تكرهها الملكة «فريدة»، ولا تطيق سماع اسمها. وقامت كبيرة وصيفات الملكة «فريدة» بإبلاغ كبير أمناء القصر بأن الملكة لن تحضر الاحتفال بافتتاح البرلمان، وذلك وضع الملك «فاروق» فى مأزق لأنه لم يعد يعرف كيف يبرر غياب زوجته عن المقصورة الملكية.

وعلم «فاروق» كذلك أن الملكة «نازلى» (الملكة الأم) لن تحضر الاحتفال هى الأخرى، فقد أبدت أن غياب «فريدة» وحضور «فاطمة طوسون» يضعها فى موقف حرج.

وباعتذار الملكة «نازلى» فإن المقصورة الملكية بقيت فارغة (وهو ما لاحظته زوجات الدبلوماسيين المدعوات للاحتفال وكل حضوره) لأن أميرات الأسرة ونبيلاتها لم يكن فى وسعهن الذهاب إلى حفلة افتتاح الدورة البرلمانية فى غياب الملكتين.

ويستطرد تقرير اللورد «كيلرن» (إلى الخارجية وإلى قصر باكنجهام) فيقول بالنص:

«إن الصحافة المحلية نشرت فى اليوم التالى أن الملكة «فريدة» لم تستطع حضور احتفال افتتاح البرلمان بسبب إصابتها بنوبة برد، لكن المفاجأة التى وقعت لنا هى أن مكتب الملكة اتصل بالسفارة يدعو زوجتى (الليدى جاكلين كيلرن) إلى لقاء فورى مع الملكة - وعرفنا أن غيرها من سيدات السلك الدبلوماسى فى القاهرة دُعين أيضا. وأثناء اللقاء قالت زوجتى للملكة «فريدة» وبقصد المجاملة «إننا قلقنا جميعا لأن جلالتك لم تحضرى احتفال افتتاح البرلمان أمس»، وكانت المفاجأة الأكبر أن «فريدة» ردت عليها بصوت مرتفع تعمدت أن يسمعه الكل قائلة: «إن كرامتى كملكة لا تسمح لى أن أحضر هذا الاحتفال»، وهذه الملاحظة من الملكة تؤكد لنا ما سبق أن وصل إلينا من معلومات. والمشكلة فى القاهرة أنه لا يمكن الاحتفاظ بسر فيها، وكذلك فإنه يبدو أننا سوف نسمع كثيرا فى الأيام المقبلة عن العلاقات بين الزوجين الملكيين!



ويوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ يكتب اللورد «كيلرن» إلى لندن (١٥٣١/ ٤٥٩٧٠) يقول ما نصه:

«أتشرف بأن أبعث إليكم بصورة تقرير سرى كتبه مصدر موثوق على اتصال بنا (كريم ثابت) عن واقعة بطلتها سيدة اسمها «ليلى شيرين» ضُبطت على مدخل جناح الملك «فاروق» فى قصر عابدين، وتحول مشهد ضبطها إلى فضيحة شهدتها الملكة «فريدة» وشاركت فى وقائعها.

إن مصدرنا وثيق الصلة بالقصر - والذى نستطيع الاعتماد بالكامل على صحة روايته، قال «إن الملك «فاروق» كان «بريئا» لأنه لم يكن فى قصر عابدين من الأصل، وإنما كان يقضى الليلة فى استراحته بالفيوم».

يستكمل اللورد «كيلرن» برقيته فيقول:

«إن السيدة التى ضُبطت على مدخل الجناح الملكى اسمها «ليلى شيرين»، وهى سيدة «متسامحة فى الفضيلة» A lady of easy virtue وقيل إنها مصابة باضطرابات عصبية عولجت بسببها فى مستشفى الدكتور «جيلات» للأمراض النفسية فى المعادى. ومن الملاحظ - ولحظوظ الجميع الحسنة - أنه أمكن الحصول على شهادة بعلاجها من مستشفى الدكتور «جيلات» قُدمت إلى النائب العام الذى أصرت الملكة «فريدة» على إبلاغه بواقعة وجود «سيدة غريبة» على باب جناح الملك - قريبا من جناحها!».

يستطرد اللورد «كيلرن» فى تقريره يقول:

«من نتيجة الحادث أن الملكة «فريدة» صممت على طلب الطلاق، قائلة إنها تريد أن تترك القصر وتعيش وحدها مع بناتها وتترك



السفير البريطانى يرسل إلى لندن صورة تقرير سرى كتبه مصدر موثوق على اتصال بالسفارة (كريم ثابت) عن واقعة بطلتها سيدة اسمها «ليلى شيرين» ضُبطت على مدخل جناح الملك «فاروق» فى قصر عابدين، وتحول مشهد ضبطها إلى فضيحة شهدتها الملكة «فريدة»، وشاركت فى وقائعها

«فاروق» يفعل ما يشاء. وكان الملك فى البداية مغتاظا مما جرى ويوافق على إجراء الطلاق فورا، لكن «أحمد حسنين» (باشا) هرع إلى مكتبه عندما عاد من الفيوم يرجوه ألا ينفعل، لأن الأوضاع السياسية الآن (وهو المسئول فيها عن البلد بعد إقالة حكومة «النحاس» (باشا) لا تسمح بمثل ذلك). ونزل الملك فيما علمنا على رأى حسنين، لكننا على ثقة أن موضوع الطلاق سوف يطرح نفسه مرة أخرى، لأن الملكة «فريدة» لم تعد تطيق الحياة مع زوجها. وهو من ناحيته لا يمانع فى طلاقها، معتبرا أنها لم تستطع أن تنجب له ولدا يخلفه على العرش. إن الملكة هائجة على نحو خاص من غرام الملك بالنبيلة «فاطمة طوسون»، والعقبة أن «فاطمة طوسون» عليها أولا أن تحصل على الطلاق من زوجها الأمير «حسن طوسون»، وعندما يطلق الملك زوجته «فريدة»، ويطلق «حسن طوسون» زوجته «فاطمة» فإن عمليات الطلاق المزدوجة سوف تخلق موقفا شديد الحساسية»!



وفى ملفات الحرس الملكى (هيئة ضباط الياوران المكلفين بمرافقة الملك والخدمة المباشرة معه)، تقرير بخط يد الأميرالاى «عثمان المهدى» (بك)، (أو ربما بإملائه على أحد موظفى مكتبه) - ترد الواقعة فى سطور قليلة:

١٢ أبريل ١٩٤٥

«أبلغت صاحبة الجلالة الملكة عن سيدة ادعت أنها من مربيات الأميرات، وتواجدت إلى قرب الجناح الملكى، وعلى الفور تحرك الأميرالاى «عثمان المهدى» وضبط المدعوة «ليلى شيرين»، وتم إبلاغ النيابة بناء على طلب من حضرة صاحبة الجلالة الملكة، وتم اتخاذ اللازم».

لكن السفير البريطانى ما لبث أن بعث إلى لندن - مذكرة أشرف على إعدادها السير «كين بوين» (مستشار وزارة الداخلية المصرية السابق، وكان يدير وقتها شبكة معلومات نافذة إلى صميم الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر) - وكانت المذكرة على النص التالى:

«بعد منتصف الليل يوم ١٢ أبريل ١٩٤٥ لاحظت الوصيفة المناوبة للملكة «فريدة» وهى السيدة «نعمت مظلوم» - (كريمة «أحمد مظلوم» (باشا) وهو صهر لأسرة «حسين سرى» (باشا) وزوجته السيدة «ناهد» خالة الملكة «فريدة») - عندما خرجت من جناح الملكة لتجرى حديثا تليفونيا مع بيتها، أن هناك سيدة ترتدى ملابس السهرة، وتتمشى فى الصالون الملحق بجناح الملك (وكان الباب مفتوحا). واندهشت السيدة «نعمت مظلوم» واقتربت من السيدة الغريبة تستطلع أمرها «من هى؟»، و«ماذا تعمل؟» و«ما الذى جاء بها إلى هنا فى هذه الساعة داخل الجناح الملكى الخاص؟». ثم سألتها بحدة: كيف دخلت؟ وردت عليها السيدة بهدوء قائلة لها: «من الباب طبعا»! ثم بدا أن السيدة الغريبة تريد أن تنصرف بسرعة، لكن «نعمت مظلوم» أمسكت بها، وسمعت الملكة «فريدة» أصواتا غريبة وهرعت نحو مصدرها، وعندما وقع نظرها على

السيدة المذكورة، صرخت الملكة تطلب «مسدسا» من غرفتها، لأنها لابد أن تقتل «هذه المرأة». وتحت التهديد بالقتل اعترفت المرأة الغريبة باسمها «ليلى شيرين»، وذكرت أنها جاءت إلى هنا مرات من قبل عندما كان الملك يدعوها بنفسه أو بواسطة مكتب الشئون الخاصة (مكتب «بوللى» بك)، وقد أبلغوها بأن جلالة الملك يطلبها، وأن كلمة السر فى القصر الليلة هى «المنتزه»!

وتحت تهديد السلاح فى يد الملكة «فريدة» جلست «ليلى شيرين» تكتب بخط يدها اعترافا بعلاقتها مع الملك، وقد أخذته الملكة «فريدة» وهى تقول لنعمت مظلوم «هذه المرأة تقول أيضا إنها حامل من فاروق!».

قالت الملكة أيضا إنها لمحت فى يد «ليلى شيرين» خاتما عليه صورة للملك «فاروق»، واعترفت لها أنها تلقت الخاتم هدية منه.

وفى هذه اللحظة قامت الملكة بإخطار ثلاثة رجال داخل القصر بالواقعة:

- «مراد محسن» (باشا) ناظر الخاصة الملكية.

- «أحمد صادق» (باشا) قائد الحرس الملكى.

- الأميرالاى «عثمان المهدى» (بك) وهو ليلتها الياور النوبتجى المكلف بالخدمة.

ثم اتصلت الملكة بنفسها بعد ذلك برئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا). وأصرت على إبلاغ النائب العام بالواقعة. وكلفت السيدة «نعمت مظلوم» بإبلاغ مأمور قسم عابدين كذلك.

روت الملكة فى اليوم التالى أن كل المسئولين فى القصر كانوا فى حالة ذعر شديد. وأن الأميرالاى «عثمان المهدى» (بك) الياور النوبتجى الذى قال فى تحقيق النائب العام أنه توجه إليها بعد دقيقتين ونصف، لم يصل فى الواقع إلى حيث كانت إلا بعد خمس وأربعين دقيقة - وكان خلال هذه المدة يحاول الاتصال بأحد من حاشية الملك الموجودين معه فى الفيوم لإبلاغه بما جرى، حتى يتلقى «التوجيهات» فى كيفية التصرف.

والظاهر من التحقيقات الأولية أن الملك واعد «ليلى شيرين» على اللقاء مبكرا من أول الأسبوع، وبعد عشاء يحضره مع الوفد المصرى المسافر إلى سان فرانسسكو (للمشاركة فى وضع ميثاق الأمم المتحدة)، ثم حدث أن العشاء أُلغى، ونسى الملك بعد إلغائه موعده الغرامى الذى رتبه بعد ذلك العشاء وذهب إلى الفيوم - وهكذا جاءت «ليلى شيرين فى موعدها» ولم تجده.

وبعد مشاورات بين الحكومة والقصر، تقرر اعتبار «ليلى شيرين» مجنونة، وأمكن استصدار شهادة بذلك من مستشفى الدكتور «جيلات»، وبالفعل أودعت مستشفى الأمراض العقلية.

لكن الملكة «فريدة» لم تكن مقتنعة، وقد أبدت رضاها لأنها حصلت من «ليلى شيرين» على اعتراف كامل يثبت استهانة «فاروق» ليس فقط بكرامتها كزوجة، ولكن بقصر عابدين كمقر للعرش، ثم أضافت «إن فاروق بعد ذلك لا يحق له أن يرفع عينه فيها أو يحاسبها على شيء!».

ولم تسكت الملكة عن طلب الطلاق إلا عندما أقنعها رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا) «أن المصالح العليا للبلد لا تتحمل الآن فضائح». على أن الأمر الذى نستغربه جميعا هو «لماذا اختار «فاروق» قصره الملكى لمواعيده الغرامية، وهو القادر على إيجاد مساحة لغرامياته فى ألف مكان آخر؟!».



وظل موضوع الطلاق بين «فاروق» و«فريدة» واردا بعد ذلك طول الوقت، يكثر الكلام فيه ساعة، ثم يخف ساعة أخرى، حتى جاءت لحظة الحقيقة فى آخر ظرف يتحمل تصرفا من هذا النوع وهو شهر نوفمبر ١٩٤٨، وكان شهرا شديد الخطر بالنسبة لأوضاع الجيش المصرى فى فلسطين، وكانت القوات الإسرائيلية قد استولت على تقاطع الطرق ما بين «مستعمرة نجبا» وحتى «مستعمرة نيتساليم»، وبذلك تمكنت من احتلال شمال النقب، وقسمت الجيش المصرى إلى قسمين كل منهما معزول عن الآخر: المجموعة الضاربة التى يقودها القائمقام «أحمد عبد العزيز» وقيادتها فى بيت لحم، والمجموعة الرئيسية التى يقودها اللواء «أحمد محمد المواوى» وقيادتها فى المجدل على الطريق الساحلى!

وكان ذلك هو الظرف الذى اختاره الملك «فاروق» لإتمام طلاقه، ومعه طلاق ملكى ثان هو طلاق شقيقته «فوزية» من زوجها شاه إيران «محمد رضا بهلوى»!

(وظهر فيما بعد أن الاختيار كان مقصودا بتصور أن الأحداث الكبيرة الجارية فى تلك الظروف كافية لتغطى على أخبار الطلاق الملكى وتحشر موضوعه فى زحام الأحداث).

والمدهش فى الأمر أن الملكة «فريدة» أرادت أن تعرف السفارة البريطانية بالتفاصيل الدقيقة لما جرى معها ساعة الطلاق، وكانت الأميرة «سميحة حسين» ابنة السلطان حسين كامل، (ووالدة وحيد يسرى (باشا))، هى التى دعت المستشار الشرقى فى السفارة السير «والتر سمارت» لتنقل له على لسان الملكة تفاصيل ما وقع لها!

وكتب السير «والتر سمارت» تقريرا عن لقائه بالأميرة «سميحة حسين» مشيرا إلى أن «سموها» أبلغته بالتفاصيل - نقلا مباشرا عن الملكة «فريدة»!

ونص التقرير (٤٨٤ / ٦ / ٥٥٣) كما يلى:

«يوم ١٠ نوفمبر طلب «نجيب سالم» (باشا) مدير الخاصة الملكية مقابلة الملكة «فريدة» على وجه الاستعجال، وأبلغته باستعدادها لمقابلته على الفور فى جناحها الخاص، وجاء «نجيب» (باشا) ومعه ظرف سلمه للملكة، وكانت فيه «ورقة طلاق».

قال لها «نجيب سالم» (باشا) أن «جلالة الملك» يعطيها مهلة شهر لكى تجد لنفسها مكانا تقيم فيه وتخرج من القصر الملكى. وأبلغها أن الملك سوف يحتفظ بحضانة «البنتين الأكبر» (فريال وفوزية). لكن الأصغر وهى «فادية» ستظل فى حضانتها هى حتى تبلغ سن التاسعة، وسوف تتكفل الخاصة الملكية بكل نفقاتها، وهذه النفقات تشمل كل ما هو لازم لأميرة ملكية من الحضانة والتربية والتعليم والخدمة - وهذه إضافة مستقلة عن التسوية المالية مع الملكة نفسها عقب الطلاق.

وتنقل الأميرة «سميحة حسين» إلى السير «والتر سمارت» بالنص:

«إن الملكة «فريدة» شكرت «نجيب سالم» على إبلاغه بهذه الأخبار ولاحظت حرجه وهو يقوم بمهمته، ورجته هى إبلاغ الملك بأن يهتم برعاية «البنات» حتى لا يتحولن إلى «بغايا مثل عماتهن!» So they do not become prostitutes like their aunts..

وخرج «نجيب سالم» (باشا) مهرولا من جناح الملكة، لكن «أنتونى بوللى» (بك) مدير الشئون الخاصة للملك ما لبث أن وصل إلى جناحها مهرولا يقول إنه يريد جلالتها لكلمة واحدة.

وتنقل الأميرة «سميحة حسين» عن «فريدة» بالنص:

«قال بوللى أنه يحمل رسالة ذات طابع سرى من الملك، وهى أن جلالته يريد منها أن تسلم التاج الذى كان فى عهدتها، وأن تسلم أيضا كافة المجوهرات التى تلقتها منه عند الزواج أو فى مناسبة الزواج، لأن تلك كلها متعلقات ملكية.

وردت «فريدة» بأنها سوف تسلمه التاج الآن، على أنها تريد لفت نظره إلى أن هناك ماسة ضائعة فيه، وأنها تتكفل بشراء بديلة لها توضع مكانها. ثم قالت إنه بالنسبة للهدايا التى جاءتها من الملك عند الزواج أو فى مناسبته فتلك أشياء تملكها هى الآن، وأبلغها بوللى أن جلالة الملك مصمم على طلبه، وقامت «فريدة» غاضبة وجاءته بكل ما كان عندها قائلة له «إنه عندما تهدأ أعصاب فاروق فإنها تريد أن تجلس معه على انفراد لحديث طويل».

ذكرت الأميرة «سميحة حسين» «أن الملك «فاروق» كان قد أطلق اسم «فريدة» على «تفتيش زراعى» ملكه مساحته ١٧٠٠ فدان، وسماه فعلا باسم «الفريدية»، لكنه لم يتخذ بعد «الاسم» أية إجراءات، ومن الظاهر أن هذا التفتيش سوف يضيع على الملكة. كذلك أشارت الأميرة «سميحة حسين» إلى أن الملك كان قد أهدى إلى الملكة «فريدة» قصرا قدمه له ابن عمته «محمد طاهر» (باشا) وهو قصر الطاهرة، لكن «فاروق» لم ينقل «عقد الهبة» إلى «فريدة»، وظهر أن هدية ابن عمته له موثقة، وأما هديته إلى زوجته فقد كانت شفوية. وبذلك فإن الملكة سوف تخرج بأقل القليل بعد إتمام الطلاق!».

وصباح ١٧ نوفمبر ١٩٤٨ خرجت الصحف المصرية، وتناقلت عنها وسائل الإعلام العربية والأجنبية - بلاغين صادرين عن ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك:

- البلاغ الأول يعلن طلاق الملك «فاروق» من الملكة «فريدة»، والسبب «أن حكمة الله وإرادته اقتضت وقوع الانفصال بين الزوجين الكريمين».

- والبلاغ الثانى يعلن طلاق «الأميرة فوزية» من زوجها «محمد رضا بهلوى» شاه إيران، والسبب «ما ثبت من أن مناخ طهران لا يلائم صحة الأميرة المصرية التى تحملت ذلك المناخ حتى اعتلت صحتها، ولم يعد فى مقدورها الاستمرار!».

شكرت الملكة «فريدة» «نجيب سالم» على إبلاغه لها بطلاقها من «فاروق» ولاحظت حرجه وهو يقوم بمهمته، ورجته هى إبلاغ الملك بأن يهتم برعاية «البنات» حتى لا يتحولن إلى «بغايا مثل عماتهن!»



وفى اليوم التالى دعى «مجلس البلاط» إلى اجتماع عاجل لبحث مسألة طرأت للملك «فاروق» وهى ضرورة إصدار فتوى أو قرار شرعى يمنع الملكة «فريدة» من الزواج مرة أخرى فى حياتها، ويجعل مثل هذا الزواج باطلا مهما كانت ظروفه. وكان داعى الملك إلى هذا الطلب أنه سمع خبرا عن احتمال أن تتزوج «فريدة» من «وحيد يسرى» (باشا)، وقد أراد أن يسبق احتمالات مثل هذا الزواج ويحول دونه.



على أن أغرب ما تكشفه التقارير أن الملك نفسه فى ذلك الوقت كان يريد أن يتزوج مرة أخرى، والعروس التى وضع عينه عليها هى ذاتها النبيلة «فاطمة طوسون»، وقد تصور أن الطريق إليها الآن مفتوح، لأن زوجها النبيل «حسن طوسون» توفى بنوبة قلبية. والأشد غرابة أن الملك كان يعرف أن النبيلة «فاطمة طوسون» التى كانت تعيش فى باريس بعد أن أصبحت أرملة ـ وقعت فى حب كونت برتغالى واسع الغنى، وكان لديهما مشروع زواج توقف فى منتصف الطريق، لأن النبيلة أصرت على إشهار إسلام الكونت البرتغالى شرطا لإتمام الزواج، ومن جانبه فقد وجد الكونت صعبا عليه التخلى عن مسيحيته، لئلا تكون من ذلك مشكلة لأسرته!

وتكتب السفارة البريطانية فى القاهرة (٤٨٤/٧/٥٥٣) و(١٣٠٣/١٤١) تقارير إضافية:

«لقد ظهر أن التقارير التى وصلتنا عن زواج النبيلة «فاطمة طوسون» من كونت برتغالى سابقة لأوانها، لأن النبيلة ترددت فى النهاية بسبب عدم رغبة خطيبها فى تغيير دينه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنها تخشى إذا تزوجت من غير مسلم أن تفقد حقوقها، وفيها اللقب الملكى!».

لكن الملك «فاروق» كان أسرع من توقعات السفارة البريطانية، وكان مذهلا أن الملك «فاروق» ركز اهتمامه ذلك الشهر الحاسم فى التاريخ المصرى ـ وهو ديسمبر ١٩٤٨ ـ على ترتيب زواجه من النبيلة «فاطمة طوسون»، وكانت أحكام القدر أقوى من رغبات الملوك. والذى حدث أن الملك أوفد ممثلا خاصا له إلى باريس هو «فؤاد شيرين» (باشا)، محافظ القاهرة وقتها، والهدف الظاهر من رحلته تمثيل مصر فى المؤتمر العالمى للبلديات، لكن المهمة الحقيقية وراء الظاهر أن يتفاهم مع النبيلة «فاطمة طوسون» على موضوع زواجها المحتمل من «فاروق». وكانت ميزة «فؤاد شيرين» (باشا) أنه عميد أسرة يربطها نسب مع «فاطمة طوسون».

وسافر «فؤاد شيرين» (باشا) إلى باريس، وقابل النبيلة «فاطمة طوسون» وفاتحها فى موضوع عودتها لتصبح الملكة الجديدة لمصر ـ وكانت المفاجأة أنها اعتذرت لأن «المشكلة التى كانت تعطل زواجها من الكونت البرتغالى أمكن حلها، وأنهما سوف يتزوجان فى ظرف أسابيع قليلة».

وفشلت مهمة مبعوث الملك فى باريس، وكانت الصدمة ثقيلة الوقع على ملك مصر، الذى حاصرته الهموم العامة والخاصة.



كان ديسمبر ١٩٤٨ مازال يفرض نفسه كشهر تحولات وتغيرات كبرى فى التاريخ المصرى الحديث.

● القوة الاستعمارية الكبرى التى سيطرت فى مصر أكثر من سبعين سنة ـ تتراجع ببطء أمام الإمبراطورية الأمريكية الجديدة ـ ومصر التى استبانت هويتها العربية وانتماءها ـ وجدت نفسها داخلة فى معركة عسكرية ذات طابع قومى لأول مرة فى تجربتها الوطنية ـ وفى خضم هذه المعركة فإن الحدود المصرية اخترقت بواسطة قوة محلية قامت فجأة فى الجوار.

● وبالتوازى فإن المعادلة الثلاثية لحركة السلطة فى مصر وهى موزعة بين: الإنجليز ـ والملك ـ والوفد، تباطأت وتصادف أن التباطؤ وقع والزمام فى يد القصر، وعلى العرش ملك شاب كانت لديه طموحات فى وقت من الأوقات، لكن الرياح دفعته بعيدا عن آماله، ثم وجد نفسه مطلق اليد فى الشأن الداخلى المصرى، وبينما هو متورط بأكثر مما هو صحى لملك، وحتى لإنسان، فقد صمم على معاداة حزب الأغلبية فى البلاد ـ إلا أن تفرضه عليه دبابات الاحتلال البريطانى، ودبر اغتيالات لبعض خصومه السياسيين بواسطة ضباط من جيشه شكل منهم مجموعات تتربص فى الظلام وتطلق الرصاص وتفجر القنابل.

● ولم يكن حزب الوفد بعيدا عن هذه التحولات والتغييرات، بل إن التغيير الذى لحقه كان الأكثر والأعمق نفاذا، لأن ذلك الحزب كان ممثل الأغلبية الشعبية. ومع أن الانقسامات المتوالية فى صفوفه أخذت منه بما أثر فى حجمه، إلا أنه ظل الأكبر ولو نسبيا، ومع أن صراعا عنيفا دار على عقل الوفد وفكره، احتدم حول «مصطفى النحاس» (باشا) ـ ثم إن العقل والعاطفة كُتب لهما الانتصار بما لهذا الانتصار من تكاليف ـ إلا أن الأمل تعلق برجاء أن تؤدى صفعة الإقالة إلى تنبه ويقظة يستعيد بهما الحزب ليس عقله وفكره فقط، وإنما روحه وضميره أيضا (بعد التجربة المريرة فى زمن الحرب ومزالقها وكتبها السوداء!).

ولم تكن الظروف مواتية!

كان «مصطفى النحاس» (باشا) هو الرجل الوحيد القادر على إنقاذ روح الوفد وضميره، واستعادة عقله وفكره، لكن ذلك الرجل لم يكن فى أحسن أحواله كما تكشف الشهادات والوثائق، وتدل التوجهات والتصرفات:

● وبداية ـ فإن الرجل كان مرهقا من الناحية الصحية والنفسية، فهو يقترب حثيثا من سن السبعين، وسنوات النضال خصمت ضرائبها من حيويته، وأدوية الكلى والأمعاء المتطورة لم تجئ فى وقت ينفعه بحيث تخفف أو تشفى.

● وكان أقرب أصدقاء العمر (وآخرهم «مكرم عبيد» (باشا)) قد تركوه وابتعدوا عنه، ومع أنه كان يملك من القوة الفعلية ما مكنه من



كان «مصطفى النحاس» (باشا) هو الرجل الوحيد القادر على إنقاذ روح الوفد وضميره، واستعادة عقله وفكره، لكن ذلك الرجل لم يكن فى أحسن أحواله

طردهم جميعا من حزب الوفد واحدا بعد الآخر، فإن جزءا من ذاكرته كان يموت مع كل خروج، وكان موت الذاكرة أشد قسوة عندما خرج «مكرم عبيد» (باشا).

● وكانت كراهيته للملك قد زادت بعد أن تكررت محاولات الحرس الحديدى (الملكى) لاغتياله بواسطة كمين ترصده (بقيادة الصاغ أنور السادات) فى شارع القصر العينى سنة (١٩٤٦)، وأطلق الرصاص على سيارته وهو فيها ونجا بشبه معجزة، عندما حال مرور حافلة ترام فى آخر لحظة بين سيارته وبين الرصاص. وتكررت المعجزة مرة ثانية سنة (١٩٤٨) حين قامت مجموعة من الحرس الحديدى (يقودها الصاغ أنور السادات أيضا) بتفجير سيارة مفخخة بجانب سور بيته، وتحت الموقع الذى توجد فيه غرفة نومه، وتهدمت الجدران، وتساقط الأثاث، وطارت الحجارة طائشة، لكن المقادير حمت الرجل من قطعة زجاج كبيرة كان يمكن أن تصيبه لولا سقف «ناموسية» فوق سريره صدها عنه ومنع وصولها إلى جسده وهو نائم لا يستطيع أن يتوقى الخطر!

ولم تمض أسابيع حتى تكررت المحاولة مرة ثالثة، وقامت مجموعة مسلحة من الحرس الحديدى بإطلاق الرصاص على «النحاس» (باشا) وهو يدخل بيته ومعه «فؤاد سراج الدين» (باشا)، ونجا الاثنان من القتل، لكن ثلاثة من الحراس صرعهم الرصاص أمام المستهدفين به (وكان ذلك فى شهر ديسمبر بكل ما دهم مصر فيه من أهوال)!

● وبعد إقالة وزارته فإن «النحاس» (باشا) أصبح ممرورا ومحسورا، يحسب أن الإنجليز ورطوه، ثم تخلوا عنه وتركوه للعدو المشترك، وهو ذلك «المجنون» (بتعبير النحاس باشا)، الجالس فى قصر عابدين. وكان أكثر ما حزَّ فى قلب «النحاس» (باشا)، أن الإنجليز ـ وبالذات حزب العمال الذى جاء إلى الحكم بعد المحافظين ـ تركوا لفاروق رخصة التصرف دون حسيب أو رقيب، وكذلك وقع اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، وتكررت محاولات اغتياله هو نفسه، والأسوأ أن صديقه الكبير وعدو الملك ـ السفير البريطانى العتيد السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن) ـ نُقل من منصبه فى مصر وأُرسل (شبه مُعاقب) إلى منصب وهمى اختُرِعَ له، وهو الإشراف على الولايات الأفريقية العازلة بين روديسيا (زيمبابوى الآن) وبين جنوب أفريقيا.

● فوق ذلك كله كان فارق السن بينه وبين قرينته «زينب (هانم) الوكيل» يحدث آثاره ـ متزايدة ومتسارعة. ففى الوقت الذى راح هو (قُرب السبعين) يمشى على الجسر من الكهولة إلى الشيخوخة ـ كانت هى فى الخامسة والثلاثين على ذروة الشباب والنشاط. ولم يكن فى مقدور «النحاس» (باشا) أن يلزم زوجته بإيقاع حياته، فهو لم يعد يخرج ولا أصبح قادرا على الحياة الاجتماعية لأشهر سياسى فى مصر، بما يتطلبه ذلك الوضع من زيارات ودعوات ومجاملات، وكذلك اضطر الرجل أن يترك مساحة واسعة لقرينته، وبالتالى فإن مقتضيات الظروف باعدت بينهما، وكان ذلك يضايقه لكن الضيق لا يظهر عليه، وإن انعكس

مرات على تصرفات قصد أن يُظهر فيها السعادة، فإذا بها تكشف التكلف.

....

....

[وقد رأيت بعضا من ذلك بنفسي أثناء مرتين تناولت فيهما الغداء على مائدة «النحاس» (باشا) في بيته، وكنت قائما في ذلك الوقت على تحرير مجلة «آخر ساعة»، وكان صاحبها الأستاذ «محمد التابعي» قد سافر على عجل إلى أوربا حتى لا يتعرض لانتقام «مكرم عبيد» (باشا) الذي أصبح وزيرا للمالية ومسيطرا على توزيع حصص الورق على الصحف. وكان سبب قلق الأستاذ «التابعي» أنه كُلف بالرد على ما جاء في «الكتاب الأسود»، وقام بالمهمة في سبع مقالات عنوانها «نحن نقدم الدليل على أن مكرم عبيد كذاب». وفي غياب الأستاذ «التابعي» قامت «آخر ساعة» بحملة على الوزير الأستاذ «السيد سليم» وهو من كتلة «مكرم عبيد» بسبب تصرفات جرت في وزارته. وكانت سعادة «النحاس» (باشا) غامرة لأن المجلة فتحت النار على أحد وزراء «مكرم» (على حد ما قاله الأستاذ «محمود سليمان غنام» وهو يبلغني رضا «رفعة الباشا» عن «آخر ساعة»). ويظهر أن «النحاس» (باشا) بمشورة في الغالب من الأستاذ «محمود سليمان غنام» (باشا) أراد تشجيع «آخر ساعة» على مواصلة ما بدأته، وهكذا وجدت نفسي على مائدة «رفعة الباشا» مرتين، ثم توقفت الدعوات لأن الأستاذ «التابعي» باع مجلة «آخر ساعة» إلى دار «أخبار اليوم» (وتلك قصة طويلة أخرى!).]

....

....

ونتيجة لظروف «النحاس» (باشا) فإن حزب الوفد لم يعد فيه غير «فؤاد سراج الدين» (باشا)، والحاصل أن «فؤاد سراج الدين» كان شابا ذكيا طموحا، حلو المعشر، مجاملا، حافظا عن ظهر قلب للخريطة الاجتماعية في مصر وعائلاتها - إلا أنه وبكل شيء في تفكيره ومظهره وتصرفه، أقرب إلى شخصية كبار الملاك منه إلى زعماء الأحزاب، فضلا عن الأحزاب الشعبية العاملة وسط أوسع الجماهير، وبالطبع فإن حسه الاجتماعي متأثر بالوضع الطبقي لأسرته، ثم إن معرفته بالشأن الإقليمي والدولي محصورة بظروف تجربته.

وفي نفس الوقت فقد كان الباقون القُدامى في حزب الوفد مثل (زكي العُرابي - وحمدي سيف النصر - وعبد السلام جمعة - وعبد الفتاح الطويل) - رجالا تهيأوا ليبقوا في الصف الثاني - ولم يتجاوزوه!

وكان وراء هؤلاء في الحزب جيل جديد ظهر، لكنه بعيد - لا يزال - عن مواقع التأثير والفعل، وأبرز رموز هذا الجيل رجل مثل الدكتور «محمد صلاح الدين»، ثم بقايا من الجناح اليساري للحزب تابعت الدكتور «عزيز فهمي» وتفرق شملها حين غيبه الموت مبكرا.

فضلا عن ذلك كان هناك قادمون دعاهم وشجعهم رجال مثل «نجيب الهلالي» (باشا)، وقد ظهر هؤلاء القادمون بعد خروج «نجيب الهلالي» من الوفد، وبقوا فيه بلا سند، وكان هذا الجيل الجديد يضم عددا من أساتذة

في أغسطس عام ١٩٤٨ - استطاع «فؤاد سراج الدين» (باشا) تحقيق مطلبه الأول، فأصبح سكرتيرا عاما للوفد. وفي أواخر تلك السنة (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) - أصبح «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد والمتحدث باسم «مصطفى النحاس» (باشا) في اتصالات ومواقف معقدة وسط ظروف أكثر تعقيدا!!

الجامعات مثل الدكتور «حامد زكي» - على أن هؤلاء كانوا طوارئ على الحزب، لم يندمجوا بعد فيه، ولم يحصلوا على اعتراف واسع بهم داخل تنظيماته ولجانه.

وهكذا فإن الأبواب اتسعت أمام «فؤاد سراج الدين» (باشا) باعتباره الأظهر والأقرب في محيط «النحاس» (باشا)، والأكثر تأثيرا في هذا المحيط. وبالطريقة التي راح «فؤاد سراج الدين» يتحرك بها، فإن أحدا لم يساوره شك في أن هذا النجم الصاعد يرتب نفسه لمكان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتيرا عاما للوفد، ولمكانة «مصطفى النحاس» (باشا) على رئاسته.

وفي أغسطس ١٩٤٨ - استطاع «فؤاد سراج الدين» (باشا) تحقيق مطلبه الأول، فأصبح سكرتيرا عاما للوفد. وفي الظروف المصرية مما أحاط بمصر كلها في أواخر تلك السنة (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) - أصبح «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد والمتحدث باسم «مصطفى النحاس» (باشا) في اتصالات ومواقف معقدة وسط ظروف أكثر تعقيدا!



كان الملك «فاروق» بنتيجة لحالة الاضطراب العام التي عاشتها مصر وعكست نفسها في ظواهر يراها كل الناس ابتداءً من ضعف الوزارات، وحوادث الاغتيالات، وإضراب البوليس، ونشوب حرب فلسطين، وتطورات هذه الحرب، وتراجع الدور البريطاني وتقدم الدور الأمريكي - يحس بالقلق وربما بالخوف، وكذلك بدأ يفكر في إزاحة المسئولية عن كاهله، ووصل في ذلك إلى درجة التفكير في تأليف حكومة ائتلافية أو حكومة وحدة وطنية، يكون عليها أن تواجه موقفا يتدهور بسرعة لم يكن يتصورها.

وفي إطار التفكير في مثل هذه الحكومة، كان طبيعيا أن يكون اشتراك الوفد موضع بحث، وكان البحث بالطبع يجري مع سكرتير عام الحزب، خصوصا وهو الأظهر والأقرب في محيط «النحاس» (باشا)، برغم أن العقبة الرئيسية كانت ومازالت شخص «مصطفى النحاس» (باشا).

والحقيقة أن الملك «فاروق» لم يكن يمانع في تأليف وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية، شريطة أن لا يكون رئيسها «مصطفى النحاس» (باشا) - فالكراهية مستحكمة بين الرجلين: أولهما وهو الملك «يحس» في صميم قلبه أن «النحاس» أهانه (في ٤ فبراير ١٩٤٢ وقبل ذلك اليوم وبعده) - وفي المقابل فإن «النحاس» (باشا) عارف بيقين أن الملك حاول قتله بكل وسيلة (بالرصاص مرات وبالسيارات المفخخة مرة).

والنقطة الحرجة في موضوع وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية، أنه إذا جاء وقتها فهي لا تكتسب صفتها المطلوبة إلا باشتراك الوفد - لأن الوفد دون جدال هو أكبر الأحزاب، وبالتالي فإن رئاسة هذه الوزارة لابد أن تكون لزعيمه أي «مصطفى النحاس» (باشا). ويتصل بذلك أن أي وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية هي وزارة مهمة محدودة لها أجل، وبعده فإن الانتقال الطبيعي يكون إلى انتخابات عامة. ومعنى ذلك ومؤداه أنه إذا جاءت وزارة ائتلاف أو وحدة وطنية في سياق الأوضاع الراهنة، فلابد أن يرأسها «النحاس» (باشا) وهو مازال شخصا غير مقبول - فإذا انتهت مهمة هذه الوزارة وحل أجلها بإجراء انتخابات عامة، فإن حصول الوفد على الأغلبية مؤكد وبطريقة ساحقة، ورئاسة «النحاس» (باشا) للوزارة بعدها، حتمية قد لا يمكن تفاديها أو الدوران حولها.

وتلك هي المعضلة.



ولم يكن الملك «فاروق» وحده المصاب بالقلق لما آلت إليه الأحوال - بل كان هناك غيره أصيبوا بالأرق إلى جانب القلق، لأنهم أصحاب مصالح حقيقية في مصر يخشون عليها ويحرصون على ضمانها، ولذلك كان اقترابهم من السياسة - منطقيا. وفي الظروف الطارئة فإنه أصبح حيويا - وكان أول هؤلاء هو المالي الكبير «أحمد عبود» (باشا).

كان «عبود» (باشا) رجلا عالي الكفاءة في مجال الأعمال، وكان يقول عن نفسه إنه «يلمس التراب فيحيله ذهبا» - غير أنه كان يعرف أن تحويل التراب إلى ذهب يحتاج إلى حماية تسبق وتجاري وتلاحق حركة الذهب! - وهنا كانت في حاجة إلى القرب من السلطة إلى أي درجة يستطيع بلوغها.

....

....

[وقلت مرة لعبود (باشا): «إنه رجل يستحيل عليه أن يكون ملكا لأنه لا يحوز المواصفات اللازمة - لكنه يحلم بمقدرة صنع الملوك لأنه يحوز المصالح الملزمة، وذلك وضع شديد الخطر على البلد وعليه أيضا!

وقد سمعني الرجل مطرقا برأسه متأملا!]

....

....

ولم يكن «عبود» (باشا) وفديا، فهو لم ينتم سياسيا، لكن ميله بالمصلحة كان إلى هذا الحزب، والسبب في الغالب هو أن ذلك الحزب هو القادر أكثر من غيره على توفير «الاستقرار» السياسي على الأقل بهيبة الشرعية. وكان القصر (حتى أيام الملك فؤاد) يشك في توجهات «عبود» (باشا) ومساعيه، ولعل ذلك في جزء منه كان يرجع إلى التناقض الطبيعي بين «الملوك» و«الأثرياء». والأثرياء في أوطانهم خصوصا عندما يزيد الثراء وتتجلى مظاهره، فإن الغنى القديم والموروث - يحس بنوع من الغيرة إزاء الغنى الطارئ الذي يعلن عن نفسه متباهيا وأحيانا مستفزا!

وتحفل الوثائق البريطانية سنة ١٩٤٤ بتفاصيل جهود يقوم بها «عبود» (باشا) في لندن للحيلولة دون السماح للملك بإقالة «النحاس» (باشا). وفي رسائل عديدة بتوقيع رئيس القسم المصري في وزارة الخارجية تلك الأيام مجموعة رسائل يقول فيها «بيتر سكريفنر» أن «عبود» (باشا) قدَّم نفسه باعتباره مكلفا من «النحاس» (باشا) (شخصيا).

وطوال السنوات التى تلت إقالة حكومة «النحاس» (باشا) وحتى سنة ١٩٤٨، كان «عبود» (باشا) يتصل ويدعو لعودة الوفد إلى الحكم. لكنه عندما بدأ يتحرك عمليا فى ظروف مواتية لأفكاره، ظهر أن مرجعه فى الوفد هو «فؤاد سراج الدين» (باشا) ـ وكان اللقاء بين الرجلين حقيقة أشياء.

فالمالى الباحث عن «الاستقرار السياسى» ويجده فى الوفد ـ لا يرى أمامه فى هذا الحزب ـ مع نهاية الأربعينيات ـ غير «فؤاد سراج الدين» (باشا).

ثم إن المالى الراغب فى العمل السياسى من وراء الستار، يجد أرضية مشتركة مع نجم طالع، حتى وإن كان يمارس نفوذه فى الوفد من وراء الستار.

يضاف إلى ذلك أن الوفرة فى الثروة جامع بين الاثنين ـ ثم إن مشروعات رأس المال تستطيع أن تلتقى بسهولة مع مشروعات النفوذ السياسى، خصوصا عندما تكون السياسة فى صالونات «الأوبيبسون» وبعيدا عن سرادقات الفراشة التى لا تفرق بين مهرجانات فيها أو جنازات!

كذلك فإن «فؤاد سراج الدين» (باشا) اقترب لبعض الوقت ـ ولم يبق طويلا ـ من تقليد أن أبناء كبار الملاك الزراعيين فى الريف يستكملون وجاهة المدن بعضوية مجالس إدارة الشركات المالية والصناعية، وهنا فإن شركات «عبود» (باشا) مقصد وموقع.

وهكذا فإنه طوال سنة ١٩٤٨ كان «أحمد عبود» (باشا) يراهن على حزب الوفد ـ وفى داخل حزب الوفد، فقد كان موضع رهانه هو موقع «فؤاد سراج الدين» (باشا)، وأكثر من ذلك فإن «عبود» (باشا) رفع قيمة الرهان، ووصل إلى حد وضع الرصيد كله على رئاسة «فؤاد سراج الدين» لوزارة وفدية يباركها «النحاس» باشا) ويرعاها من بعيد. والغريب أن «عبود» (باشا) لم يخف فى كل اتصالاته ومساعيه تلك الأيام أن «فؤاد سراج الدين» يستطيع أن يجعل «النحاس» يوافق على وزارة وفدية لا يرأسها بنفسه، وإنما ينوب عنه فى رئاستها «فؤاد سراج الدين»!



ومن الصعب تحديد مدى الدور الذى لعبه «عبود» (باشا) لصالح عودة الوفد إلى الحكم، فقد كان يقدم حججه للقسم المصرى فى وزارة الخارجية البريطانية عادة، إلى جانب مرة واحدة أتيحت له الفرصة لمقابلة وكيل الوزارة السير «ألكسندر كادوجان»، وعندما كان يزكى الوفد فإنه كان يشير إلى أن تلك هى النتيجة الحتمية لانتخابات حرة، ومع ذلك فإن سامعيه لم يصدقوا أن الرجل كان نصيرا قويا للديمقراطية، ومن المفيد قراءة تقرير كتبه السفير السير «رونالد كامبل» عندما كان رئيسا لقسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية وقابل «عبود» (باشا) بناء على توصية من السفارة البريطانية فى القاهرة، فيقول «سمعنا منه حكاياته المعتادة، فهو يزكى الوفد، ولا يكره الملك، وإنما يقول أن الحاشية المحيطة به تعطيه كل النصائح السيئة ـ استمعت إلى «الباشا» و«طبطبت» على ظهره، شاكرا له الهدايا التى جاء بها معه وانصرف من مكتبى كما أظن ـ شديد الرضى!».

وتكتب السفارة فى القاهرة برقية إلى لندن تحاول فيها إظهار أن «عبود» (باشا) «يستحق ما هو أكثر من «الطبطبة» على ظهره»، ويقول السفير:

«إننى أظن أن الرجل يستحق كلمة تقدير منكم، فقد تبرع لصندوق النصر Victory Fund (وهى تبرعات من الأفراد، تجمع من بلدان الإمبراطورية) أكثر من مرة، وقد أعطى أخيرا مبلغ خمسين ألف جنيه إسترلينى، وقبلها تبرع بخمسة وعشرين ألف جنيه إسترلينى لصالح عمال النقل البريطانيين، ولابد أن تلاحظوا أن هذه التبرعات لنا لا تعجب القصر، والرجل يعرف ذلك، ولا يبالى».

ورد القسم المصرى من لندن يقول «لا نعرف ما الذى نستطيع أن نفعله لعبود أكثر من أن نصغى إليه وهو يتكلم، حريصين على أن لا يسمع منا ما يسهل «تأويله». ويضيف القسم المصرى فى برقية أخرى من لندن «أن الرجل يحس أن لديه ما يقوله لنا وهو على استعداد لأن يقوله، ولكنه يريد منا أن نعطيه الإحساس بأننا نسأله. وقد قال صراحة أنه سوف يتكلم فى القاهرة على أساس أننا سألناه رأيه».

ويكتب (رئيس القسم المصرى وقتها «نيفل بتلر») يقول: سألنى عبود سؤالا ـ قال لى أنه سأله لسفيرنا فى القاهرة، ملخصه «أنه لا يفهم السبب الذى يدعونا الآن إلى الامتناع عن التدخل فى الشأن المصرى. ذكرنى بأننا تدخلنا فى اليونان وفى بلغاريا وفى رومانيا، وأظهرنا إصرارنا على ضرورة إجراء انتخابات حرة فى مصر مع وجود لجنة دولية تشرف عليها»، وقلت لعبود «إن الأمثلة التى ذكرها مختلفة فتلك الأمثلة التى ذكرها كانت لدول خضعت لأعدائنا، وعندما تحررت كان فى مقدورنا أن نملى عليها إرادتنا ـ والفارق الثانى أننا فى تلك البلدان لم نتصرف وحدنا وإنما تصرفنا ومعنا حلفاؤنا، والمثال الظاهر بالفعل لذلك ما حدث فى اليونان»!

أضاف «عبود» (باشا) قائلا «إننا نحتاج إلى اتفاق مع مصر وأى اتفاق لا يحمل توقيع الوفد لا تكون له أية قيمة!».

والمشكلة أن المصريين من أصدقاء «عبود» (باشا) فى القاهرة ليسوا على علم بدخائل الأمور، وكل ما يبدو لهم أن «أغنى رجل فى مصر» يسافر إلى لندن ويذهب إلى وزارة الخارجية، وبالطبع يسمع ويتكلم، وإذن فهو على اتصال وما يقوله مسنود بعلم مطلع على بواطن الأمور.

والآن كان «عبود» (باشا) يضع ثقله وراء «فؤاد سراج الدين»، والمطروح هو مواجهة الظروف المتدهورة إما بوزارة ائتلافية وإما بوزارة وحدة وطنية يشارك فيها الوفد برئاسة رئيس وزراء محايد «ومقبول من الملك»، والأسماء المرشحة لرئاسة هذه الوزارة: «شريف صبرى» (باشا) ـ «على الشمسى» (باشا) ـ «حسين سرى» (باشا)، ثم إن هذه الوزارة الائتلافية أو وزارة الوحدة الوطنية يمكن أن تتولى تحديد بعض قضايا الإجماع



طوال سنة ١٩٤٨ كان «أحمد عبود» (باشا) يراهن على حزب الوفد ـ وفى داخل حزب الوفد، فقد كان موضع رهانه هو موقع «فؤاد سراج الدين» (باشا)، وأكثر من ذلك فإن «عبود» (باشا) رفع قيمة الرهان، ووصل إلى حد وضع الرصيد كله على رئاسة «فؤاد سراج الدين» لوزارة وفدية يباركها «النحاس» باشا) ويرعاها من بعيد

الوطنى وتعقد اتفاقا بشأنها، وبعدها تشرف على انتخابات حرة تكون نتيجتها وزارة وفدية بالطبع، ثم تكون هذه الوزارة الوفدية برئاسة «فؤاد سراج الدين» بقبول وتأييد من «النحاس» (باشا).

وفى أجواء الشك والتردد كتب «تشابمان أندروز» الوزير المفوض فى السفارة ـ والذى أصبح الدينامو المحرك لنشاطها طوال سنتين حافلتين بالتخبط والاضطراب ـ تقريرا طلب من وزارة الخارجية فى لندن اطلاع مدير المخابرات فى الشرق الأوسط الجنرال «كلايتون» عليه، وفى ذلك التقرير قال «تشابمان أندروز»:

«قابلت «إدجار جلاد» (باشا) صاحب جريدة الجورنال ديجيت، و(هو مقرب من القصر)، كما أن شقيقه «فيليب جلاد» (باشا) يشغل وظيفة (رئيس القلم الأفرنجى كما كان يُطلق على إدارة العلاقات الخارجية فى القصر الملكى). وكان «إدجار جلاد» مسافرا إلى باريس فى مهمة أبدى لى أنه ليس مرتاحا لها، لكنه مضطر إلى أدائها، وإلا اعتبره الملك «فاروق» متهربا من الخدمة، والمهمة أن الملك يريد توزيع هدايا مالية على بعض الصحفيين الفرنسيين (الذين بدءوا يهاجمونه) ـ سألنى «جلاد» إذا كان «هيج» (الملحق الصحفى) يستطيع مساعدته مع الصحفيين البريطانيين، وأبديت له صعوبة تحقيق طلبه.

قال لى «جلاد» (باشا) أن «فؤاد سراج الدين» اتخذ خطا يجعل القصر يشعر بالثقة فيه وفى تأكيداته بأن الوفد لن يتصرف بروح الانتقام إذا عاد إلى السلطة. قال : «جلاد» إن الأهم من ذلك هو ما إذا كان «فؤاد» يستطيع تنفيذ تعهداته باسم «النحاس»، أو أن «النحاس» حين تجىء أغلبية وفدية سوف يتصرف كما فعل كل مرة وينشر الوفديين على وجه السرعة فى كل الإدارات الحكومية ويسعى للسيطرة على البوليس ـ وحتى على الجيش ـ ويصبح بمثابة ديكتاتور. قال «جلاد» نقلا عن كتاب «فنسنت كيرول»: «مأساة مصر أن الملك يريد أن يحكم، و«النحاس» يريد أن يملك!».

أبلغنى «جلاد» أنه تلقى دعوة على الغداء مع «فؤاد سراج الدين» (باشا) ولا يظن أنه سوف يقبلها لأن هؤلاء الوفديين لا يمكن الثقة بهم على الأقل حتى الآن!».

وتمر أيام قليلة ويكتب «تشابمان أندروز» مذكرة جديدة إلى الخارجية البريطانية:

«التقيت بفؤاد سراج الدين فى بيت «عبود» (باشا) وتحدثت معه لمدة ساعة، ودعوته إلى العشاء فى بيتى هذا الأسبوع، وهذه هى المرة الأولى التى يقبل فيها سكرتير عام الوفد أن يذهب إلى بيت عضو من أعضاء السفارة منذ خروج الوفد من السلطة قبل أربعة أعوام، وأنا أنوى أن أحافظ على هذه الصلة، وأتخلى عن التحفظ الذى اتبعناه فى التعامل مع أقطاب المعارضة المصرية وكأنهم مصابون بالجذام. إن الوفديين خدمونا خدمة جيدة أثناء الحرب، ومازالوا يعلنون صراحة أنهم حلفاؤنا، ونحن

لم نحصل على شيء من جراء تعاملنا مع الحكومات الممثلة للبرلمان الحالى. وبصرف النظر عما يبديه الملك «فاروق» من حُسن النوايا، فإن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر، والبرلمان الحالى تنتهى مدته الدستورية بعد شهور قليلة، وأنا أشك أنه حدث منذ سنة ١٨٨٢ (سنة الاحتلال البريطانى) - أن المصريين تصرفوا بهذه اللامبالاة إزاء حكومة مصرية، وأعتقد أن الشعب لا يمكن أن يواصل هذا الرضوخ، بل إنى أعتقد أن هناك انفجارا رهيبا قادما، وما أخشاه أن القوة التى سيطلقها هذا الانفجار ستكون بطبيعتها وقوتها مفاجئة لطرفين تقوم بينهما الآن فجوة عميقة وهما القصر والوفد!



ويواصل «تشابمان أندروز» برقياته وهو يوجهها بقصد للخارجية وللمخابرات فى نفس الوقت:

«أبلغنى «عبود» ليلة أمس أن «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) (خليفة النقراشى باشا)، طلب منه أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الوفد، ويرتب له مقابلة مع «فؤاد سراج الدين». نقل «عبود» طلب «عبد الهادى» إلى «سراج الدين» الذى لم يكن متحمسا، ولكنه طلب من «عبود» (باشا) أن يستشير «تشابمان أندروز» فى هذا الأمر. قلت لعبود رأيى وملخصه أن «فؤاد سراج الدين» لن يخسر شيئا من مثل هذا اللقاء، وأنا أومن ببقاء القنوات مفتوحة. أبلغنى «عبود» أنه فى مثل هذه الحالة فإن «فؤاد» سوف يقبل. قال «عبود» إن «فؤاد» قَبِل، ولكنه بعد ذلك «أبلغنى أنه لا يريد من أحد أن يطلب منه مفاتحة «النحاس» (باشا) فى أمر تخليه عن رئاسة الوفد أو رئاسة الوزارة فى حالة إجراء الانتخابات وفوز الوفد فيها كما هو متوقع!

قال لى «عبود» «إن الوفد مقتنع بأن المخرج الوحيد للأزمة الراهنة هو التأكيد على إجراء انتخابات حرة مبكرة، وسألنى «إذا كنت أظن أن ذلك أفضل مسار يتبعونه» - ورددت عليه بالنفى لأنى أعتقد أن الملك ليس مستعدا بعد لهذا الاحتمال، كما أننى أومن بسياسة التدرج». كانت هناك إشاعة فى الأسبوع الماضى بان الملك قد يشكل «وزارة مأموريات» تتفاوض بسرعة معنا وتصل إلى اتفاق يفتح بابا فى الأزمة، ومع أنه ظهر أن الإشاعة ليست صحيحة، فإننى تلقيت رسالة من «فؤاد سراج الدين» يعبر فيها عن أمله بان لا تاخذ الحكومة البريطانية ماخذ الجد مثل هذه الإشاعات، ومن ثم ترتب نفسها لبحث جدى مع وزارة من هذا النوع فى موضوع العلاقات بين مصر وبريطانيا، ورجاء «فؤاد» فى رسالته «أن لا تقع الحكومة البريطانية فى خطأ التعامل مع «هؤلاء الناس» بشأن أى موضوع من موضوعات العلاقة بين البلدين، فكل جهودهم سوف تصل إلى الفشل، والفشل سوف يجعل مهمة الوفد صعبة حين يريد إعادة المياه إلى مجاريها، لأنه عندما يعود الحزب إلى السلطة يصبح من العسير عليه أن يقبل ما رفضه غيره».



كان «فؤاد سراج الدين» يرى إنه يتحتم رأب الصدع بكل وسيلة بين القصر والوفد، ولكن المسألة كيف يمكن طمأنة الملك؟ واستطرد «فؤاد سراج الدين» يقول إنه هو شخصيا ألقى خطابا أخيرا قال فيه «إن الوفد يخضع لسلطة الملك ويدين له بالولاء»

أضاف «فؤاد سراج الدين» أن الأفضل فى هذه اللحظة أن تجيء وزارة محايدة، يرأسها شخص موثوق فيه مثل «حسين سرى» (باشا).



ويوم ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨ يكتب رئيس قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية البريطانية إلى السفير البريطانى فى القاهرة ما نصه:

«اتصل بى السفير المصرى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) اليوم، أبلغنى أن الملك «فاروق» قابلكم وتحدث معكم فى شأن «غزو مصر من قِبَل القوات الإسرائيلية. سألته إذا كان الملك «فاروق» فى طلبه قد استند إلى معاهدة سنة ١٩٣٦. أجاب بالنفى. قلت له إننى سمعت اليوم عن غزو الأراضى المصرية وطلبت تقارير وافية لم تصل إلىَّ بعد، وحتى تصلنى هذه التقارير ليس فى إمكانى أن أبدى رأيا. قال لى إن حكومته مشغولة بتصفية جماعة الإخوان المسلمين، وأن هذه الجماعة هى عنصر التهييج المعادى لبريطانيا. وقال إن تهدئة الأمور تفتح الباب لوزارة «إبراهيم عبد الهادى» (باشا)، لكى تدخل معنا فى ترتيب جديد للعلاقات المصرية - البريطانية. قال إن الأخوان المسلمين تلقوا أموالا طائلة من «روسيا» وأنهم بفضل ذلك حققوا نجاحا كبيرا لدعوتهم وسط الفلاحين(!) والحكومة الآن مصممة على سحقهم. قال لى «عمرو» (باشا) إن الحكومة الجديدة ستترك الباب مفتوحا أمام حزب الوفد إذا قرر الدخول فى وزارة ائتلافية، وسألته إذا كان ذلك يعنى «النحاس» (باشا)، فقال إن هذه هى العقدة الصعبة التى لم يتوصلوا فيها إلى حل حتى الآن».

تحدث «عمرو» (باشا) عن أحوال الجيش المصرى، وقال إنه قابل بعض ضباطه أخيرا وأحس أن شعورهم طيب إزاء بريطانيا العظمى - لكن اليهود بطبيعة الحال عندهم قوات جوية قوية حصلوا عليها من تشيكوسلوفاكيا، والدول الأخرى التى تدور فى فلك الروس، مما يجعل المصريين فى موقف أضعف تماما. أوضح لى أننا أوقفنا تزويدهم بالسلاح، بينما اليهود يحصلون على ما يريدون من أوربا الشرقية.

سألنى «عمرو» (باشا) إذا كانت لدينا رسالة أو رد ما يبعث به إلى الملك «فاروق»، وكان ردى عليه «إننا ندرس الموقف من جميع جوانبه». قال إنه «يامل أن تستانف المفاوضات بين بلدينا قريبا لترتيب علاقاتنا على أسس ثابتة، لكنه يخشى بعد اغتيال «النقراشى» وما تعانيه مصر من مشاكل - أن استئناف المفاوضات سريعا قد يعطى انطباعا خاطئا».

قلت للسفير «إننا سوف نبقى على اتصال به فور أن نتلقى صورة كاملة للموقف الحالى على الأرض بين مصر وإسرائيل!».

والحقيقة أنه فى تلك اللحظات كانت الحكومة البريطانية تعرف أنها لا تستطيع أن تؤثر على إسرائيل، وكانت - شأنها شأن الحكومة المصرية فى هذه النقطة - تعتمد على النفوذ الأمريكى - لكن الحكومة البريطانية كانت واثقة أنها تقدر على التأثير فى الموقف الداخلى المصرى!



ومرة ثانية يلتقى «فؤاد سراج الدين» (باشا) مع الوزير البريطانى المفوض «تشابمان أندروز»، واللقاء فى بيت «أحمد عبود» (باشا).

وكان موضوع البحث الرئيسى اقتراحا بأن يقدم الوفد التماسا من نوع ما يعبر عن الولاء للملك - وفى بداية المقابلة يظهر فى المحضر الذى كتبه «تشابمان أندروز» أن «عبود» (باشا) بادر إلى إظهار خوفه الشديد من سوء الأحوال، ومع أنه لا يريد أن يفقد ثقة «النحاس» فهو يظن أن فكرة التماس من الوفد إلى الملك ممكنة، خصوصا إذا جاء فى صيغة مقبولة من الجميع. وقال «فؤاد» (باشا) إنه يعرف الآن أن الذى طرح فكرة الالتماس هو «حسن يوسف» (باشا)، والفكرة طيبة ولكن السؤال المهم «هل الملك موافق عليها؟»، أو أن «حسن يوسف» يعرضها كاقتراح يجس به النبض، فإذا وجد استجابة من الوفد عرضها على الملك ؟». أضاف «فؤاد سراج الدين» إنه يتحتم رأب الصدع بكل وسيلة بين القصر والوفد، ولكن المسألة كيف يمكن طمأنة الملك؟ واستطرد «فؤاد سراج الدين» يقول إنه هو شخصيا ألقى خطابا أخيرا قال فيه «إن الوفد يخضع لسلطة الملك ويدين له بالولاء».

أضاف «فؤاد سراج الدين»: «إن الوفد مستعد لقطع نصف الطريق على الطريق نحو القصر، ولكن هل يقابله القصر على الطريق ويقبل منه؟ - هذه هى القضية». قال «فؤاد سراج الدين» إنه يستطيع إقناع «النحاس» (باشا) بتقديم التماس للملك؟ والمشكلة إنه لا يوجد حول الملك شخص مامون يقوم بتوصيله. كل من حول الملك الآن ليست لديهم سلطة، أقواهم «كريم ثابت»، وهو «رجل يفتقر إلى كل حُسن أخلاقى ومتآمر وانتهازى وطماع ولا يمكن الاعتماد عليه بتاتا، لأنه مرتش وبلا أخلاق» - هناك «حسن يوسف» وهو موظف خائف وعاجز عن تحمل مسئولية تقديم المشورة للملك.

فى نهاية التدفق المستفيض لفؤاد سراج الدين (باشا) توجه نحوى («تشابمان أندروز») وسأل «هل تلتقى بالملك كثيرا؟»، اعترفت له أننى التقيت «فاروق» مرة واحدة منذ عودتى من الإجازة الصيفية، وكان ذلك عندما دعانى إلى رحلة لصيد البط فى نوفمبر الأخير (١٩٤٨)، وأضاف «تشابمان أندروز»: «لكن السفير يقابل الملك كثيرا». وهنا قال «فؤاد سراج الدين» (باشا): «لماذا لا تقومون أنتم بتوجيه النصح إلى الملك، مثل هذه النصائح الآن لا يمكن اعتبارها تدخلا فى الشأن المصرى من ناحيتكم».



وبعد أسبوعين - يوم ١٩ يناير ١٩٤٩ - كان هناك لقاء جديد بين «فؤاد سراج الدين» و«تشابمان أندروز» فى بيت «عبود» (باشا) أيضا، وبحضور

«حسين سرى» (باشا) رئيس الوزراء السابق (وقد أصبح أكثر المرشحين حظا لتشكيل وزارة ائتلافية تواجه أحوالا زاد اضطرابها بالصدام الدموى مع الإخوان المسلمين). وكان «فؤاد سراج الدين» هو الذى تحدث أولا قائلا «إن الوفد فى الأيام الأخيرة قدم تنازلين فى منتهى الأهمية، (سجلهما «تشابمان أندروز» فى تقريره نفس اليوم إلى وزارة الخارجية البريطانية):

● التنازل الأول أنه - وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخه - على استعداد للمشاركة فى وزارة ائتلافية عليها رئيس غير وفدى.

● والتنازل الثانى أنه على استعداد لمواصلة البقاء فى هذه الوزارة حتى يصل البرلمان الحالى إلى نهاية مدته الدستورية فى نهاية الموسم التشريعى الحالى.

سأله «تشابمان أندروز» إذا كان الوفد يوافق أن تكون الوزارة الائتلافية برئاسة «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) رئيس الوزراء الحالى حتى لا يبدو التغيير انقلابا، ورد «فؤاد سراج الدين» بأن «النحاس» (باشا) لن يقبل لأنه يعرف «عبد الهادى» (باشا) من أيام كان فى الوفد ورأيه فيه ليس طيبا. قال «فؤاد سراج الدين» فوق ذلك فهو شخصيا لا يثق فى «إبراهيم عبد الهادى»، فقد التقى به أخيرا فى احتفال أقامه القصر للمؤتمر البرلمانى الدولى، وقال له «عبد الهادى» إنه يريد مقابلته بطريقة شخصية وسرية، وبالفعل ذهب «فؤاد» (باشا) إلى بيت رئيس الوزراء وسمع منه ما لديه، وبما أنه كان لقاءً شخصيا وسريا، فإنه لم يبلغ به أحدا حتى «مصطفى النحاس» (باشا) نفسه، لكنه فوجئ بخبر عن الحديث وبعض التفاصيل مما دار فيه منشورة فى «أخبار اليوم»، وذلك أدى إلى إحراجه بشدة أمام «النحاس» (باشا)!

وفجاة وبدون مقدمات وقرب نهاية الحديث التفتَ «فؤاد سراج الدين» (باشا) للوزير المفوض البريطانى «تشابمان أندروز» وقال له «إنه من ضمن مخاوفه من الاشتراك فى وزارة ائتلافية يرأسها «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) «أنه ينوى المطالبة بعودة الجيش المصرى من فلسطين فورا»، وهو يخشى أنه إذا فعل ذلك، فإن رئيس هذه الوزارة «إبراهيم عبد الهادى» نفسه سوف يذيع ذلك منسوبا إليه، وبالتالى يضع المسئولية فى رقبته وحده».

وقال «حسين سرى» (باشا) الذى كان يحضر الحديث «أن «عبد الهادى» (باشا) أبلغه بأنه أصدر تعليمات إلى جميع الصحف بوقف أى هجوم على الوفد»، وقال «سراج الدين» «إنه يعرف أن «حيدر» (وزير الحربية)، و«حسن يوسف» (وكيل الديوان) - اقترحا على الملك تغيير وزارة «إبراهيم عبد الهادى» فورا، حتى يمكن تشكيل وزارة برئاسة شخصية محايدة يدخلها الوفد، والذى يعارض هذا الاتجاه هو «كريم ثابت»، والسبب أنه يحصل على ألف جنيه شهريا من المصاريف السرية، وهذه حقيقة يعرفها بنفسه من أيام توليه لوزارة الداخلية، وكان المبلغ الذى يحصل «كريم» عليه وقتها ١٥٠ جنيها فقط».

أضاف «فؤاد سراج الدين» (باشا) وسجل «تشابمان أندروز» فى تقريره إلى وزارة الخارجية فى لندن بتاريخ نفس اليوم (١٩ يناير ١٩٤٩) - قوله «إنه متأكد من أن كل المسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا العظمى يمكن تسويتها إذا جاءت حكومة وفدية، لكن هناك شرطا أساسيا واجبا وهو أن لا تقدم الحكومة البريطانية فى هذه الأثناء أية تنازلات أخرى لمصر، وهو يقدر أننا فى الشان اليومى قد نضطر إلى التحرك والتعاون مع أى حكومة مصرية على أساس عملى محض، غير أنه يامل أن لا تكون هناك محاولات للوصول إلى تسوية أو ما يشبه التسوية، واعتقاده أنه عندما يجيء الوفد إلى الحكم بمفرده فإنه سوف يكون أقوى، وبالتالى أقدر على قطع منتصف الطريق لترتيب العلاقات معنا!».

أضاف «فؤاد سراج الدين» طبقا لما سجله «تشابمان أندروز»:

«الإخوان المسلمون ليسوا وحدهم المسئولين عن موجة الإرهاب الحالية - الشيوعيون اخترقوا الإخوان ويعملون تحت غطائهم، والشيوعيون قبل ستة أشهر حاولوا اختراق الوفد ولكن مناورتهم انكشفت وقُضى عليهم».

وكان آخر ما قاله «فؤاد سراج الدين» (باشا) وسجله «تشابمان أندروز» فى هذا اللقاء:

«إن أحد الوزراء الحاليين أبلغه أن الجيش المصرى فى فلسطين يغلى بالثورة ضد الملك وضد الحكومة الحالية، وأن هناك مجموعة قوية منظمة تنظيما جيدا من الضباط تعهدت بأن تقوم - بعد عودة الجيش من فلسطين - بثورة تستهدف تشكيل ديكتاتورية عسكرية!».

وفى شهر مارس سنة ١٩٤٩ يبدو «أحمد عبود» (باشا) نشيطا فى اتصالاته السياسية فى محاولة السيطرة على أوضاع تزداد ترديا كل يوم، لكنه الآن قام بتعديل تركيبة الاتصالات، والتعديل الأساسى أن «تشابمان أندروز» اختفى وظهر بدلا منه فى بيت «عبود» (باشا) ومع «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبحضور «حسين سرى» (باشا) أحيانا - رجل رابع مختلف هو: «كريم ثابت» (باشا).

وكان ذلك شبه انقلاب باعتبار رأى سكرتير الوفد فى المستشار الصحفى للملك.

على أن موضوع الأحاديث ظل كما هو: وزارة ائتلافية تقوم بالحكم حتى انتهاء الفصل التشريعى الراهن (نهاية مدة برلمان سنة ١٩٤٥)، ويشارك فيها الوفد، ويكون عليها - عند انقضاء الأجل فى الخريف - أن تمهد لانتخابات جديدة، قد تجيء بحكومة وفدية. والسؤال المهم هو: هل يمكن أن تكون الحكومة الوفدية التى تجيء تحت رئاسة وفدى آخر غير «مصطفى النحاس» (باشا)؟

وفى أحد اللقاءات فى بيت «أحمد عبود» (باشا) وجه «كريم ثابت» (باشا) سؤالا مباشرا إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا) مضمونه «إن مولانا (الملك فاروق) مستعد أن يقبل وزارة وفدية يرأسها «فؤاد سراج الدين» (باشا) شخصيا، بدلا من «النحاس» (باشا)، ورد «فؤاد سراج الدين» قائلا: «إن ذلك أمر صعب».

ويواصل «كريم ثابت» أسئلته «ألا يمكن لزينب هانم (قرينة النحاس باشا) أن تقنع زوجها بذلك؟



أبلغ «فؤاد سراج الدين» (باشا) الوزير المفوض البريطانى «تشابمان أندروز» «إن أحد الوزراء أبلغه أن الجيش المصرى فى فلسطين يغلى بالثورة، وأن هناك مجموعة قوية منظمة من الضباط تعهدت بأن تقوم - بعد عودة الجيش من فلسطين - بثورة تستهدف تشكيل ديكتاتورية عسكرية!»

ويرد «فؤاد سراج الدين» بسرعة:

«هى نفسها أول من يرفض أن يتولى الوزارة غير «مصطفى» (باشا)».

ويلح «كريم ثابت»: «ولا حتى أنت؟».

ويرد «سراج الدين»: «خصوصا أنا»!

وعلى نحو ما فقد كان الملك «فاروق» يشعر أنه فى سباق مع الزمن، وكان اللورد «شولتو دوجلاس» الذى كان قائدا للطيران البريطانى فى مصر زمن الحرب، وأصبح مقربا إلى الملك «فاروق» وضيفا عليه الآن فى القاهرة بعد سنوات من انتهاء الحرب. وتوجه اللورد «دوجلاس» إلى السفارة البريطانية فى مصر، وقابل المفوض فيها، وبعد اللقاء كتب «تشابمان أندروز» إلى وزارة الخارجية البريطانية (٧٣٤٦٣ / ٣٧١) تقريرا يرد فيه بالنص:

«اللورد «دوجلاس» كما تعلمون يقوم بزيارة شخصية لمصر بدعوة من الملك «فاروق»، وقد مر عليَّ وأبلغته بصفة شخصية بالمعلومات التالية:

١ - جرى اكتشاف محاولة لاغتيال الملك كمقدمة لانقلاب عسكرى تحددت له الفترة من ١٨ إلى ٢١ من شهر يناير. وقد تم اعتقال عدد من المتآمرين، لكن الملك «فاروق» يتوقع حدوث اعتداء على حياته خلال فترة قصيرة.

٢ - علم اللورد «دوجلاس» أن عددا من ضباط الجيش المصرى الشبان الذين ذهبوا إلى فلسطين، زاد سخطهم على الملك، وقد قرروا العمل ضده تحت قيادة «عزيز المصرى» (باشا)، الذى حُددت إقامته أخيرا. وعلم اللورد «دوجلاس» أيضا أنه تم اعتقال ضابطين فى الجيش ضُبطت معهما منشورات ومفرقعات.

٣ - أن الملك «فاروق» قال للورد «دوجلاس» «إنه شخصيا ليس خائفا من أية محاولة لاغتياله، وقد نصحه اللورد «دوجلاس» «بأنه لا يستطيع أن يطمئن إلا إذا كان على علم حقيقى بما يدور تحت السطح فى العمق داخل القوات المسلحة».



ولم يكن الملك يعرف ما يجرى للقوات المسلحة فى فلسطين، وقد تحول الجيش إلى خمسة جيوب منعزلة عن بعضها تقريبا:

جيب يضم مجموعة الجيش الرئيسية وهى «مزنوقة» فى قطاع غزة - وجيب يضم قيادة الجيش الميدانى وملحقاتها بين رفح والعريش وصلتها بقواتها على كل الجبهات «مهددة» - وجيب فى الفالوجة وعراق المنشية «مُحاصر» - وجيب من بقايا قوات المتطوعين ما بين بيت لحم والقدس «مكشوف» - وأخيرا بقية الجيش المصرى الداخلى بما فيها وزارة الدفاع والقيادة العليا وهيئة أركان الحرب، وجميعها «مشتتة» وجهدها «مبعثر».

ومع ذلك فقد كان الملك مازال على اعتقاده بأن الأزمة فى القاهرة، وأنها لا تزال تدور فى الثلاثية التقليدية: القصر - والوفد - والسفارة البريطانية (والأمريكية معها... ربما!). ■

يوليو.. لماذا؟

ذوقـــان قـــرقـــوط

قبل أعداد ثلاثة، وفى تقديم سلسلة مقالاته حول يوليو، طرح الأستاذ هيكل السؤال: هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية أم ضرورية؟ ويبدو أن السؤال أو التساؤل استحث المؤرخ والسياسى السورى المخضرم ذوقان قرقوط على أن يرسل لنا بهذا المقال/الإطلالة الذى يحاول فيه أن يرسم ملامح إجابة من خلال عرضه لمشاهد «موثقة» لحال المشرق العربى وكذا حال مصر ما قبل يوليو ١٩٥٢.

المحرر

إنى، وإن كنت أمتهن التاريخ.. لم أندب نفسى للإجابة، بدافع مهنتى وإنما كاحد الذين عاشوا فترة ما قبل يوليو وعانى المجريات التى عصفت بالبلاد العربية منذ الحرب العالمية الأولى، ولم يكن المهم تسجيل الأحداث وإنما الأهم صداها فى نفوسهم ومعاناتهم لها.

فقد ولدت أثناء الحرب العالمية الأولى وفى وسط تعرض لعواصفها ويمكن أن أكون شاهدًا على التلقى.. فقد تراكمت فى أذهان الناس فى المشرق العربى منذ الحرب العالمية الأولى إلى جانب مآسى المجاعات وأفواج الجراد والتهجير.. أخبار «ثورة» الشريف حسين، أو الأمير حسين، أو الملك حسين للتحرر من دولة العثمانيين، باسم الجمعيات العربية، بالتحالف مع الإنجليز.. ملأت أخبارها كل بيت. ثم تراكم فوقها ما جلبته فترة دخول الأمير فيصل إلى دمشق من مشاعر وفترة حكمه لبلاد الشام الموحدة - دون معرفة بأن هذه الفترات كانت بتفويض من اللنبى.. إلا أنه ظل فى ذاكرة الناس وحدة بلاد الشام كما كانت ملتئمة والتى هى الآن: «لبنان وسوريا والأردن وفلسطين» وهُيئ للناس أن ما كانوا يحلمون به من التحرر من الدولة العثمانية والعيش فى وحدة، قد تحقق، تجلت فى مجلس وطنى وحكومة واحدة وفى الإجماع أمام «لجنة كينج - كراين». وحتى دخول غورو على رأس الجيوش الفرنسية من بيروت إلى دمشق وخروج الملك فيصل وتطبيق سايكس - بيكو وترسيم الحدود بين هذه البلدان ظلت علاقات الوحدة قائمة زمنًا حتى حلت محلّها الإجراءات الجديدة لإبراز كل منها بإعطائها كيان دولة. وفى ظل هذه الأوضاع نشبت الثورات على الانتدابات فى كل قطر. بدت كأنما هى عشائرية لا رابط بينها، ولا قيادة تجمعها، وكاد بعض هذه الثورات على الاستعمار ينجح لولا الانقسامات الداخلية إلا أنه بدأ فى هذه المرحلة، يظهر قطبان يتجاذبان فى بلاد الشام، إلى جانب سياسات الغرب، وبخاصة فى سوريا هما: بغداد والرياض. ولم يقيَّض للبلاد من يعلو على هذين القطبين والانقسامات الطائفية والعشائرية وينبرى للعمل القومى.

لقد ترسب فى ذاكرة سوريا أنها قلب العروبة النابض، نتيجة لتلك الفترة.. وكانت دمشق مركزًا لمدة طويلة، ضد الاستيطان الصهيونى فى فلسطين. لعل ذلك بدأ منذ العهد العثمانى وظهور شخصيات فى مجلس «المبعوثين» واختلاف التقسيمات الإدارية.. وبعد الانفصال عن تركيا، بدت دمشق مركزًا لنشاط قادة فلسطين: مثل الحاج أمين الحسينى وصبحى الخضرا.. إلخ. وآل النشاشيبى والتل.. وإلى زمن بقى أهم رجالات الحكم فى الأردن، بل أهم عائلات عمان من سورية.

وكانت تطوف فى ذهن معظم السوريين فكرة أن دمشق هى بييمونت العرب أو بروسيا العرب، أى أنها سوف تقوم بنفس الدور القومى لتوحيد البلاد العربية الذى قامت به هاتان المقاطعتان لتوحيد إيطاليا وتوحيد إمارات ألمانيا. وكتب فى ذلك كثيرون، مما سجله أسعد داغر فى مذكراته. ولكن رجالات المشرق العربى، فى جميع الأحداث التى مرت به بعد ذلك.. ظلوا أسيرىَ سياسة القطبين: بغداد والرياض الإقليميين ولم يستطع أحد منهم تجاوزهما إلى قيادة قومية.

وكان الاعتقاد بأن دمشق بييمونت أو بروسيا العرب قبل ظهور حزب البعث العربى فيها فى الأربعينيات من القرن العشرين.

وقد نشأت ظروف بحلول الحرب العالمية الثانية تستجيب لزعامة قومية تعلو على البيئات المحلية والإقليمية، ففى خلال هجوم ألمانى خاطف سقطت فرنسا. فحكمت «فيشى» سوريا بإدارة مهلهلة لا تقوى على الصمود أمام أى حركة. وما لبث النزوع القومى فى بغداد أن تحرك للتحريض فى سوريا بإذاعة من قصر الرحاب يذيع منها الملك غازى بنفسه، اشرأبت نحوها الأعناق من سوريا والعراق فعاجل الإنجليز هذا الملك الواعد بتدبير مؤامرة لتصريفه باغتياله، سرعان ما انكشف وعرفت عناصرها وأشارت أصابع الاتهام إلى نورى السعيد ومع ذلك، ربما كانت من أسباب تألقه لدى السلطات.

قُفِت الحركة الوطنية ذلك بوزارة رشيد عالى الكيلانى، وتمرده على أوامر الإنجليز.. حسب الناس أن فى هذا التمرد على الإنجليز الثورة المنتظرة للتحرر من الاستعمار وإعادة الأقطار إلى وحدتها. فراحوا يتسابقون إلى اللحاق بها أهم أفواجهم كانت من حمص وحماة وحلب، وشكل الذين لم يلتحقوا منتظمات للتبرع كان أبرزها «نصرة العراق» التى صارت فيما بعد نواة حزب البعث العربى - ولم يبق أحد من الفدائيين الفلسطينيين إلا ولحق بالعراق واتخذ الحاج أمين الحسينى بغداد مقرًا له. والتحق من لبنان عدد من المقاتلين ومن مصر مصطفى الوكيل تولى مع صديق شنشل من العراق الإذاعة وحاول عزيز المصرى الإفلات من إسار الإنجليز المضروب حوله فى مصر للحاق ببغداد أيضًا فسقطت طائرته قبل أن تغادر حدود القاهرة.. واتضح فيما بعد أن أحاسيسنا نحن شباب ذلك الحين كانت صحيحة، صادقة بالتعبير عن الواقع إذ تنكشف عن أن البلاد كانت تمور بالبؤر الثورية التى تتطلع إلى فرص الانقضاض على الإنجليز خاصة وبقايا الاستعمار عامة للتحرر وإعادة التئامها، فكان مما تكشف الكثير. فمنها مثلاً أن محمد سلمان الوزير بوزارة رشيد عالى الكيلانى يذكر أنه تلقى - وهو يستشفى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت - رسالة بتوقيع جمال عبدالناصر يسأله فيها عن الوسائل التى يمكن بها مساعدة الثورة فى العراق.. إلخ.



وإذا كان الإنجليز لم يعرفوا بدقة بمجريات التحرك فى المنطقة وتفاصيلها.. فإنهم على الأقل - دون أدنى ريب - كانوا يحسون وهم يسمعون الهتافات تتعالى: إلى الأمام يا رومل، بينما يحرقون أوراقهم فى القاهرة للانتقال بمركز مقاومتهم إلى جبل طارق.. بأن الأرض تميد تحت أقدامهم.. الأمر الذى دعاهم إلى القيام بحماقة ٤ فبراير لتبديل الحكم بالقاهرة. ولم يكن بعيدًا عن مثل هذا تصريح ايدن بتأييد قيام روابط أوثق بين البلاد العربية، فى مايو ١٩٤١، ثم عندما رأى الدول العربية «الناشئة» لم تتحمّس لهذا التصريح أردفه بتصريح ثان فى فبراير ١٩٤٣، أكثر وضوحًا كأنه يستحثهم، يؤكد فيه «تعاطف بلاده مع أى مشروع يقدم لوحدة العرب على أن تأتى المبادرة من العرب أنفسهم ويحظى بتأييد الجميع..».

واتضح الغرض حينئذ لذوى البصيرة أن المراد هو احتواء المشاعر الثائرة بالاستباق قبل أن تنفجر فلا تعود قوى انجلترا، بل والغرب كله، قادرة على التحكم بها.. ولم تلجأ انجلترا إلى القبول بمثل هذا المطلب الوحدوى، الذى تحلم به الشعوب العربية.. إلا مضطرة بضغط الظروف التى تحاصرها. وهى الدولة التى تخطط بوضوح، على الأقل منذ عهد جلادستون للحيلولة دون قيام وحدة عربية.. توجت هذا التخطيط عام ١٩٠٧ بمؤتمر كامبل بانرمن للعمل على بقاء الأمة العربية مقسمة.

وليس لدى أدنى شك أن أحاسيس العرب لم تكن تختلف وإن كانت العقول أقل وعيًا ومعرفة.

فشلت «ثورة» رشيد عالى الكيلانى فى بغداد وتشتتت، شنق من شنق، وسجن من سجن، واستمر الذين تجمعوا فى أنقرة بقصد المروق إلى برلين يدغدغون آمال الوحدة، تنعشها أخبار نجاح تقدم الجيوش الألمانية فى الاتحاد السوفيتى (رجاء الاطلاع على مذكرات أكرم زعيتر) وشاع القول بأن الفرج سيأتى حينئذ، عبر القوقاز على يد الجيوش التى يقودها فوزى القاوقجى ويجتاح بها الشرق العربى.



ولم تكن الحال فى سوريا والعراق وفلسطين.. تنعم حتى بشرف «الأحلام» الكاذبة: فى بغداد راحت جيوش كلوب باشا «البدوية» المنظمة تنظيمًا حديثًا، تعربد وتخمد النيران، وفى سوريا انهمك كبار «الرجال» فى إبعاد شبهة تورطهم فى اغتيال الدكتور عبدالرحمن الشهبندر عنهم، غطى انهماكهم على كل شىء فلم يعد يسمع لهم صوت.. ودخلت الجيوش البريطانية - الديجولية، لم يكد أحد يحس بدخولها، والغريب أنها مهدت لهذا الدخول لطرد الفيشيين بآلاف المنشورات المطبوعة فى عمان تدعو للوحدة العربية، تولت توزيعها المخابرات الأردنية.. دخلت الساحة يومئذ، فيما عدا هذا الصوت الخافت من الأردن الذى لا يجد أذنًا واحدة مصغية لفقدان الثقة - من الحديث أو المناداة - بأن ثمة أمة عربية عظيمة يجب أن يكون لها دور.

فى تلك الظروف التى بلغ فيها زخم القومية العربية الأوج.. كنا نشعر أن أكبر تحدٍّ يطوف بخيالنا هو الوصول بهذه القومية إلى أن تتجسد فى نوع من أنواع الوحدة. وإلا فإن مظاهراتنا وإضراباتنا وأصواتنا تذهب هباء.. فالوحدة هى الأمان.. فبدون قصد من أحد أظهرت الظروف أمامنا حقيقة قومية كبرى هى أن المنطقة التى نعيش فيها - رغم كل الدعايات والافتراءات - أصبحت واحدة من وادى الفرات شرقًا إلى ما وراء وادى النيل غربًا ووسطها بلاد الشام، سوريا وفلسطين.. لها خصائص مشتركة وبينها تكامل جغرافى لا يمكن قطعه وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ومصالح متصلة وتماثل ثقافى من نوع فريد ومركز متصل واحد، فى القاهرة، ليس من السهل



لابد أن نتذكر.. كان «جنس الفلاح» هذا الذى تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد على.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت «بطولات» محمد على، ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد إلى أن أصبحت نسبتهم فى أواخر حكم أسرة محمد على أكثر من ٩٨٪ من عدد السكان

كان فى الريف المصرى أحد عشر مليون فلاح لا يملكون سوى أجرهم اليومى، ولم يكن يزيد فى أحسن الأحوال على ثلاثة قروش وهى بالكاد تعيّشه

الفلاح المصرى.. معاناة مريرة على مدى التاريخ

تقويضه.. وبمجرد توفر الظروف القوية لهذا المركز أسكت التنازع السعودى - الهاشمى وأبطل أثره.. وكان المرء يستطيع الانطلاق من بغداد بالسيارة أو بالقطار إلى القاهرة وما وراءها.

حينئذ كان شمل بعضنا يلتئم، بعد انفضاض المظاهرات التى تحدث يومياً، فى مقهى «الطاحونة الحمراء» على ضفاف نهر بردى حيث اعتاد أستاذان من أساتذتنا أن يجلسا، بعد استقالتهما من العمل الحكومى وتهيآ للعمل العام، وحام حولهما استبشار وأمل فى أن يكون الطريق الذى يسلكانه هو المطلوب.

وذات يوم جاءنا إلى هذه الجمعية المرحوم الدكتور شكرى فيصل قادمًا من القاهرة حيث كان يعد رسالة ماجستير فى اللغة العربية، يحمل معه عددين من مجلة «الأنصار» التى تصدر هناك، تتصدر أحدهما صورة حصن فى مكان قاص من روسيا تخرج منه نساء محرمات، كتب تحت الصورة عبارة «حصوننا هناك» وتختتم العدد الثانى صورة خنازير: سود وبيض تتعارك بتعليق تحت الصورة: «الحرب بين الخنازير».. أثارت موضوعات المجلة نقاشًا، استمر حتى الانصراف حول منظورها العربى الإسلامى الجديد ولغتها التى لا تقرأ بصفائها ومنطقها فى تاريخنا منذ أيام عمر بن الخطاب - على حد تعليق ميشيل عفلق حينئذ - وتجاذبنا، قبل أن ينفض سامرنا، الأفضلية لمن يحصل على المجلة أولاً.. وانتهى الأمر فى تجاذبنا إلى الأخذ بمبدأ القرعة. وهكذا كان. وفاز بالأولى الدكتور: جورج طعمة مندوب سورية فى هيئة الأمم.



وعندما جاءنى الدور، بالحصول على مجلة «الأنصار»، كنت قد عملت على الحصول على أعداد أخرى منها؛ وبدا لى فى هذه الأعداد أنها غير إقليمية وأنها تعنى باستجلاء صورة للأمة العربية، من خلال تفهم جديد للـ«جاهلية» وللـ«إسلام»، وما هو إلا شهر حتى صدر العدد الأخير من المجلة، الذى تعلن فيه طلاقها للعمل الكتابى وهجرته وانصراف أصحابها إلى العمل العام، وقد ربطت الإسلام بالجاهلية بعلاقة محكمة إذ قالت فى العدد قبل الأخير: «كانت العرب تحج إلى الله فى عهد انحلال حنيفيتها، قبل ظهور الإسلام، فتقول فى التلبية إلى الله: «لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك» من أجل هذه الجملة الأخيرة ومدلولاتها فى حياة العرب قام الإسلام. وما هى من آثار العرب فى شىء، وإنما هى من بقايا ذلك الليل الذى اكفهر على الجزيرة العربية فى عهد مجوسيات الفرس فى جنوبها وحبالات اليهود فى شمالها!».

وهُيئ لى أن «الضالة» التى ننشدها هى فى مصر، وعزمت على اللحاق بها.. وكانت تجربة، تجربة طويلة، حديثها طويل.. ليس هنا مكانه الآن.



قُدِّر لى أن أجىء إلى مصر مرتين فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو: هذه المرة، ومرة أخرى لإتمام الدراسة الجامعية فى كلية الآداب بجامعة (فؤاد الأول) - جامعة القاهرة اليوم - وجاءت إلى القاهرة فى هذا الوقت أول بعثة. وبالقدر المتاح يمكن لشهادتى أن تؤدى مهمة الإجابة عن السؤال: «هل كانت الثورة فى مصر عام ١٩٥٢ حتمية أم ضرورية؟».

فى كتاب د. مريت غالى ود. إبراهيم مدكور: «الإدارة الحكومية» أن المجلس النيابى حل سبع مرات فى عشرين سنة وحل مجلس الشيوخ ثلاث مرات ولم يستكمل مجلس واحد جميع دوراته.
لم يلفت ذلك المثقفين ولا لفتهم حال البلاد من فقر الشعب وكثرة العاطلين المثقفين من خريجى مدارس وجامعات البلاد، أو من خريجى جامعات أوروبا

عندما قدمت إلى القاهرة لأول مرة كان عدد سكان البلاد، وفقًا لإحصاء عبداللطيف البغدادى «يزيد عدد العاملين فيها من الفلاحين مع عائلاتهم على عشرة ملايين شخص يكاد أن يكون وقتئذ ٩٩٪ من عدد السكان ولا يزيد الأجر اليومىَ الزراعى على ثلاثة قروش ولا يتجاوز عدد أيام العمالة فى السنة أربعة أشهر، يعيشون فى بؤس بينما يملك البلاد حوالى مليون يتناوبون الحكم».

هؤلاء ـ ربما فئة منهم بنتيجة الحراك الاجتماعى ـ من سلالة الذين اصطنعهم محمد على ليكونوا عماد حكمه، وهم الذين تشكلت لهم «أيديولوجية» تركية، بقيت لا تمت إلى البلاد بصلة، وصفهم أحمد فارس الشدياق فى زيارته لمصر قبل وفاة محمد على، فى آخر أيامه بقوله: «فأما رجالها فإن للترك سطوة على العرب وتجبرًا. حتى أن العربى لا يحل له أن ينظر إلى وجه تركى، كما لا يحل له أن ينظر إلى حرم غيره، وإذا اتفق من نوادر الدهر أن تركيًا وعربيًا تمشيا أخذ العربى بالسُنة المفروضة وهى أن يمشى على يسار التركى، محتشمًا، خاضعًا»، ولشدة ما هاله من انقلاب الأمر تساءل قائلاً: «.. ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك هنا على العرب.. إن النبى كان عربيًا والقرآن نزل باللسان العربى، والأئمة والخلفاء الراشدون والعلماء كانوا كلهم عربًا، أنى أظن أن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبى كان يقول: شويلة بويلة ابقا لم قبا لم.. لا والله ما هذا كان لسان النبى ولا لسان الصحابة..».

ولم يختلف عن هذا وصف ولى الدين يكن بعد أكثر من سبعين عامًا وهو أصلاً من هذه الفئات إلا أن ولاءه افترق: وفى عودة الروح لتوفيق الحكيم، الصادرة عام ١٩٢٧ يعطينا الحوار بين الأم وابنها محسن نفس الصورة:

قالت الأم لابنها محسن:

ـ أنت ما تطلعش زيىَ أبدًا.

وهنا تنحنح أبوه وقال:

ـ ولا زيىَ

فالتفتت الزوجة إلى زوجها وقالت فى تهكم:

ـ من إمتى يا حضرة العمدة الفلاح. أنت تنكر إنى أنا اللى مدنتك وعلمتك الأبهة!

فأجاب زوجها العمدة متقهقرًا:

ـ الله.. وأنا قلت حاجة؟ طبعًا أنت يا هانم تركية بنت أتراك.

ثـــم:

ما كاد محسن يستقر ساعة فى غرفته، بيت العزبة، حتى كان وقت الغداء.. مدت المائدة ووقف على رأسها الخادمان النوبيان كالمعتاد، وجاءت الست يتبعها زوجها ومحسن، وما إن نظرت إلى طبق الخبز «البلدى» على المائدة حتى صاحت:

ـ الله فين العيش الفينو؟

فغمغم أحد الخادمين:

ـ مفيش..

فزمجرت الست:

ـ نسيت تجيب عيش فينو معاك من دمنهور؟

كويس قوى.. وأنا آكل إيه دلوقت؟

ـ أروح يا ست أجيب من دمنهور وآجى حالاً.

فسكتت الست لحظة.. ثم عادت فقالت، بعد أن ألقت نظرة على الشمس المتوهجة فى الخارج:

ـ الدنيا حر قوى عليك.. قول لواحد فلاح يروح..

وهم بلال بالذهاب ولكنها استوقفته:

ـ اسمع يا بلال! نادى لى الناظر الكلب..

وخرج الخادم وعاد بعد لحظات بالناظر، فقالت له الست:

ـ إزاى عايز توكلنا عيش من بتاع الفلاحين، يا راجل يا مغفل!

فأجاب الرجل، دهشًا مبغوتًا:

ـ دا عيش طازه يا ست.. خبز النهارده الصبح! ومراتى خبزاه خصوصى علشان حضرتك..

فصاحت فيه:

ـ بلاش قرف، أنا آكل عيش من ده؟ امشى ابعت واحد فلاح حالاً يروح يجيب لى عيش أفرنجى من دمنهور.

ـ دلوقت يا ست فى حر الأيالة!

ـ أيوه دلوقت فى حر الأيالة.

ـ حاضر يا ست بس..

ـ بس إيه..؟

ـ بس جنابك تعرفى إن الفلاح من دول بيشقى فى الغيط من الساعة خمسة الصبح وما يصدق تيجى ساعة الضهرية لأجل يرتمى تحت شجرة يستريح بعضشى.

ـ ما شاء الله! يستريح بعضشى؟ الفلاح يستريح؟ من إمتى العز ده كله؟

ـ هو مش بنى آدم يا جناب الست؟

ـ امشى بلاش دلع، قوِّم واحد فلاح يجيب عيش من دمنهور وإلا وحياة أبويا الكرباج ينزل على عِمتك دى.. جنس فلاح.

ولابد أن نتذكر.. كان «جنس الفلاح» هذا الذى تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد على.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت «بطولات» محمد على، ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد إلى أن أصبحت نسبتهم فى أواخر حكم أسرة محمد على أكثر من ٩٨٪ من عدد السكان.. لم ينبر نصير لهم.. إلا عندما ركنوا إلى قوتهم الذاتية فى مكافحة بقاء الحملة الفرنسية وفى صد حملة فريزر والوقوف فى وجه عودة الألفى، وفى العمل على تنصيب محمد على.. أو تواتيهم مناسبات يطفح فيها الكيل، كهبة عرابى أو دنشواى.. أو ثورة ١٩١٩ عندما انفجر ما تراكم فى صدور هؤلاء الفلاحين من غل.

وسرعان ما كان التحالف الصامت الثلاثى بين: «مجتمع إدارة الحكم»، على حد تعبير مريت غالى وإبراهيم مدكور والقصر والإنجليز.. وهم الذين يهمهم عدم حدوث تغيير، يبادرون إلى تسوية، يموهون فيها الحقائق: يطمسون رغبات التغيير ويطرحون بدائل.. ملتهبة على نحو ما حصل فى ثورة ١٩١٩.

فالشعب الذى هبّ يحاصر الوجود الإنجليزى فى كل مكان فى المدن والريف وبرهن على أنه فى الحرب كما فى السلم، ذو شكيمة لا تلين.. أجاد فى المحاربة.. وأجاد فى المقاطعة، عندما أرادت لندن، بلجنة ملنر التهدئة وكسر حدة العداء.. ولم يخرج على الإجماع إلا من لم يكن من الشعب فماذا حصدت البلاد؟ ماذا حصد «الأهالى» أصحاب البلاد؟!

لقد كتب كثيرًا فى ثورة ١٩١٩ وفى «زعامة» سعد والوفد والأحزاب التى انشقت عنه أو ولدت منه.. حتى بلغ الأمر بالكاتبين إسقاط ما ليس من صفات سعد على سعد، بل ما ليس من صفات الوفد والأحزاب المعارضة على الوفد والأحزاب المعارضة.

ولكن الشىء الوحيد الذى لم يكتب فيه هو أن ما آلت إليه ثورة ١٩١٩، كان يستدعى ويتطلب ثورة جديدة على نتائج الثورة.

فالتوكيلات التى استمد منها الوفد شرعيته وظل يستوحى منها، مزرية.. وعلى الرغم من ظهور «شخصيات» عظيمة فى صفوف الوفد.. إلا أن الحس السليم بنبض الشعب ظل غائبًا عن ملامسة نفوسهم.

ولم يتميز سعد.. لم يسمع له صوت قبل ١٩١٩ بانتقاد سلطات الاحتلال. ومرت مسألة دنشواى ولم ينبس ببنت شفة وعندما أعفى كرومر من مهمته فى مصر كان أحد الذين أقاموا له حفل وداع لتكريمه. وولى نظارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ولم ينتقل دانلوب الذى ينفذ سياسة انجلترا فى عزل مصر عن العالم العربى. وبقيت مقررات التعليم على حالها، كما وضعت فى زمن كرومر وبقى كتاب سفيدج فى تاريخ مصر فى المرحلة الابتدائية، هو المقرر، وولى وزارة الحقانية ـ العدل ـ ولم يخلف كما فى التى قبلها أثرًا بارزًا يشار إليه.. اللهم إلا استقالته بسبب انتصافه لأميرة من أميرات الأسرة الخديوية، من القيِّم على أملاكها.

ولم تُلفته أحوال الشعب التى لاشك بأنه كان يراها وهو زائر لقريته قبل أن يجلس فى قنطرته التى تتسع لمائتى زائر ويشاهدها فى العاصمة.. قبل أن يعلن بيان انتخابه وكيلاً للجمعية التشريعية التى أوجدها الخديوى عباس، مسنحًا لمطالبة البلاد بالدستور، وقال فيه..

«.. أقرأ فى الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة، القاهرة ولاسيما سكان الشوارع الوطنية.. تارة من قلة النور وتارة من قلة الكنس والرش وتارة من قلة التنظيم والرصف.. فإذا انتخبت عضوًا فى الجمعية التشريعية فإنى لن أدخر وسعًا فى عمل ما أستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالى من هذا القبيل» ـ من برنامج سعد الانتخابى عام ١٩١٣ ـ إلى الجمعية التشريعية.



حينئذ كان فى مصر أحد عشر ألفًا من الأثرياء الكبار، يمكن تسميتهم بالإقطاعيين، لم تكن لهم صفات إقطاعيى أوروبا، «أرستقراطيين»، لم تكن لهم صفات الأرستقراطية.. التى تورث عن بطولات.. لكنهم ممن اصطنعهم محمد على وأسرته والإنجليز.. يملكون وحدهم ٧٠٪ من الأراضى الزراعية.

وكان فى الريف المصرى أحد عشر مليون فلاح لا يملكون سوى أجرهم اليومى، ولم يكن يزيد فى أحسن الأحوال على ثلاثة قروش وهى بالكاد تعيشه.

وكان العمال وغالبيتهم فى مجال الخدمات حوالى ثلاثة ملايين يعيشون تحت ظروف قاسية.. فلم يحظوا بكلمة من برنامجه السياسى. ولعل أية كلمة منه حسنة فيهم تسقطه فى نظر الأحد عشر ألفًا الأثرياء المالكين.. كان يفكر ضمن القانون ويتطلع إلى الأعلى.. وهذا الأعلى كان يأتى من «ولى النعم»، ولم يكن يعلم، أو أنه كان يعلم ويكظم علمه، ككل أبناء مصر «الأصليين» أن «ولى النعم» ومن والاه من صنائع محمد على والإنجليز هم الذين يعادونه. ففى أوراق العمر، مذكرات الدكتور لويس عوض أنه سأل أباه، عندما نفى سعد زغلول مرة ثانية إلى سيشل بعد خطبته ضد عدلى التى قال فيها أن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس، مادامت الناس تحب سعدًا لماذا لا يُعيِّن الملك فؤاد «سعد» رئيسًا للوزارة فيتكلم سعد باشا مع الإنجليز بدلاً من عدلى باشا.

فأجابه أبوه: «الملك تركى وعدلى يكن باشا تركى وعبدالخالق ثروت باشا تركى وتوفيق نسيم باشا تركى وأحمد زيور باشا تركى وحسين رشدى باشا تركى ومحمود باشا تركى وأحمد مظلوم باشا تركى. الباشوات الأتراك وحدهم هم الذين يحكمون مصر، أما

سعد وزعماء الوفد فهم فلاحون وأبناء فلاحين وأبناء الأتراك لن يسمحوا لأبناء الفلاحين بحكم بلادهم».



ذهبت التضحيات فى ثورة ١٩١٩ هباء.

وكانت المحصلة لجنة ملنر. والمقاطعة. والتفتيش عن رئيس وزراء: هل هو رشدى باشا أم هو محمد سعيد باشا، يقدم، «بابهة» للسلطان الجديد، ومادامت لجنة ملنر أخفقت فى التهدئة فلابد من معرفة رأى البلاد أو عُمَد البلاد فى «صيغ» جديدة للحكم، طرحتها الإدارة للإيهام:

- ما رأيكم فى اشتراك الأجانب فى التشريع.

- ما حالة النظام النيابى الحالى والتعديلات المرغوب فيها لتوسيع اختصاص الهيئات العامة والإصلاح الإدارى.

أسئلة تتعلق بمجالس المديريات ونظام تأليفها وسلطتها والتعديل المطلوب لها.

أسئلة عن نظام البلديات وما يراد إدخاله عليها من الإصلاحات.

التعليم ووسائل ترقيته وأسباب الشكوى منه..

ولم يصدر عن القيادات ما يشجب المبدأ فى طرح مثل هذه الأسئلة أصلاً.. ولم يستوقف أحدًا كلام اللورد ملنر لسعد: «إننا الآن فى مصر واضعون يدنا على كل شيء ونريد أن نتخلى عنها فى مقابل شيء واحد وهو أن تعترفوا بمركزنا فيها، لأنه الآن فعلى، ونريد أن يكون شرعيًا، مستندًا إلى قوة عسكرية، نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة عام، وهى الآن فى قبضتنا فعلاً ونريد أن يكون مركزنا شرعيًا بقبولكم».

فبأى حق يمكن القبول بوجود الإنجليز، أليس باعتبار دفاع أحمد عرابى عن بلاده خطا وتدخل الإنجليز ضده صحيحًا؟

بعد ثورة ١٩١٩ لم تعد مصر بحاجة ضرورية لتأمين المصالح البريطانية.. وإنما لمصلحة عالمية فليس يوجد قول اللورد كيرزن فى خطبته بمجلس العموم «.. إلا قليل من الناس ينكرون أنها بذلك مصلحة تهم العالم أجمع ولا ضمانة لمصلحة العالم أفضل من بقاء مصر تحت إشراف دولة عظيمة متمدنة..».

وكان الإيهام بأن ثمة دوافع إنسانية جديدة أدت إلى إعلان مبادئ الرئيس ولسن الأربعة عشر، التى حرص على إعلانها من على منبر أمام جورج واشنطن، مؤسس أمريكا، لا شهادة عليها، سوف تحكم علاقات الشعوب، فإذا بالرئيس ولسن نفسه يعلن اعترافه بالحماية البريطانية على مصر.. ولشدة فرحتها تتسارع «دار الحماية» بإذاعة هذا الاعتراف (٢٢ أبريل ١٩١٩).



ولم يجد الإنجليز سلطانًا ينصبونه أفضل من أحمد فؤاد، الأمير أحمد فؤاد، مكافاة له على الخدمة «البالغة» التى قدمها أخوه الخديوى



التعليم.. قضية مصر المنسية قبل ٢٣ يوليو

توفيق فى التآمر معهم على أحمد عرابى.. ولم ينبس أحد ببنت شفة بعد أن خمدت ثورة ١٩١٩ لأن أفراد بيت محمد على لم يكونوا يومئذ موضعًا تخوض فيه الصحف.

إلا أن هذا لم يمنع بعض المتسائلين من أن يتساءلوا بصوت كتيم مع تساؤل بيرم التونسى:

- آه أحمد فؤاد المقامر الذى لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس ولا يسدد ديون القمار.

- أحمد فؤاد الذى يركب الحنطور ولا يدفع للحوذى أجرته.

- أحمد فؤاد الذى يفتح منازل أصدقائه ليلاً ويطلب الطعام.

لعل هذا، إضافة إلى أنه أخو الخديوى توفيق، ما رجح اختيار إنجلترا له ليكون سلطانًا. وفى زحمة الخلاف والانقسام بين سعد وعدلى وجلبة المعارك بين البوليس بقيادة ضباط من الإنجليز وجماعات من الشعب فى كل عاصمة وكل قرية، تم اختيار عروس للسلطان الجديد، دون رضاها، ولم ينتبه أحد إلى أنها خطفت وحبست وهربت وضاعت أحاديث الناس عن زواج السلطان بين أحاديثهم عن بطولة البلاد التى قامت بها الثورة.

لعل الناس نسيت نهائيًا حتى عندما رزق السلطان فؤاد وليًا للعهد هو الأمير فاروق فوفت السلطات الاستعمارية وعدها له بوضع نظام لولاية العهد بكتاب «رفعه» اللورد اللنبى إلى السلطان بمناسبة تهنئته بولى العهد، مؤرخًا فى ١٦ أبريل ١٩٢٠، نشرته الوقائع المصرية فى الجريدة الرسمية، فى عدد غير اعتيادى فى ١٧ منه فارسل السلطان برقية شكر لملك بريطانيا فى نفس اليوم.

جرى هذا كله ولما تنته بعد ثورة البلاد وتخمد نيرانها. بل وماتزال التوكيلات الشعبية فى طول البلاد وعرضها تجرى للـ«وفد» لنيل الاستقلال.. بالطرق السلمية فى حين يجرى فى القمة على ترسيخ أركان أسرة محمد على وتمكين وجود إنجلترا فى مصر بتعيين سلطان لها وولاية عهد، ينقلب بعد قليل إلى ملك.

وفى ظل هذا التعاقد، المضمر، غير المتكافئ، والتحالف البيّن أريد إجراء مفاوضات بين المحتل والزعامة الشعبية. كانت إنجلترا تبتغى السبر والاختبار والتمييع وتفريغ البلاد من الطاقات، المحبشة، المختزنة.. وكانت الزعامة الشعبية تريد «الاستقلال التام» ولم يقل أحد كيف يمكن أن يكون استقلالاً تامًا فى ظل تحالف مزدوج متحكم ويحكم البلاد من جميع مفاصلها. وبالوصول إلى اختيار عدلى يكن أمكن للطرفين، بمعزل عن القيادة الشعبية الحقيقية، بلورة المفاوضات المصرية - البريطانية فى نقاط تقنع الإنجليز بتحقيق مطالبهم وتوهم المصريين أو الأصح تموه فى نظرهم صورة «الاستقلال» فى تصريح ٢٨ فبراير الشهير.

ولم يكن غريبًا لدى من يعرف حقائق المجتمع فى مصر، أن يقرأ فيما صدر من مذكرات ساسة ذلك الوقت قول إسماعيل صدقى، أحد أعضاء المفاوضين المصريين (من طاقم عدلى) أنه هو صاحب صياغة ٢٨ فبراير إلا أن عدلى لم يقبل بإعلانه إلا بعد أن يصار إلى نفى سعد من البلاد، إذ من الواضح أنه لا قِبَل له فى تحمل تهييجه للبلاد إذا بقى فيها حرًا طليقًا!

ما انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى كانت إنجلترا أرست القواعد المتينة، التى يقوم حكمها عليها فى مصر، ففى ١٧ فبراير ١٩١٤ أعلنت الحماية، فكان دليل الحياة الوحيد هو احتجاب جريدة الشعب فى ذلك اليوم لئلا تضطر إلى نشره؛ وغياب ٥٤ طالبًا من طلاب مدرسة الحقوق، وليس كلهم، عن استقبال السلطان حسين كامل عندما جاء لزيارة المدرسة فى ١٨ فبراير ١٩١٥.



وجرى الارتباط بين السلطان حسين كامل والإنجليز فى ظل الحماية، بقبول الخديوية وأصبحت بريطانيا نفسها مصدر عرش أسرة محمد على بصراحة لا لبس فيها إذ وجهت كتابًا إليه تقول فيه: «إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض عليكم تبوّء هذا العرش السامى»، كدأبها منذ أن احتلت مصر، تتجاوز حقها. ثم بعد أن تقرر هذا التجاوز فتجعله حقًا شرعيًا، تتجاوزه إلى غيره، ويعمل الخديوى على التثبيت. ففى الكتاب الذى عهد به السلطان الجديد لرئيس الوزراء بتأليف وزارته قال: «قد تولينا، بالاتفاق مع الدولة الحامية، عرش السلطنة المصرية على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا، طبقًا للنظام الوراثى، الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها».

وهكذا، أصبح تولى العرش فى مصر يتم بالإرادة البريطانية، تخضع له الفئات المتنفذة، التى أوجدها محمد على وأسرته.

ففى الوقت الذى كانت فيه القوى الوطنية الحقيقية تتوهم أن الاستعمار أخذ فى التغير كان الوضع فى البلاد، خلفها يسير مسيرته الطبيعية المرسومة بين الاحتلال ورأس الإدارة الذى اختاره.. فعندما رزق السلطان فؤاد - الملك فيما بعد - بعد ذلك الزواج القسرى، الذى غناه بيرم التونسى، وأيًا كانت صحة نسب المولود - وكان الأمير فاروق - وفت السلطات الاستعمارية بتعهدها ووعدها بوضع نظام لولاية العهد فى كتاب، قال الرافعى إن اللورد اللنبى «رفعه» إلى السلطان لتهنئته بولى العهد، مؤرخ فى ١٦ أبريل ١٩٢٠، نشرته الوقائع المصرية فى عدد غير اعتبارى، فى ١٧ منه وهو فى الحقيقة تبليغ بقرار ملك بريطانيا بنظام العرش الموعود، فأرسل السلطان فؤاد برقية شكر على ذلك فى نفس اليوم.

وبهذا يظهر أن العلاقة بين رأس «الإدارة فى مصر» وسلطات الاحتلال لم تتغير عن قبل ثورة ١٩١٩، عن طبيعتها بعد الثورة والتفاف الشعب حول سعد.

كان من أهم ما يؤخذ على حكومات عهد الملكية تزييف الانتخابات وتيسير الفوز بالحكم لأحزاب الأقلية والعبث بالدستور على نحو مشين وإقالة الحكومات دون مراعاة له.

ففى عام ١٩٢٥ تولت الحكم وزارة زيور (باشا)، التى لم يكن لها برنامج سوى التسليم بكامل المطالب البريطانية التى استقالت من أجلها وزارة سعد زغلول، إثر مقتل السردار..

وكانت وزارة سعد قد جاءت إلى الحكم بالانتخابات على درجة واحدة تجرى لأول مرة فى «العالم الثالث» كله، فقامت وزارة زيور بتعديل قانون الانتخاب وجعله على درجتين لمجلس النواب وعلى ثلاث درجات لمجلس الشيوخ. ومع ذلك عندما انعقد مجلس النواب الجديد وأجريت انتخابات الرئاسة فاز سعد وسقط خصمه، فعملت وزارة زيور على حل المجلس من جديد مرة ثانية، ولم يكن مر على انعقاده ما يزيد على تسع ساعات.

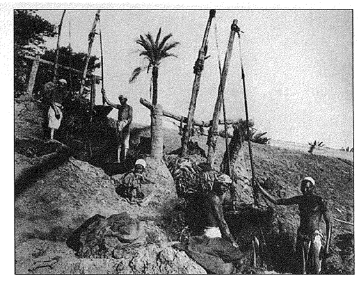
وكان على رأس قائمة الساقطين فى الانتخابات وزير الداخلية فى وزارة زيور هذه إسماعيل صدقى (باشا)، الذى يفاخر، فى مذكراته، أنه هو لا البريطانيون، الذى وضع تصريح ٢٨ فبراير، ويعتب على «طبقة» الباشوات لأنهم لم يساندوه.. سقط أمام الأستاذ نجيب الغرابلى وهو من دائرة أخرى، مجهول، نجح عليه، لا لشيء، إلا لأنه مرشح سعد زغلول، الذى كان قد أصبح أسطورة، لدى الشعب بقوة شخصيته. وبما يجسده من آمال، لو كان يرشح حجرًا لفاز.



وفى كتاب د. مريت غالى ود. إبراهيم مدكور: «الإدارة الحكومية» أن المجلس النيابى حل سبع مرات فى عشرين سنة وحل مجلس الشيوخ ثلاث مرات ولم يستكمل مجلس واحد جميع دوراته.

لم يلفت ذلك المثقفين ولا لفتهم حال البلاد من فقر الشعب وكثرة العاطلين المثقفين من خريجى مدارس وجامعات البلاد، أو من خريجى جامعات أوروبا.

كان يلفتهم مجتمع «الأغنياء»



٩٨٪ من سكان مصر قبل الثورة كانوا فلاحين

يـــوليـــــو.. لمــــــاذا؟

وعلى رأسه مصدر الألقاب، ويجذبهم ويسيل لعابهم. ولا لفتهم أوتوقراطية الملك الشاب المتزايدة - فالدكتور طه حسين، الصعيدى المنشأ، لم يستطع فى مطلع حياته العامة اتخاذ موقف ثابت من هذه الأوتوقراطية وما يرافقها من طغيان.. التزم، على حد قول الدكتور مصطفى عبدالغنى «بالرمز والتلغيز» وعندما تجرأ أكثر وأقدم على نشر مقال فى الهلال بعنوان «قلب مغلق» يشير فيه إلى الملك صراحة بأوصاف حادة، إذا بالملك يصدر أوامره بعدم رضاه عما نشر وبعدم نشر أية مقالات لطه حسين ثانية. ثم تدخل القصر بعد ذلك لمنع ترشيح طه حسين نقيبًا للصحفيين، واستمر موقف طه حسين المتردد هذا، حتى تجاوز منتصف الأربعينيات من القرن العشرين «مرة يؤثر الصمت ومرة يستخدم الرمز». إلى أن وليَ وزارة فى آخر وزارة وفدية (٢٧ يناير ١٩٥٢) فأقلع عن تردده واستبدل بالرمز والصمت، التهادن والتهاون الشديدين، وفى هذه الوزارة، قبل يد الملك مع الذين قبلوها.

ومع ذلك لم يبدأ بمدح الملك فاروق والإطناب بـ«شمائله» مباشرة، بدأ بمدح أبيه وجده، كانما ذوو فاروق، ليس عليهم خلاف، ويمكن إسقاط صفاتهم «الحميدة» عليه بلا تردد ولا من يؤاخذ من هذه المواقف. ففى الموقف الذى وقفه الدكتور طه حسين بين يدى الملك احتفالاً بالعيد الفضى لجامعة فؤاد (القاهرة حاليًا)، راح يردد عبارات الثناء على والده حتى بلغت ست مرات: والدك العظيم أحمد فؤاد:

«ولقد كان والدك العظيم يا مولاى ملهمًا. إنه حين انشئت هذه الجامعة لم ينشأ معهد من معاهد تحرير المصريين تحرير عقولهم وقلوبهم ودعاؤهم إلى الحرية الكاملة..

.. وأطال الله بقاءك يا مولاى وجعل حياتك كلها عيد العقول لمصر ولقلوبها وللشرق العربى كله..»



وما تكاد تمضى عدة أيام على هذه الخطبة العصماء حتى يكافئ الملك هذا «المثقف» بمنحه رتبة الباشاوية فحلت عقدة لسانه وزال تردده نهائيًا، فإذا بهذا الملك الذى لم تكن صفاته الحقيقية، ولم تكن خفايا حياته المزرية تخفى على من فى مركز طه حسين وعلاقاته، يصبح قدوة لا لشعب مصر فحسب وإنما لشعوب البلاد العربية. فيقف بين يديه فى افتتاح معهد فؤاد الأول بالصحراء ليقول:

«أنت جدير أن تكون أستاذ شعبك فى الخلق، فى الخلق الذى يمس سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس وفى الخلق الذى يمس سيرة الشعب مع ملكه وسيرة الملك مع شعبه».

ولم يكن عباس محمود العقاد، الصعيدى الثانى، أكثر تماسكًا من الدكتور طه حسين، وإن كان أكثر قربًا وتمثلاً للصعيد.

فهذا الكاتب المعروف بالقسوة فى نقده، كان مثال الليونة فى مديح الملك والإطناب فى إضفاء السجايا الحسنة عليه. فلم يكن يترك فرصة سانحة إلا ويكيل له فيها المديح ويغرق فيه. فبمجرد أن سنحت له الفرصة للقاء الملك بوصفه أحد أعضاء الحزب السعدى والمحرر الملحوظ فى صحيفته (الكتلة) حتى خرج فى اليوم التالى بمقالة طويلة، بمزايا الملك:

«إننى لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجداء طلعة الملك عن كثب والإصغاء إلى جلالته على انفراد، فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث لأنه الملك والديمقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجمل تمثيل، مجتمعين فى سماعه وكلماته وإرشاداته أحسن اجتماع.

لقد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف وكلام وطنى غيور وكلام محدث غيور، وطاف بخاطرى ذكر الإيمان وذكر الوطن وذكر الملك وذكر المعاش الذى يشغل قلوب أبناء الحياة. طاف بخاطرى أجمل ما يطوف بالخواطر من أمور الدنيا والدين».

فمنذ أن انحاز العقاد فى عام ١٩٣٧ إلى السعديين، أصبح الملك هو «النائب الأول، الذى يمثل شعبه الوفى أصدق تمثيل»، وأصبحت السجايا تفخر بها الشعوب والتى يسبغها على الملك الشاب هى «الشمائل الديمقراطية من حيث هى مذهب من مذاهب الحكومة أو خلق من أخلاق الطباع».



وبلغ تزلف آل عبدالرازق: مصطفى وعلى، الأخوين، اللذين لم يدعا فرصة تجمعهما بالملك أو مناسبة تخص الملك إلا تزلفا إليه إلى حد المهانة.. لم يتوصل الدارسون إلى استكشاف سر العلاقة الغامضة بينهما وبين الملك، المتميزة بالعداء ومع ذلك بإصرار الملك على الموافقة على ما يسند إليهما مما سيمنحهما الأزهر أو وزارة الأوقاف.. وفيما كان صدور كتاب «أصول الحكم» مدعاة للاستبشار، لخروج الفكر الإسلامى من إسار العقلية المملوكة، إذ بالخطب التى ينبرى لإلقائها على عبدالرازق فى حضرة الملك تعيدنا إلى عهد (ولى النعم)، حيث كان إذا قضت الظروف زيادة الرواتب، فذلك من عطايا الحاكم.. وإذا هطلت الأمطار فمن رضاه على الشعب.. وورد فى إحدى خطبه فى حفل رسمى:

«ورد فى بعض الآثار أن الله جل شأنه قد اختص الأمة الإسلامية بأن يبعث فيها على رأس كل مائة عام من يجدد لها من أمور دينها، ولقد بعث الله جدكم الأكبر على رأس مائة عام، كان قد انتكس فيها أمر المسلمين وضعفت فيها كلمة الإسلام، فجدد ما اندثر من معالم الدين ورفع ما انهار من بنيانه، والآن مولاى وقد مضت على وفاة جدكم الكبير مائة عام يتلفت الإسلام والمسلمون من جديد إلى مبعوث العناية الإلهية الذى أطل زمانه وآن أوانه وإنهم ليلمحون فى قسمات وجهك وفى ثنايا أعطافك صورة مجددة من جدكم الأكبر ويرون فى شبابك المتوثب وفى عزماتك القوية وفى حسن سياستك ويمن طالعك نفحات ندية من تلك الصفات التى كان يتحلى بها فى مطلع شبابه.

مولاى صاحب الجلالة:

إن العناية الإلهية التى اختارتك مجددًا لمجد الإسلام على رأس هذه المائة عام هى الكفيلة بأن تلحظك وتؤيدك وترعاك، تلك هى العناية الإلهية قد اختصك بمزيد من الرعاية والتوفيق».

كان هذا النفاق والمنافقة يتدفق فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين قبيل ثورة ٢٣ يوليو ومنذ منتصف ذلك العقد، بل قبل، لم تعد العين البصيرة تخطئ مباذل الملك فاروق ومساوئ تصرفاته وسوء حاشيته.

ولعلنا نتذكر أن الظروف حينئذ اختلفت عن الظروف التى هاجت فى زمن محمد على ولمح فيها نوافذ للوثوب منها إلى الحكم.. فالجيش، الذى حدد عدده فى القرن العشرين، لم يعد ذلك الجيش الذى أسسه سليمان باشا الفرنساوى.. وجعل محمد على العربى فيه، ابن الأهالى من أصحاب البلاد. لا يدخل الكلية الحربية، ولا يرقى إلى أعلى من درجة نقيب.. إلخ. لم يعد هذا الجيش رغم ما تضمنت لوائحه من عوائق.. «شبحًا يؤرق به الطاغية الذى على رأس الإدارة فى البلاد.. أحلام الشعب..» وإنما بدا أكثر تفاعلاً مع الشعب من المثقفين وبدا أفراد هذا الجيش - من خلف الرؤوس الكبيرة فيه، المنتمون بالولاء للقصر - يشعرون أنهم أصبحوا العقبة الكأداء فى سبيل ما يطمح إليه الشعب. فقد كتب أحد أفراد هذا الجيش الذين قاموا بالثورة يستذكر: «وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أولى الناس بالحديث عما عليه حال العامة فكم كنا نحس أن الشعب الساخط يرانا شركاء فيما ترتطم به البلد من فساد، وأننا حماة هذا الفساد ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ما يطمح إليه وما من شك فى أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه.. لقد قوى ما بيننا روح الأخوة الصافية التى حركت منا الضمائر وحفزت فيها الإرادات ووحدت منا الآراء لكى نقوم بعمل لرد الأمور إلى نصابها».

ولابد من أن نتذكر أنه لم يمر عليها عام حتى جاءها من أقصى المغرب، هاربًا من السجن ومن الاستعمار يستنجد بها «أحمد بن بله» باسم مستعار هو مزيانى مسعود.. وبعد أعوام جاء الضباط السوريون يلحون بطلب الوحدة معها هربًا وخوفًا من حرب أهلية، وكانوا يلحون بدافع من الجماهير فى طلب الوحدة رغمًا عن أن بعضهم كانوا متآمرين.

وإلى ٢٣ يوليو لجأت طلائع اليمنيين لإنجاح ثورة اليمن. ولولا صمود ٢٣ يوليو فى القاهرة ما نجحت ثورة العراق.

من هنا كان تهليل دنيا العرب لـ٢٣ يوليو والتصفيق لكلام جمال عبدالناصر لأن العرب أحسوا بكلمته الصادقة تحقيقًا لأمانيهم.



أصبحت بريطانيا نفسها مصدر عرش أسرة محمد على بصراحة لا لبس فيها إذ وجهت كتابًا إلى السلطان حسين كامل تقول فيه: «إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض عليكم تبوّء هذا العرش السامى»



ماذا فعلت ثورة يوليو

جـــلال أمـــين

من الطبيعي أن يتساءل المرء، بعد مرور خمسين عامًا على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، عما فعلت هذه الخمسون عامًا بالاقتصاد المصرى. وهذا هو بالضبط ما أحاول الإجابة عنه في هذا المقال.

من المهم أن نلاحظ أن هذه الخمسين عامًا يمكن أن تقسم إلى قسمين يكادان أن يكونا، بمحض الصدفة وحدها، متساويين فى الطول، شهدت مصر خلالهما نظامين مختلفين أشد الاختلاف فى السياسة الاقتصادية: نظام التدخل الصارم من جانب الدولة فى الحياة الاقتصادية، ونظام أقرب بكثير لنظام الحرية الاقتصادية، وهو ما سمى فى مصر بـ«الانفتاح الاقتصادى».. إن التاريخ الفاصل بين النظامين لم يكن هو تاريخ وفاة عبدالناصر فى ١٩٧٠، بل تدشين سياسة الانفتاح الاقتصادى فى ١٩٧٤. بهذا يكون كل من النظامين قد ساد لفترة تقرب من ربع القرن، ومن ثم يكون من المغرى جدًا للباحث فى الاقتصاد المصرى أن يعقد مقارنة بين ما أثمره كل من النظامين وأن يحاول أن يصل إلى قرار فيما إذا كانت لهذا النظام أو ذاك نتائج أفضل من نتائج الآخر. وهذا هو ما حاولت القيام به. ولكنى وصلت إلى نتيجة قد تفاجئ القارئ بعض الشيء، كما قد تفاجئ الكثيرين من المتحمسين لهذا النظام أو ذاك، وهو ما سأحاول أن أبيّنه فيما يلى.

فى منتصف القرن العشرين كانت مصر تعتبر بلاشك مثلاً ملائمًا جدًا لما كان يسمى وقتها بـ«الدول المتخلفة اقتصادياً» وعلى الأخص ما كان يعتبر من بين هذه الدول «دولاً مكتظة بالسكان». لم يكن سكان مصر فى ذلك الوقت يزيدون كثيرًا على العشرين مليونًا، يعيش أكثر من ٨٠٪ منهم على الزراعة، ولكن مساحة الأرض الزراعية لم تكن قد شهدت زيادة تذكر، من بداية القرن العشرين إلى منتصفه، إذا قورنت بزيادة السكان بنحو الضعف فى هذه الفترة (من نحو ١٠ ملايين نسمة إلى نحو عشرين مليونًا). كان متوسط الدخل فى منتصف القرن أقل مما يعادل مائة دولار أمريكى فى العام، وكان الدخل القومى بالإضافة إلى هذا الانخفاض الكبير فى حجمه المتوسط، موزعًا توزيعًا سيئًا للغاية بين السكان، مما كان يعنى أن أكثر من ٨٠٪ من السكان كانوا يحصلون على ما يعادل أقل من مائة دولار.

كان من الواضح إذن للجميع أن مصر، فيما يتعلق بالاقتصاد تحتاج إلى ثلاثة أمور رئيسية:

١ - زيادة متوسط الدخل.

٢ - إحداث تغيير جذرى فى الهيكل الاقتصادى بخلق فرص عمالة جديدة فى قطاعات أخرى خارج الزراعة، خاصة فى الصناعة.

٣ - تحقيق نظام أكثر عدالة فى توزيع الدخل، وعلى الأخص إشباع الحاجات الأساسية للسكان، من تغذية وملبس ومسكن وتعليم وخدمات صحية.. إلخ.

وقد حاولت حكومة الثورة فى العقدين التاليين لقيامها (٥٢ - ١٩٧٤) تحقيق هذه الأهداف الثلاثة، لا بالاعتماد على قوى السوق، بل بالتدخل المباشر فى مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. من أهم صور هذا التدخل إصدار قوانين الإصلاح الزراعى المتتالية ابتداء من ١٩٥٢، وتمصير ثم تأميم الصناعات الرئيسية (بل وكثير من غير الرئيسية أيضًا) والبنوك وشركات التأمين والكثير جداً من المشروعات التجارية ومشروعات الخدمات، وتبنى سياسة التخطيط المركزى، والتدخل الصارم فى التجارة الخارجية، استيرادًا وتصديرًا، وفى تحديد الأسعار، والاستخدام الواسع لوسائل السياسة النقدية والمالية لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية، والتوسع الكبير فيما تقدمه الحكومة من خدمات مع توفير أهمها بأسعار مدعومة بشدة من قبل الدولة، كما فى ميادين التعليم والصحة والإسكان.

إن هذا التدخل الصارم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر لم يكن بأى حال مثالاً نادرًا، إذ كان مثل هذا التدخل ظاهرة شائعة خلال هذه الفترة فى مختلف دول العالم الثالث، بل وإلى درجة ملحوظة حتى فى العالم الصناعى نفسه. وليس من الصعب تفسير هذا. كانت دول كثيرة من دول العالم الثالث قد حصلت لتوها على الاستقلال السياسى فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتولت مقاليد الحكم فيها حكومات تتمتع بشعبية عالية، بسبب ما بذلته من نضال للحصول على الاستقلال، ومن ثم بثقة عالية فى قدرتها على تحقيق غير ذلك من الأهداف. كان أهم هذه الأهداف بعد الاستقلال تحقيق نهضة اقتصادية ونظام اقتصادى واجتماعى أكثر عدالة، فأى الناس أكثر قدرة على تحقيق هذين الهدفين



من نفس تلك الحكومات الوطنية التى جلبت الاستقلال!



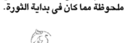
ولكن التدخل الحكومى فى الاقتصاد كان يتمتع أيضًا بشعبية واسعة لأسباب خارجية، وبصرف النظر عن كفاءة الحكومة. ذلك أن هذه الفترة التى نتكلم عنها (٥٢ - ١٩٧٤) كانت الفترة التى شهدت أعلى شعبية للأفكار والسياسة الكينزية فى العالم الغربى، التى تعترف بضرورة التدخل الحكومى، وهى أيضًا الفترة التى شهدت ارتفاع معدل المعونات الأجنبية التى تعطيها الدول المتقدمة للمتخلفة، وهى معونات كانت فى الأساس «معونات رسمية» أى من حكومات أو هيئات دولية إلى حكومات، لتمويل مشروعات تقوم هذه الحكومات الأخيرة بتنفيذها، وكانت هذه الفترة هى أيضًا فترة اشتداد الحرب الباردة التى سمحت بدرجة عالية نسبيًا من الاستقلال لحكومات العالم الثالث، فى مواجهة كلتا القوتين العظميين كما كانت هى الفترة التى انهمكت فيها الدول الأوروبية واليابان فى إعادة بناء اقتصادها بعد الخراب الذى سببته الحرب، واهتمت خلالها الولايات المتحدة بالنفاذ إلى أسواق هذه الدول أكثر مما اهتمت بأسواق العالم الثالث. أثناء هذا كله كان نظام التخطيط الشامل وتدخل الدولة فى الاقتصاد يتمتع بسمعة طيبة بسبب ما حققه من نجاح، حتى ذلك الوقت، فى الاتحاد السوفيتى. كل هذا جعل زيادة التدخل الحكومى فى العالم الثالث مبررًا ومرغوبًا فيه بل وضروريًا أيضًا.

فماذا كانت النتيجة فى مصر؟



أما عن نمو الدخل، فبقدر ما كانت النتيجة مبهرة فى النصف الأول (٥٢ - ١٩٦٥) من تلك الفترة، كانت سيئة للغاية فى النصف الثانى (٦٥ - ١٩٧٥)، فلنضرب الصفح عن الثلاث أو الأربع سنوات الأولى من عمر الثورة (٥٢ - ١٩٥٦) فقد كان تركيز الحكومة فى تلك السنوات على أمور السياسة لا الاقتصاد، ومن ثم كانت تلك السنوات الثلاث أو الأربع امتدادًا لما كان يحدث فى الاقتصاد فى السنوات السابقة على الثورة. وإنما بدأ معدل النمو يرتفع بشدة ابتداء من منتصف الخمسينيات وظل مرتفعًا إلى نهاية الخطة الخمسية الأولى فى منتصف الستينيات، فزاد متوسط الدخل (الحقيقى) فى تلك السنوات العشر بمعدل ٣ - ٤٪ سنويًا فى المتوسط، ومن ثم يمكن القول بأن متوسط الدخل الحقيقى زاد فيما بين ٥٥ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ وهو معدل طيب جدًا بمعايير ذلك الوقت على الأقل. ولكن ابتداء من منتصف الستينيات دخل متوسط الدخل فى مرحلة ركود، ولم يحقق ارتفاعًا يذكر حتى منتصف السبعينيات، ومن ثم يمكن القول بانه خلال الفترة كلها التى تقرب من ربع القرن (٥٢ - ١٩٧٥) حقق متوسط الدخل الحقيقى زيادة متواضعة تتراوح ما بين ٥٠٪ و٦٠٪.

كان النجاح، خلال هذه الفترة أكبر بكثير فى تحقيق الهدفين الآخرين: تغيير الهيكل الاقتصادى لصالح التصنيع، وإعادة توزيع الدخل. فمما لاشك فيه أن مصر فى ١٩٧٥ كانت قد أصبحت «دولة صناعية» بدرجة أكبر بكثير مما كانت عليه فى ١٩٥٢، إذ أصبح نصيب الصناعة التحويلية فى إجمالى الناتج القومى فى نهاية هذه الفترة ضعف ما كان فى أولها. وكذلك أصبح توزيع الدخل القومى أقرب بكثير إلى المساواة فى ١٩٧٥ مما كان فى ١٩٥٢، وأصبح المجتمع المصرى أقل استقطابًا بكثير، والحجم النسبى للطبقة الوسطى أكبر بدرجة ملحوظة مما كان فى بداية الثورة.



ثم حدث الانقلاب الكبير فى منتصف السبعينيات. لم يحدث كله فى يوم وليلة، بل كنا نستيقظ كل يوم لنرى تراجعًا جديدًا عما فعلته الحكومة فى الخمسينيات والستينيات. الإصلاح الزراعى لم يكتف بوقف تقدمه بل ألغيت الحماية التى كانت تسبغها الحكومة على مستأجرى الأرض إزاء مالكيها، والأسعار جرى تحريرها، واحدًا تلو الآخر، من تدخل الحكومة، وأنواع الدعم المختلفة لشتى السلع والخدمات جرى تخفيضها بشدة أو إلغاؤها، والمشروعات التى كان قد جرى تأميمها خضعت، الواحد منها تلو الآخر، للخصخصة، والاستيراد أطلقت حريته، وسعر الصرف أصبح يخضع أكثر من أى وقت مضى لقوى العرض والطلب، ومعدلات الضريبة على الدخل والثروة خفضت بشدة، كما صدر قانون بعد الآخر لإعطاء المزيد من المزايا للاستثمارات الأجنبية الخاصة.

لم يكن هذا التحول من سياسة اقتصادية إلى نقيضها، هو بدوره، شيئًا نادرًا فى العالم فى ذلك الوقت. فمنذ منتصف السبعينيات أصبح «الانفتاح الاقتصادى» هو شعار العصر، وإذا كان قد سمى بأسماء مختلفة منذ ذلك الوقت، فالجوهر واحد، سواء كان الاسم انفتاحًا أو إصلاحًا اقتصاديًا أو تكيفًا هيكلياً أو عولمة. ومن الشيق بالطبع محاولة معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذا الانقلاب. إذ من المؤكد أن السبب لم يكن عبور فكرة عبقرية على ذهن هذا الرئيس أو ذاك، بل كل الدلائل تدل على أن مثل هذه الأفكار فى العادة تُفرض فرضًا على الرؤساء. وإنما تتعلق الأسباب الحقيقية على الأرجح بتطويرات مثل نمو الشركات متعددة الجنسيات وحاجتها إلى غزو أسواق جديدة

بالاقتصاد المصرى؟





مما يتطلب سياسات اقتصادية جديدة فى الدول المطلوب غزوها، وما يرتبط بذلك من تطورات تكنولوجية فى الاتصال والنقل وفى أنماط تقسيم العمل مما يسمح بتقسيم العملية الإنتاجية إلى أجزاء يوزع إنتاجها على عدد كبير من دول العالم، وزيادة درجة التشبع فى الاستهلاك فى داخل الدول المتقدمة اقتصاديًا، وارتفاع مستويات الأجور فيها ارتفاعًا باهظًا بالمقارنة بالدول الأكثر فقرًا فى الجنوب، والبحث عن فرص جديدة للاستثمار فيها أعلى عائدًا مما أصبح من الممكن تحقيقه داخل الدول الصناعية، خاصة بعد أن ارتفعت حدة المنافسة بين هذه الدول نفسها مع انتهاء دول أوروبا واليابان من إعادة بناء اقتصادياتها وأصبحت بالإضافة إلى دول جديدة فى شرق آسيا، مصدر منافسة خطيرة للاقتصاد الأمريكى.

فماذا كانت النتيجة فيما يتعلق بمصر؟

أما عن نمو متوسط الدخل فنلاحظ هنا نمطًا شبيهًا بما حدث فى الفترة السابقة: نموًا مبهرًا فى متوسط الدخل الحقيقى فى السنوات العشر الأولى أعقبه تراخ ملحوظ فى السنوات العشر التالية. ففى السنوات العشر الأولى (٧٥ - ١٩٨٥) شهدت مصر معدل نمو فى الناتج الإجمالى يكاد أن يكون غير مسبوق فى مصر طوال القرن العشرين بأسره، سمح بزيادة متوسط الدخل الحقيقى بمعدل يتراوح بين ٥ - ٦٪ سنويًا. تلا ذلك ما يشبه الركود فى متوسط الدخل فى النصف الثانى من الثمانينيات وأوائل التسعينيات، ولم تتحسن الأحوال كثيرًا فيما بقى من التسعينيات بحيث يمكن القول إن متوسط الدخل الحقيقى خلال ربع القرن كله (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) قد زاد بنحو الضعف، ولكن هذه الزيادة يرجع الجزء الأكبر منها إلى ما حدث من زيادة فى السنوات العشر الأولى (٧٥ - ١٩٨٥).

هذه الزيادة فى متوسط الدخل التى تحققت فى فترة الانفتاح الاقتصادى كانت بلا شك أكبر بدرجة ملحوظة مما تم فى الفترة المماثلة فى الطول والتى شهدت التدخل الحكومى الكبير فى الحياة الاقتصادية، والتى زاد فيها متوسط الدخل - كما رأينا - بنحو ٥٠ - ٦٠٪. ولكن فترة الانفتاح كانت أسوأ بكثير من الفترة السابقة عليها فيما يتعلق بالهدفين الآخرين: تغيير الهيكل الاقتصادى وإعادة توزيع الدخل.

ففيما يتعلق بالهيكل الاقتصادى نجد أن نصيب الصناعة التحويلية فى الناتج الإجمالى وفى إجمالى العمالة وإجمالى الصادرات هو الآن أقل مما كان فى ١٩٧٥، فى مقابل ارتفاع نصيب البترول والسياحة وتحويلات العاملين فى الخارج. وفيما يتعلق بتوزيع الدخل نجده الآن أبعد عن المساواة بكثير مما كان فى ١٩٧٥، وأصبح المجتمع المصرى يستحق أن يوصف بأنه «يتكون من أمتين» أكثر مما كان يستحق ذلك فى أى وقت من الأوقات منذ ثورة ١٩٥٢، بل وربما أصبح هذا الوصف ملائمًا الآن أكثر مما كان قبل قيام الثورة.



من هذا الاستعراض السريع لتطور الاقتصاد المصرى فى خمسين عامًا قد يميل المرء إلى استخلاص النتيجة التالية، وهى أن التجربة المصرية فى هذه الفترة تقدم مثالاً يؤيد اعتقاد الكثيرين بأن سياسات الانفتاح الاقتصادى، وإن كانت تغير نمو الدخل فإنها تضر بتوزيع الدخل وبتوازن الهيكل الاقتصادى، بينما سياسة تدخل الدولة الكبير فى الاقتصاد، قد تحسن نمط توزيع الدخل وقد ترفع درجة التنوع والتوازن فى الاقتصاد القومى، بزيادة معدل التصنيع، على الأقل لفترة، ولكنها تضر بمعدل نمو الدخل، خاصة فى المدى الطويل.

والحقيقة أننا كثيرًا ما نصادف من يعتقد فى صحة هذه المقولة، سواء من بين أنصار الانفتاح أو من أنصار التدخل الشديد من جانب الدولة. فأنصار سياسة الانفتاح كثيرًا ما يكونون على استعداد للاعتراف بأن هذه السياسة قد تضر بعدالة التوزيع، ولكنهم سرعان ما يضيفون قولهم إن ثمرات النمو السريع، الذى لابد أن ينتج عن الانفتاح، سوف تتساقط فى المدى الطويل لتصل إلى أيدى الفقراء. إن هذا الفريق أقل استعدادًا عادة للاعتراف بأن سياسة التدخل الكبير من جانب الدولة أفضل من سياسة الحرية الاقتصادية من حيث تأثيرهما على رفع معدل التصنيع، بل يميلون إلى رد فشل الانفتاح الاقتصادى فى رفع هذا المعدل، فى مثل حالة مصر، لا إلى أن مصر تمادت فى تطبيق سياسة الحرية الاقتصادية والانفتاح الاقتصادى، بل يردون هذا الفشل إلى السبب العكسى بالضبط، أى إلى أن مصر لم تصل فى تطبيق هذه السياسة، فى رأيهم، إلى المدى الذى كان يجب أن تصل إليه. بل إنهم كثيرًا ما يلقون بالمسئولية عن هذا الفشل المتمثل فى تراخى معدل التصنيع فى مصر حتى الآن، إلى ما كانت مصر تطبقه من سياسة التدخل الكبير فى الاقتصاد سواء فى الستينيات أو حتى بعد ذلك.

من ناحية أخرى، نجد الكثيرين من أنصار التدخل الواسع من جانب الدولة، على استعداد للاعتراف بأن سياسة الانفتاح قد ترفع معدل نمو الدخل الإجمالى، ولكنهم يعتقدون أن لهذا ثمنًا باهظًا يتمثل فى تدهور توزيع الدخل وفقدان الاستقلال الاقتصادى ومزيد من اختلال الهيكل الإنتاجى. وهم يرفضون، على أى حال، الزعم بأن هذا الارتفاع فى معدل نمو الدخل القومى، الذى قد يحدث نتيجة للانفتاح، سوف يستمر فى المدى الطويل.

كل من الفريقين إذن يصرّ على أن السياسة التى يدعو إليها هى الأفضل، فى المدى الطويل، فى كل هذه الأمور الثلاثة: معدل النمو، ومعدل التصنيع، ونمط توزيع الدخل. والأمر على هذه الصورة قد يبدو غريبًا جدًا إذا نظر إليه عالم من علماء الطبيعة الذين لم يتعودوا أن يروا هذه الدرجة من اختلاف الآراء حول قضية من القضايا العلمية. فهؤلاء لابد أن يستغربوا بشدة أن يروا الاقتصاديين، الذين يزعمون أن علمهم يتمتع بدرجة من الانضباط والدقة أكبر مما يتمتع به أى علم آخر من العلوم الاجتماعية، لا يزالون عاجزين عن الوصول إلى اتفاق عام فى قضية على هذا القدر من الأهمية، وهى قضية ما إذا كان الأفضل للاقتصاد القومى أن تتدخل الدولة تدخلاً كبيرًا فى شئون الاقتصاد أو أن تتركه لقوى العرض والطلب دون تدخل يذكر.

كذلك لابد أن يستغرب أى عالم من المشتغلين بعلم من العلوم الطبيعية أن يستسهل الاقتصادى، من هذا الفريق أو ذاك، أن يرد النجاح أو الفشل فى الأداء الاقتصادى، بكل هذه الثقة والحزم، إلى اتباع سياسة اقتصادية بعينها دون غيرها، مع أن الفترة محل البحث، والتى حدث فيها هذا النجاح أو الفشل، لابد أنها شهدت، بالإضافة إلى تطبيق هذه السياسة الاقتصادية أو تلك، مختلف الأحداث والتطورات الأخرى التى لابد أن يكون لها دور مهم فى هذا النجاح أو الفشل. ففى مصر مثلاً، شهدت فترة الخمسين عامًا الماضية أحداثًا وتطورات مهمة للغاية، عدا ما طرأ من تغير على دور الدولة فى الاقتصاد، وكان لابد أن تكون لها آثار بعيدة المدى على النمو الاقتصادى وهيكل الاقتصاد وتوزيع الدخل. لابد أن يكون من باب التسرع والتهور ومجافاة الحكمة إذن، أن نحاول الدفاع عن سياسة اقتصادية معينة ضد غيرها بالاعتماد فقط على ما حدث لهذه المؤشرات الثلاثة مع تغير السياسة الاقتصادية، بينما أشياء أخرى مهمة كانت تحدث فى نفس الوقت.

والحقيقة، كما تبدو لى، أن كثيرًا من العوامل التى أثرت تأثيرًا إيجابيًا على أداء الاقتصاد المصرى، لا يكاد يكون له صلة بنوع السياسة الاقتصادية المطبقة. فالحرب الباردة مثلاً، التى سادت العالم خلال الخمسينيات والستينيات كانت لها آثار إيجابية مهمة على أداء الاقتصاد المصرى، عن طريق ما سمحت به من حصول مصر على كميات كبيرة جدًا من المعونات الأجنبية بشروط ميسرة ومن كلا المعسكرين. والارتفاع الكبير فى أسعار البترول فى ٧٣ / ١٩٧٤ ثم مرة أخرى فى ٧٩ / ١٩٨٠ كان له أيضًا أثر إيجابى مهم على أداء الاقتصاد المصرى، ليس فقط عن طريق زيادة إيرادات مصر من صادرات البترول بل أيضًا، وهذا هو الأهم، بما أدى إليه من زيادة الطلب على العمالة المصرية فى الدول العربية الغنية بالبترول فى الخليج وليبيا، ومن ثم الزيادة الكبيرة فى تحويلات العاملين فى الخارج، التى أدت ليس فقط إلى رفع معدل النمو بل إلى تخفيف حدة الاتجاه إلى مزيد من التفاوت فى توزيع الدخل.



على الجانب السلبى نجد أيضًا عوامل مهمة أدت إلى تدهور أداء الاقتصاد المصرى بصرف النظر عن نوع السياسة الاقتصادية المطبقة. هناك مثلاً الانخفاض الكبير فى أسعار البترول فى ١٩٨٦، وهناك ما يسمى «بالأعمال الإرهابية» التى كانت تؤدى كل حين وآخر، إلى انخفاض كبير فى دخل مصر من السياحة. ولكن أهم العوامل ذات الأثر السلبى على أداء الاقتصاد المصرى، كان بلا شك الاعتداء الإسرائيلى فى ١٩٦٧، الذى أدى إلى فقدان مصر لدخلها من بترول سيناء وإلى إغلاق قناة السويس وإلى انخفاض إيرادات السياحة.. إلخ. كل هذا أدى إلى انخفاض كبير فى حصيلة مصر من العملات الأجنبية أدى بالضرورة إلى انخفاض شديد فى حجم الاستثمار ومن ثم فى معدلات النمو والتصنيع، بل وإلى شل يد الحكومة إلى حد كبير فيما يتعلق بإعادة توزيع الدخل.

ما الذى يعنيه كل هذا؟ إنه يعنى أنه ليس من السهل رد النجاح أو الفشل فى الأداء الاقتصادى المصرى إلى طبيعة السياسات الاقتصادية المتبعة، مادام تطبيق هذه السياسات قد اقترن بعوامل أخرى كثيرة كان لها بلا شك آثارها المهمة على هذا الأداء. والذى يبدو لى هو أن هناك ميلاً، ليس فقط فيما يتعلق بتفسير الأداء الاقتصادى المصرى بل فيما يتعلق بتجارب أخرى كثيرة، إلى المبالغة والتضخيم غير المبرر لأهمية نوع النظام الاقتصادى، من حيث تدخل الدولة أو عدم تدخلها، فى تحديد درجة كفاءة الأداء الاقتصادى، وأن هذا الأثر قد يكون أضعف بكثير مما نظن.

إن التاريخ الاقتصادى مليء بالأمثلة لتجارب اقتصادية ناجحة جدًا، فى ظل تدخل كبير من الدولة، وتجارب اقتصادية ناجحة

الحرب الباردة التى سادت العالم خلال الخمسينيات والستينيات كانت لها آثار إيجابية مهمة على أداء الاقتصاد المصرى، عن طريق ما سمحت به من حصول مصر على كميات كبيرة جداً من المعونات الأجنبية بشروط ميسرة ومن كلا المعسكرين

جداً أيضًا في ظل درجة عالية من الحرية الاقتصادية. تندرج في النوع الأول تجربة الاتحاد السوفيتي خلال الأربعة عقود الأولى التالية لثورة ١٩١٧، وتجربة الحكم النازى فى ألمانيا فى فترة ما بين الحربين، وتجربة تركيا تحت حكم كمال أتاتورك، وتجربة مصر تحت حكم محمد على فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وتحت حكم عبد الناصر حتى منتصف الستينيات. أما النوع الثانى فتندرج تحته، ليس فقط تجارب مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، بل أيضًا تجربة اليابان ودول أخرى فى جنوب شرقى آسيا فى القرن العشرين، وكذلك تجارب الدول الأوروبية والولايات المتحدة خلال ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية (٤٥-١٩٧٠).

التاريخ ملىء أيضًا بأمثلة الفشل الاقتصادى فى ظل كل من النظامين الاقتصاديين: نظام التدخل الصارم من جانب الدولة ونظام الحرية الاقتصادية. فمن أمثلة الفشل فى ظل التدخل الصارم للدولة تجربة الاتحاد السوفيتى بعد ١٩٧٠، والصين خلال الستينيات، ومصر فيما بين ٦٥ و ١٩٧٥، ومن أمثلة الفشل فى ظل جرعة عالية من الحرية الاقتصادية، كثير من تجارب دول أمريكا اللاتينية فى فترات مختلفة خلال الخمسين عامًا الأخيرة، ودول جنوب شرقى آسيا باستثناء الصين، فى أعقاب ١٩٩٧، وكذلك مصر منذ ١٩٨٦، فضلاً عن عدد كبير من الدول الأوروبية والولايات المتحدة فى الثلاثينيات من القرن العشرين، وكذلك فى حقب مختلفة من ربع القرن الأخير.



النجاح ممكن إذن فى ظل أى من النظامين الاقتصاديين، ولكن الذى يضع حداً للنجاح ويقلبه إلى فشل، هو فيما يظهر لى أحد أمرين:

إما ظروف خارجية غير مواتية لا تقدر الدولة على الصمود أمامها، بما فى ذلك وعلى الأخص، فى حالة الدول الصغيرة والتى لم تتم ثورتها الصناعية بعد، ضغوط تمارسها قوى خارجية عن وعى بقصد وضع حد لأداء اقتصادى ناجح، أو لتحقيق مصالح اقتصادية لها تتعارض مع هذا النجاح (والمثل الصارخ على هذا اعتداء ١٩٦٧ على مصر)، وإما استشراء الفساد فى جسم الأجهزة القائمة على إدارة الاقتصاد، الأمر الذى يستطيع أن يصيب بالخلل كلا النوعين من النظام الاقتصادى، سواء ذلك القائم على التدخل الصارم من جانب الدولة (كالذى حدث فى الاتحاد السوفيتى منذ أوائل السبعينيات) أو ذلك الذى يطبق نظام الحرية الاقتصادية (كالذى حدث مثلاً فى أندونيسيا وتايلاند وجلب كارثة ١٩٩٧).

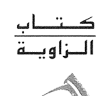
هذان العاملان، مدى تعرض الدولة لظروف خارجية مواتية أو غير مواتية، (بما فى ذلك مدى تعرضها لضغوط من قوى أجنبية لتغيير مسارها الاقتصادى) ومدى استشراء الفساد فى أجهزة الإدارة أو عدمه، هما العاملان الأقدر على تفسير اختلاف الأداء الاقتصادى فى مصر (وربما فى دول أخرى كثيرة، خاصة الدول الأصغر والأضعف) من أى عامل آخر يتعلق بنوع النظام الاقتصادى من حيث مدى تدخل الدولة فى الاقتصاد أو عدم تدخلها. ولكن من المهم أن نلاحظ أن هذين العاملين (الضغوط الخارجية والفساد) ليسا دائمًا منفصلين.

إن درجة من الفساد موجودة دائمًا فى الإدارة القائمة بتسيير الاقتصاد، ولكن من المؤكد أن هناك من الظروف ما يشجع على ترعرع الفساد واستشرائه، ومنها ما يشيع مناخًا غير ملائم لنمو الفساد، أو يؤدى إلى كبته أو يقضى عليه فى مهده. إن درجة عالية من العدل الاجتماعى لا تشجع عادة على نمو الفساد، ولكن درجة عالية من الظلم تشجعه. كذلك فإن القوى الخارجية ذات المصلحة فى تغيير مسار الاقتصاد تجد عادة فى شيوع الفساد (أو حتى فى خلقه خلقًا) عاملاً مساعدًا للغاية لتحقيق مآربها، خاصة إذا كان هذا التغيير من الأفضل إلى الأسوأ، فهنا لابد من الاعتماد على مصالح خاصة تتعارض مع مصالح المجموع، وهذا هو الفساد بعينه. إن الشركة متعددة الجنسيات مثلاً، إذا أرادت اقتحام سوق كان مغلقًا أمامها لا تعتمد فى تحقيق هذا الهدف على حجج أيديولوجية أو على إقناع أصحاب الشأن بالفوائد العميمة التى يمكن أن تعود على الدولة من فتح أسواقها. إنها قد تستخدم مثل هذه الحجج كستار من الدخان تدخل من خلاله إلى الدولة المراد اقتحامها. ولكن الوسيلة الفعالة فى فتح هذه الأسواق هى الاعتماد على إغراء بعض أصحاب المصالح الخاصة فى الداخل بترك الباب مفتوحًا، أو بالتظاهر بإغلاقه دون أن يقوموا بإغلاقه بالفعل.

إن من الممكن بالطبع أن نتصور فسادًا ذا مصادر داخلية بحتة، ولكن هذا النوع من الفساد لابد أن يكون بالضرورة محدودًا بحدود مصادر الدخل والثروة الداخلية، أما «الفساد المفتوح» على مصادر الدخل والثروة فى الخارج فهو فيما يظهر لا حدود لما يمكن أن يجلبه إلى داخل البلد من ملوثات.

إن هذين الاعتبارين (التعرض لظروف خارجية غير مواتية والتعرض لملوثات قوية من الخارج) يلخصان فى رأيى الضرر الحقيقى الذى جلبه الانفتاح الاقتصادى كما مارسته مصر ابتداء من منتصف السبعينيات. لم يأت الضرر الحقيقى من «مبدأ فتح الأبواب والنوافذ» بل أتى من فتحها على نحو جعل مصر معرضة للتأثر بأى تيار هوائى يتصادف مروره ببابها، بل وعلى نحو سمح بدخول أى أفاق يريد ممارسة فساده فى الداخل.

وفى هذا أيضًا يكمن فى رأيى أهم دفاع عن تدخل الدولة الصارم فى الاقتصاد فى بلد لم يكتمل نموه الصناعى بعد. لا يكمن هذا الدفاع فى القول بأن الدولة أكفأ دائمًا من القطاع الخاص، أو أكثر تحقيقًا للمصلحة العامة دائمًا، وإنما يكمن فى حاجة مثل هذا الاقتصاد لفترة من الزمن إلى الحماية من الظروف الخارجية غير المواتية ويقوى ما لديها من حصانة ضد الملوثات التى قد تأتى من الخارج. وهذا هو فى رأيى مصدر الأسف الحقيقى على إجهاض تجربة الخمسينيات والستينيات فى التدخل الحكومى القوى فى الاقتصاد. ليس مصدر الأسف أن «الانغلاق» أفضل دائمًا من «الانفتاح»، ولكن مصدره فى رأيى أن الاقتصاد المصرى أُجبر على الانفتاح قبل أن تتكون له الحصانة الكافية ضد التيارات الهوائية العاتية وضد الملوثات الآتية معها. ■





عن الحرية

حرية النقاش

إن بعض الناس يكفيه منك أن توافق على رأيه من غير ارتياب فيه، ولو كنت جاهلاً بالأسباب التى بنى عليها هذا الرأى وعاجزاً عن مدافعته، فإذا تيسر لهؤلاء أن يفرضوا آراءهم على الناس، فسوف يعارضون فى إباحة المناقشة على رغم ما تجلبه من أضرار. فإذا تولوا السلطان بذلوا جهدًا كبيرًا يستحيل معه رفض الآراء السائدة عن فهم واقتناع، وإن كان يمكن رفضها عن جهل وطيش، وذلك لأنه ليس من اليسير تحريم المناقشة تحريمًا تامًا، وعدم السماح بتبادل الآراء إطلاقًا.

ومهما تكن معتقدات الناس فى المسائل الخطيرة حيث يجب أن تتسم بالصواب - فجدير بهم أن يكونوا قادرين على الدفاع عنها أمام ما قد يقوم من اعتراض على الأقل.

وقد يقول البعض: أنه لا بأس من تفهم الناس الأسباب التى بنيت عليها عقائدهم، ولكن دون فتح باب المناقشة والسماح للمعارضين بالتهجم على العقائد، فإن حماية العقائد لا تستلزم اقتصار الناس على ترديدها. وذلك كمثل الذين يتعلمون الهندسة، فهم لا يكتفون بحفظ رؤوس النظريات، بل حفظ الإيضاحات وفهم المقدمات أيضًا.

وردنا على ذلك أن هذه الطريقة إذا كانت تصلح لتعليم الرياضيات وأشباهها حيث لا يجد المعترض مجالاً للطعن فيها حيث إن الحقائق الرياضية لا تحتمل التأويل إلا على وجه واحد وتقف أدلة إثباتها فى جانب واحد، فإنها ليست كذلك فى جميع المباحث الأخرى حيث يجد الخلاف مجالاً واسعًا، فلا يمكن استنباط الصواب إلا بالمقارنة بين مجموعتين متعارضتين من الآراء والمفاضلة بينهما.



المضحكون الجدد فى مصر

طارق الشناوى

لا نستطيع أن نفسر الثورة التى حدثت قبل خمس سنوات عندما تغيرت خريطة الفن فى مصر وخاصة السينما بمعزل عن الحياة السياسية فى مصر التى يريد لها الناس أن تتغير فى الوجوه والأسماء، لكنها لا تتغير ولا تتحرك وتتمسك بنفس الوجوه والأسماء.

رجل الشارع فى أعماقه يريد التغيير وهو متلهف على ذلك لكن الأمر لم يتجاوز مجرد التمنى والرغبة إلى الفعل والقرار، لأنه لا يملك الفعل وليس فى يده القرار ولهذا يرضى بنجومه فى السياسة والاقتصاد والثقافة، أما نجومه فى الفن فإنه قادر على تغييرهم واستبدالهم إذا أراد، الجمهور يستطيع أن يقول للفنان استمر نحن نريدك أو يقوله له شكرًا نكتفى بهذا القدر.

إنه شباك التذاكر.. أكبر سلطة ديمقراطية لا يمكن تزوير إيراداتها لأنها تعبر عن مصالح مادية لا تعرف إلا من يبيع أكثر وله ثمن أكبر ولا تعترف بنسبة ٩٩,٩٪ التى تعودنا عليها إلا إذا كان النجم بالفعل يستحق عن جدارة هذه النسبة، إنها الديمقراطية الوحيدة التى تتمتع بها كل دول العالم الثالث، وهى ليست منحة من الدولة لكنها تأتى فى العادة بعيدًا عن إرادتها حتى لو كان النجم الذى يختاره الناس هو فى النهاية صوت للدولة!!



لو أننا تتبعنا الأرقام منذ صيف عام ١٩٩٧ عند عرض فيلم «إسماعيلية رايح جاى» لاكتشفنا أن النتيجة لم تكن مجرد نجاح فيلم أو نجم، لكنها إرادة جمهور بات لا يطيق صبرًا على التغيير، ولا يهم أنه يختار الأفضل، فلم يكن - إسماعيلية - بالمقياس الفنى هو الفيلم الذى من الممكن أن تتحمس له فنيًا، لكنه فقط من خلال أداء محمد هنيدى البطل الثانى فى الفيلم بعد - محمد فؤاد - البطل الأول.. كان محمد هنيدى من خلال أدائه يجسد مفردات مغايرة تعبر عن رجل الشارع فى العقد الأخير من الألفية الثانية.. كان محمد هنيدى هو صاحب هذه الشفرة السرية التى استطاع أن يفك رموزها ليصبح اللقاء حميميًا بينه وبين الناس.. إن الكوميديان فى العادة هو صوت الناس لأن الكوميديا تسمح بهامش من الانتقاد، والفنان الكوميديان يستطيع أن يلتقط تفاصيل خاصة فى السلوك وأسلوب التخاطب، إنها فى مجملها تشكل النمط الاجتماعى فى العلاقة داخل الأسرة وفى المدرسة والمكتب والشارع.

والفنان المؤدى عليه أن يحسن الاستماع والملاحظة وعليه أيضًا أن يتمتع بالقدرة على الاستقبال قبل الإرسال، لتصبح الرسالة التى يقدمها بعد ذلك للناس ساخنة وعلى موجتهم لأنها أخذت مفرداتهم وتفاصيلهم، إنها أقرب ما تكون للهجة العامية الدائمة التغير حيث تولد كلمات وتحال إلى المعاش كلمات أخرى، ولهذا إذا عطلت وسائل الاستقبال لدى الفنان أصبح يرسل للناس على موجة بعيدة عن مؤشراتهم التى تعودوا على ضبطها على موجة ذات تردد مختلف!!

لقد بدأ هنيدى بإعلان البيان الأول لتلك الثورة وتتابعت القوات الأخرى فى الاقتحام والبيانات الأخرى أيضًا، ولهذا جاء وراءه علاء ولى الدين وهانى رمزى وأحمد آدم وأشرف عبد الباقى، ثم الصف الثانى الذى طمع فى الوصول للصف الأول مثل أحمد عيد وأحمد حلمى ومحمد سعد وأحمد رزق ولم تضق الدائرة على نجوم الكوميديا فقط لأننا بصدد ثورة فنية شاملة، فلقد شاهدنا أحمد السقا يتقدم وهانى سلامة وكريم عبد العزيز يلاحقانه، ووجدنا أيضًا محمد فؤاد يحقق إيرادات ومصطفى قمر يحاول وعمرو دياب يستعد والنجمات الجدد حنان ترك ومنى زكى وحلا شيحة وريهام عبد الغفور ووفاء عامر وأميرة فتحى وغادة عبد الرازق وهند صبرى التونسية ونور اللبنانية تعقد لهن البطولة النسائية!!

وعلى المقابل فإن مواقع عادل إمام ومحمود عبد العزيز وأحمد زكى ونور الشريف ونادية الجندى ونبيلة عبيد وليلى علوى ويسرا وإلهام شاهين قد تغيرت، وبات عليهم إذا أرادوا الاستمرار أن يفكروا فى قوانين أخرى درامية مغايرة وأفكار لم تكن فى العادة لهم ولم يكونوا لها، لكنها المرونة التى ينبغى أن يتحلى بها الفنان إذا أراد الاستمرار داخل الملعب. ولا ينبغى فى كل مرة أن يحرز هو الهدف، عليه الآن أن يرضى بأن يرسل الكرة إلى هداف آخر يعرف أكثر طريق المرمى.

وهذه إطلالة على نجوم الكوميديا زمن الروشنة كما يحبون أن يطلق عليهم ويحلو لنا أيضًا!!



محمد هنيدى حاليًا هو أنجح أفراد جيله على مستوى شباك التذاكر وأكثر النجوم الذين حققوا هذا التماس الجماهيرى، إذ إنه خلق ما يمكن أن نطلق عليه الارتباط الشرطى... الناس بمجرد أن تراه تستعد لا شعوريًا للضحك وقبل أن ينطق هو بالكلمة أو الإفيه أو اللمحة تجد الناس سبقته لتضحك، وهذه منحة خاصة إلا أنها لا تكفى لكى يستمر عطاؤه حيث ينبغى له أن يحيط ذلك بقدر من الذكاء فى الاختيار. ومحمد هنيدى يمتلك ذكاء فطريًا، إنه يقف الآن على مشارف الأربعين من العمر لكن ملامح وجهه لا تزال تتشبث بعالم الطفولة، ولهذا فإننا من الممكن أن تختصر على الأقل من شهادة ميلاده ١٠ سنوات. ويرتدى هنيدى «كاسكيت» على رأسه وتى شيرت يساهمان فى اختصار ٥ سنوات أخرى من الثلاثين، ولهذا فإنه من الممكن أن يؤدى وهو فى الأربعين - كما تشير بطاقته الشخصية - دور طالب جامعى فى الخامسة والعشرين ويفوتها له الجمهور!



هنيدى شأنه شأن أغلب الفنانين بدأ كومبارس صامت فى فوازير لعبت بطولتها شريهان وانتقل إلى أدوار صغيرة مع يوسف شاهين فى إسكندرية ليه ١٩٧٩، وخيرى بشارة يوم مر ويوم حلو ١٩٨٨، ثم يقترب من عادل إمام أكثر النجوم جماهيرية ليقدمه فى دور صغير لكنه لافت فى المنسى عام ١٩٩٣ إخراج شريف عرفة، حيث ردد الناس معه هذا النداء الشهير فى الأفلام الأجنبية قصة ولا مناظر، وبعد ذلك بعامين يمنحه داود عبد السيد فى فيلم «سارق الفرح» دورًا لافتًا أيضًا، ثم يعاود اللقاء مع عادل إمام عام ١٩٩٥ الجزء الأول من بخيت وعديلة إخراج نادر جلال، ويكتب عادل إمام المشهد الرئيسى له فى الفيلم، ومن خلال الجماهير الطاغية لعادل إمام يشير الناس إلى موهبة محمد هنيدى ويكسب بهذا نقاطًا عديدة لصالحه.

كان هنيدى بالنسبة لعادل مجرد فلاش يبرق فى فيلم سينمائى هو مسئول عن كل إضاءته بينما هنيدى مصباح صغير.. مثل سليمان نجيب فى أفلام نجيب الريحانى وأقل كثيرًا من الشاويش عطية - رياض القصبجى - فى أفلام إسماعيل ياسين، ولا أعتقد أن عادل إمام تصور أن هنيدى سوف يتجاوز هذا المكان وتلك المكانة! ولن يصبح الشاويش ضابطًا وقائد طابية.

وعلى استحياء وفى أفلام محدودة التكاليف يبحثون عن «المضحكين الجدد» تتم الاستعانة بمحمد هنيدى وعلاء ولى الدين

وأحمد آدم، وكان هنيدى وعلاء قد شكلا «دويتو» مقبولاً من الجمهور لخفة ظله ومقبولاً من شركات الإنتاج لضآلة أجره حيث إنه يحقق شكلاً كاريكاتيريًا القصير ضئيل الحجم «هنيدى» والسمين بإفراط «علاء ولي الدين»!!

كانت نقطة فارقة للاثنين معًا هنيدى وعلاء فى فيلم «حلق حوش» للمخرج محمد عبد العزيز فى مطلع عام ١٩٩٧ الفيلم بطولة ليلى علوى وتحت رعايتها وفقًا لشروطها، فهى الاسم الأكبر وهى المسئولة عن توزيع الفيلم فى الداخل والخارج، لكن هنيدى وعلاء أخذا مساحة درامية أكبر من كل التجارب السابقة لهما، وكان من الممكن أن ينطلقا جماهيريًا فى هذا الفيلم، لولا أن ليلى علوى لم يرضها فى فيلم كوميدى ألا تمارس هى أيضًا الكوميديا ولهذا أفسدت «الطبخة» وتقلصت الضحكات الممكنة لأن المخرج استجاب تمامًا لما تريده ليلى وليس لما ينبغى أن يكون عليه الفيلم الكوميدى، وانطلق بعد ذلك هنيدى وعلاء ومعهما آدم فى تجارب مماثلة مثل سمكة وأربعة قروش للمخرج شريف شعبان حيث كانت البطولة الأساسية لجالا فهمى، والنجوم الثلاثة مجرد أسماك صغيرة!

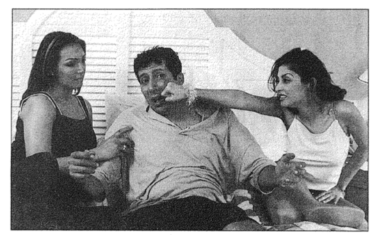
حتى جاء الفيلم الفارق وجاءت معه الصدفة التى دائمًا ما تتكرر فى دنيا الفن، ويصبح خيرًا من ألف اتفاق وميعاد، وذلك عندما يتم استكمال فيلم «إسماعيلية رايح جاى» لكى يعرض فى شهر أغسطس ١٩٩٧ وهو من الأشهر التى تعد بلغة موزعى ومنتجى الأفلام موسم «حرق الأفلام» ولهذا يقدم الفيلم بأربع نسخ فقط وبلا دعاية تذكر أو لا تذكر. ويتواكب مع عرض الفيلم خروج شريط غنائى لمحمد فؤاد، ويشارك فى الغناء محمد هنيدى بأغنية «كامننا»، الأغنية التى كتبها عنتر هلال ولحنها رياض الهمشرى. وتحقق الأغنية نجاحًا استثنائيًا، وهذه الأغنية كانت ضمن أحداث الفيلم.



ويختلط الأمر على الجمهور، البعض يذهب من أجل مشاهدة هذه الأغنية مرئية بعد أن استمتع بها على شريط كاسيت مسموعة. البعض يذهب لكى يشاهد محمد فؤاد مطربًا فهو نجم له جمهوره. أما محمد هنيدى فلم يكن قد حقق بعد أى تواصل حقيقى مع الجمهور، لا يوجد له جمهور يقطع التذكرة من أجل اسمه، فلم يكن قد حقق بعد هذا الاسم، لكنهم بعد أن يدخلوا إلى دار العرض يراهنون على اسمه. وحدث اللقاء المرتقب وتوحد الناس مع هنيدى، رغم أن فيلم «إسماعيلية رايح جاى» الذى كتبه أحمد البيه وأخرجه كريم ضياء الدين لا يمكن أن يدخل فى إطار الأفلام الجيدة ولا حتى المتوسطة، وأحداثه التى تجرى فى أعقاب هزيمة ٦٧ وقبل انتصار ٧٣، تجد فيها أطباق التليفزيون على أسطح المنازل ويتغنى بجهاز الموبايل ـ فؤاد وهنيدى ـ رغم أنه لم يكن قد تم التفكير فى اختراعه فى ذلك التاريخ ولا بعد هذا التاريخ بعشرين عامًا. تسامح الجمهور مع كل أخطاء الفيلم على كثرتها لأنه اكتشف مع محمد هنيدى شفرة جديدة للضحك. ويحسب لمحمد فؤاد أنه لم يمارس سطوة النجوم على محمد هنيدى لا أثناء التصوير ولا فى المونتاج ولا الدعاية، ولهذا أخذ هنيدى مساحته الدرامية وأخذ أيضًا حرية فى أن يضيف ما يراه ملائمًا من الإفيهات ولم يتدخل لا كاتب السيناريو أحمد البيه ولا المخرج كريم ضياء الدين، وبدلاً من أن يعرض الفيلم فى أربع دور عرض ازداد إلى ٢٥ دار عرض، وكان المأمول أن يحقق الفيلم نصف مليون جنيه فارتفع الرقم إلى ١٥ مليون جنيه أو يزيد!! وكان أكبر رقم حققه عادل إمام قبل ذلك هو ٧ ملايين.



أشرف عبدالباقى وياسمين عبدالعزيز فى فيلم «رشة جريئة»



هانى رمزى فى «جواز بقرار جمهورى»



محمد فؤاد وأحمد حلمى فى «رحلة حب»



أحمد رزق وأحمد عيد فى «فيلم ثقافى»

محمد هنيدى نظلمه ويظلم هو نفسه ويظلم أيضًا عادل إمام لو أنه وضع محمد هنيدى فى إطار التلميذ الذى يسير على نفس الخطى، لأن عادل إمام وأفلامه عندما يشارك فى خناقة فإنه يوسع المهاجمين ضربًا بينما هنيدى لا يشارك فى الضرب إنما يقدم نكتة أو يهرب بعيدًا عن الميدان، والناس تصدق ذلك من هنيدى وتتعاطف معه وتغفر له أيضًا هذه الحالة من الخوف. هنيدى ليس «الدونجوان» الذى تحبه الفتيات، من الممكن بالطبع أن تحبه واحدة ويصدق ذلك الجمهور، لكنه لا يتابع طريقة عادل إمام فى أن تحبه كل الفتيات فى الفيلم السينمائى وفى دور العرض، هنيدى هو نموذج لأى متفرج عادى بلا إمكانيات جسدية يعمل لها أى حساب ولا جمال أخاذ وسحر خاص، ولهذا يتوحد معه الجمهور الذى يشعر أفراده ـ أو معظمهم على أقل تقدير ـ بأنهم متفوقون عليه. ولهذا فإن فرصتهم أكثر منه فى إقامة علاقات مع الجميلات. ونجحت شركة العدل التى تتكون من منتج وممثل وكاتب وهم محمد وسامى ومدحت فى أن يقع اختيارهم على هنيدى قادم بعد إسماعيلية، وقدموا له صعيدى فى الجامعة الأمريكية على مواصفات هنيدى حيث يؤدى دور طالب يأتى من الصعيد إلى الجامعة الأمريكية. والمخرج سعيد حامد وأمام البنت الحلوة منى زكى مع مساحة وضعت بذكاء إلى أحمد السقا فى دور صديق محمد هنيدى ثم دور مهم لكوميديان قادم «هانى رمزى»، رحلة من الصعيد إلى الجامعة الأمريكية مليئة بهذا التناقض الذى يشتعل بين القيم المختلفة لمجتمع مغلق تمامًا فى صعيد مصر ومجتمع فى وسط مدينة القاهرة لديه دستور مغاير يدعو للانفتاح التام.. حقق الفيلم لمحمد هنيدى ٢٨ مليون جنيه وذلك عام ١٩٩٨ وكان يعرض بجواره فيلم له أهمية فنية وهو «اضحك الصورة تطلع حلوة» للمخرج شريف عرفة وبطولة أحمد زكى وليلى علوى ولم تتعد الإيرادات مليونى جنيه!!

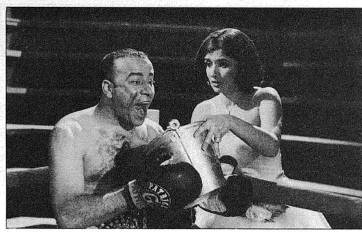
أكد «صعيدى» على أننا بصدد نجم له جمهوره يتابعه ويرتقبه، ولهذا ينتقل هنيدى من صعيدى فى الجامعة الأمريكية إلى «همام فى أمستردام» قاهرى يذهب إلى أمستردام بهولندا، ولم ينسوا أن يضعوا له البنت الحلوة موناليزا والأغنيات ثم أحمد السقا للمرة الثانية فى مساحة درامية أكبر من صعيدى. الفيلم كتبه مدحت العدل وأخرجه سعيد حامد، ثم انتقل هنيدى عام ٢٠٠٠ إلى المخرج نادر جلال مع نفس الكاتب مدحت العدل فى «الواد بلية ودماغه العالية» ووضح أن الاتجاه هو استثمار هنيدى سينمائيًا، ثم بعد ذلك تقديم بعض مشاهد من أفلامه فى برنامج تليفزيونى، مثلما حدث فى برنامج رمضانى وهو «أكشن»، وأن هنيدى تحول إلى تميمة للنجاح التجارى. وانتشرت تلك المعادلة تضع هنيدى على أى مشاهد سينمائية من المحفوظات العامة للسينما المصرية تحقق نجاحًا وحقق الواد بلية فى الأسبوع الأول ٥ ملايين جنيه، وبدأت بعد ذلك إيراداته فى التدهور، ولم يتجاوز الإجمالى ١٥ مليون جنيه. وشعر هنيدى بالخطر واعترف بأنه غير سعيد بالفيلم ويحتج على استغلال مشاهد له فى فيلم سينمائى لكى تقدم فى برنامج تليفزيونى، وقال أنه لن يسمح بتعليب مسرحياته وتقديمها سينمائيًا مثلما حدث له فى ألابندا!

شعر هنيدى بالخطر المحدق به ووصل إلى «جاءنا البيان التالى» مع الكاتب محمد أمين والمخرج سعيد حامد، كانت بالفيلم إرهاصة لقضية جادة وهى زيف الإعلام الرسمى. ولكن تقطعت أنفاس الكاتب والمخرج وهنيدى ولم يكملوا ما بدأوه، إلا أنه

في كل الأحوال فإن الفيلم كان أفضل من الواد بلية ودماغه العالية. ويستعد هنيدي مع سعيد حامد لمعركة هذا الصيف بفيلم «صاحب صاحبه» مع أشرف عبد الباقي الذي ارتضى أن يعمل تحت المظلة الجماهيرية لمحمد هنيدي بعد أن تعثر في البطولة المطلقة.

ولقد أعجبني هنيدي عندما قال «لا» لمن أرادوا استغلاله تليفزيونيًا ومسرحيًا وسينمائيًا، ولكن لا أعتقد أن هنيدي غير قابل - رغم كل ذلك - للاستغلال مسرحيًا وسينمائيًا وتليفزيونيًا، وعليه أن يزداد حرصًا حتى يوقف جمعية مستثمري هنيدي الذي يربحون من البحر وهو حق منفعة لكل البشر يتحول بعد تسويره إلى حمام سباحة أو شاطئ استثماري لصالحهم وعلى هنيدي أن يناضل حتى يظل بحرًا وليس حمامًا للسباحة لأصحاب المصالح!!





محمد سعد وغادة عادل في «٥٥ إسعاف»

مجموعة من المتناقضات.. هذا هو علاء ولي الدين.. إنه الحذر والتردد والخوف وفي نفس الوقت نجد الإقدام والشجاعة والجسارة.

إنه طاقة لا يدري من أين يأتيها كل هذا الحظ ثم تغلق ولا يدري ما هو سر هذا الشقاء ولماذا يكشر له الحظ عن أنيابه.

بدأ المشوار في نفس الفترة الزمنية مع محمد هنيدي وبرغم أن حرف العين يسبق أبجديًا حرف الميم، إلا أن اسم هنيدي كان يأتي في كل اللقاءات المشتركة بينهما سابقًا على علاء «العين لا تعلو عن الحاجب والعين لا تعلو أيضًا على الميم»!!

يرضى علاء ولي الدين بالقليل وكان غير مصدق أنه مطلوب في السينما ويبدو أن معاناته وهو صغير بعد رحيل والده الممثل المغمور سمير ولي الدين حددت له المعادلة وأن العمل هو من أجل تحقيق دخل للإنفاق على العائلة التي أصبح وهو في الرابعة عشرة من عمره مسئولاً عنها. كان عادل إمام حريصًا على أن يمنح علاء ولي الدين دورًا صغيرًا في أفلامه مثل الإرهاب والكباب، والمنسي، وبخيت وعديلة الأول والثاني، حتى رسالة إلى الوالي عام ١٩٩٨، وبينما كان هنيدي قد امتلك الشجاعة لكي يقول «لا» لعادل إمام ويعتذر عن دور صغير، فإن علاء ولي الدين كان يشعر بأن عادل إمام لا يمنحه دورًا يستحقه ولكنه يريد أن يحدد إقامته الفنية في مكان الممثل الكوميدي السنيد، وبرغم ذلك لم يعترض حيث تغلبت عليه روح الاستكانة والخنوع ووافق على هذا الدور رغم أنه كان فنيًا قد تجاوز تلك المساحات الفنية. ويلحق علاء ولي الدين بقطار محمد هنيدي ويقول له بفيلمه «عبود على الحدود» أنا أيضًا أحقق الملايين حيث بلغت إيراداته ١٢ مليون جنيه عام ١٩٩٩. كان علاء مجرد مشروع ممكن أن ينجح حيث استشعر المنتجون أن الرغبة العارمة في التغير ليست قاصرة على محمد هنيدي وأن هناك تعطشًا لمن يأتي ويطرق الباب وسوف يأخذه الجمهور بالأحضان والأموال، إلا أن الرقم ظل مفاجأة حتى بالنسبة لعلاء. ولعبت الصدفة دورها أيضًا لأن هذا الفيلم الذي كتبه أحمد عبد الله رشح لإخراجه أكثر من مخرج لا يمتلكون إيقاع مخرج الفيلم شريف عرفة. وليست لديهم موهبته وعندما عرض علاء السيناريو على شريف عرفة قال له: هذا الدور يصلح له نور الشريف!! بعد ذلك بأسبوعين اتصل به وقال له وجدت الحل وتم التعديل ليصبح الفيلم ملائمًا على مقاس علاء ولي الدين وفاتحة خير عليه، وعلى من شاركوه البطولة أحمد حلمي وكريم عبد العزيز حتى غادة عادل التي انطلقت قبل اعتزالها مؤخرًا في عدد من الأفلام!!



المضحكون الجدد في مصر

علاء ولي الدين لديه موهبة لا تنكر ويمتلك روح الطفل ويستطيع أن يخلق تلك الحالة من التعاطف مع الجمهور، ولكن يحتاج علاء إلى نص سينمائي يتم تفصيله عليه بكل دقة فهو لا يمكن أن يؤدي دور «الدونجوان» ولا الشجيع حتى نقتنع بأن البنت الحلوة تقع في غرامه.

واستطاع شريف عرفة والكاتب أحمد عبد الله أن يعثرا على فكرة فيلم الناظر في عام ٢٠٠٠. ويقدم علاء في هذا الفيلم العديد من الشخصيات الدرامية فهو الابن والأب والأم بالإضافة إلى شخصيات أخرى وينجح تمامًا في أداء دوري الأم والأب ويتألق المخرج شريف عرفة في استخراج أفضل لمحات علاء ويحقق الفيلم ١٧ مليون جنيه متفوقًا على محمد هنيدي في فيلمه «الواد بلية» الذي لم يتجاوز ١٥ مليونًا ويعتقد البعض أن علاء يطارد هنيدي على قمة الإيرادات ويتجدد الأمل عند باقي نجوم الكوميديا أمثال أشرف وآدم وهاني رمزي في أن القمة لم تعد قاصرة على هنيدي وأن السباق لا يزال في البدايات وكل الاحتمالات ممكنة. وينتعش علاء ويراوده الأمل في تأكيد موقعه باعتباره القوة الضاربة الأولى في شباك التذاكر مع أحمد عبد الله وشريف عرفة، يقدم ابن عز في ٢٠٠١ وتنهار الإيرادات، ويقع أيضًا علاء ضحية صراع الاحتكار بين شركات السينما، فلقد وجد نفسه في معركتين الأولى سببها ضعف فيلمه فنيًا والثانية صراع السوق. وخرج علاء مثخنًا بالجراح وبضآلة الإيرادات منكس الرأس بين نجوم الشباك وخاصة أن عام ٢٠٠١ شهد عودة هنيدي بفيلمه «البيان التالي» بإيرادات ٢٠مليون جنيه، كما شهد اقتراب محمد فؤاد بفيلمه المتواضع فنيًا «رحلة حب» ١٠ ملايين، وأن محمد سعد وأحمد حلمي في فيلم «٥٥ إسعاف» حققا إيرادات أعلى من علاء ولي الدين الذي لم يتجاوز ٥ ملايين جنيه!

أعتقد أن علاء ليس مجرد فنان حقق إيرادات من خلال فيلمين متتاليين وتعثر في الثالث وأن الفيلم الرابع محفوف بالمخاطر، أعتقد أن علاء قادر على تحقيق الإيرادات المتتابعة لأن بينه وبين الجمهور تواصلاً وحالة من الدفء إلا أن علاء فنان يتحرك في ظل معادلة فنية ينبغي أن تحسب بدقة، فإذا أحبته امرأة يراعي الكاتب والمخرج أن يصدق الجمهور ذلك، فإذا انتصر في صراع ينبغي أن يكتب بتفاصيل خاصة حتى لا يفقد إمكانية التصديق. علاء ليس هو الممثل السمين الذي يضحك الجمهور على الكيلوجرامات الزائدة، علاء جسد سمين وموهبته ثمينة، ومن هنا فإن ابتعاده هذا الصيف يضعه في موقع التحدي، وأعتقد أن مشروع «كارت إرهاب» الذي كتبه أحمد عبد الله وأسند إخراجه إلى علي إدريس سوف يغلق بابه نهائيًا ليبحث عن مشروع آخر...! إن علاء المتردد تراجع عن «كارت إرهاب» ولهذا انتظر علاء الجسور وهو الشخصية النقيضة في داخله أن تستيقظ لتبحث عن مشروع آخر، ربما يحول هذا المشروع إلى «سلم» يعيد علاء ولي الدين مرة أخرى إلى القمة التي ابتعد عنها بسبب «ثعبان ابن عز».. ربما!

لا يستطيع أحمد آدم أن ينسى ولا يريد أيضًا لهما أن ينسيا، أما الذي لا ينساه أحمد فهو أنه عندما بدأ المشوار الفني على المسرح وفي السينما، كان هو الأول سابقًا في الترتيب والتوضيح والحضور كلا من رفيقيه اللدودين هنيدي وعلاء.. وعندما قدم مسلسل «سر الأرض» في شخصية القرموطي، كان هو البطل المطلق بينما علاء وهنيدي لهما أدوار صغيرة بجواره، وهو لهذا لا يريد لهما أن ينسيا ذلك. ولهذا تفلت بين الحين والآخر تصريحاته الغاضبة خاصة من آدم ولا يعلق الصديقان ثم يعاود إطلاق التصريحات وهكذا كان آخر لقاء جمعه مع علاء وهنيدي في نفس عام ثورة «المضحكون الجدد» ١٩٩٧ وفيلما سمكة وأربعة قروش وجاء ترتيب آدم سابقًا لهنيدي وعلاء والتترات وأفيشات الدعاية. وكان يعرض لهم أيضًا في نفس العام فيلم بطولة مشتركة له وهو «ح نحب ونقب» لعبد اللطيف زكي، وتغيرت الخريطة في نهاية ٩٧. قرر آدم ألا يقف مكتوف الأيدي مقيد الطموح ووجدت أيضًا شركات الإنتاج أن طاقة هنيدي لا تتجاوز فيلمًا واحدًا في العام ولهذا عزفوا أن يمنحوا الفرصة لآدم وقدم فيلم «ولا في النية أبقى» إخراج كريم ضياء الدين مخرج «إسماعيلية رايح جاي»، وشارك في الكتابة أحمد البيه مؤلف «إسماعيلية»، ووقف مع آدم في الفيلم في دور صديق البطل «هاني رمزي» إلا أن الإيرادات جاءت في غير صالح آدم، ولهذا تم تسكينه في قائمة نجوم كوميديا الصف الثاني، مثلما كان سعيد صالح ويونس شلبي وسمير غانم في هذا الموقع الثاني بعد عادل إمام سينمائيًا، وحاول آدم تغيير موقعه وقدم التجربة الثانية «شجيع السيما» إخراج علي رجب، عرض على هاني رمزي مشاركته البطولة ولكن هاني كان قد انطلق إلى منطقة أعلى فتجاوز صديق البطل بعد أن أصبح يعد نفسه كبطل قادم. ولهذا اعتذر وتم إسناد دوره إلى ياسر جلال ولم تنصف الإيرادات آدم، وتكرر الأمر بعد ذلك في فيلم «تحت الربع بجنيه وربع» و«الرجل الأبيض المتوسط» تأجل عرضه من الصيف الماضي إلى الشتاء التالي، ولا تزال معركة آدم مستمرة لإثبات أنه نجم شباك في السينما. ولهذا قرر أن ينضم إلى محمد فؤاد وفيلمه القادم.

آدم لم ينس أنه كان الأول على هنيدي وعلاء. ويبدو أن معركة آدم القادمة لن تصبح في أن يطالب بعرض الكوميديا والسينما ولكن فقط في البقاء داخل دائرة نجوم الشباك في السينما حتى لو جاء ترتيبه في المركز الرابع والخامس!!

المهم أن يظل في الدائرة.



على سبيل الاستسهال يحاول الموزعون والمنتجون تنميط النجوم خاصة في مجال الكوميديا، ولهذا فإذا كان هنيدي هو القصير وعلاء هو السمين فإن هاني رمزي هو الطويل، وكما تقدم إفيهات للضحك على القصير والسمين، فإن الطويل أيضًا له مواقفه التي تحقق الضحك، وكان من الممكن أن يظل هاني رمزي مقيدًا، في هذا الإطار وخاصة أن شباك التذاكر لا يعترف إلا بالضحكات المضمونة، لكن

هانى من الواضح أنه أهدأ من زملائه ويملك القدرة على أن يذهب إلى ما هو أبعد من تلك الضحكات المباشرة المضمونة، نعم لكنها قصيرة العمر!!

هانى طرق الباب باعتباره أحد التلاميذ فى مسرح محمد صبحى وشاهدناه فى مسرحية «وجهة نظر» ممثلاً لافتًا وليس كوميديانًا بالمعنى المتعارف عليه، ولكن لديه خفة ظل ملحوظة، وفى مسرح صبحى يكبر فيه النجم إلى مرحلة يتم بعدها فطامه ولا يجوز أن يتجاوز مرحلة الفطام، وهذا هو ما حدث من قبل فى مسرح صبحى مع كل من أحمد آدم وصلاح عبد الله، بينما يستمر مع صبحى الفنانون الذين يقفون عند خط لا يتجاوزونه مثل شعبان حسين وعبد الله مشرف ومحمود أبو زيد!!

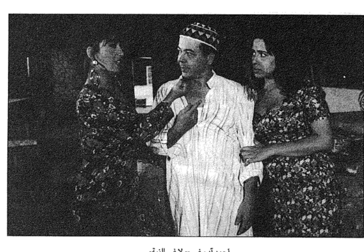
قفز هانى بعيدًا عن مسرح صبحى إلا أنه لا يذكر تلك السنوات إلا بقدر من الحب والعرفان، رغم انك تلمح غضبًا ما فى نبرة الصوت لا يعلنه هانى رمزى.. يشعر أن من مصلحته أن يكبته لا أن يكتبه!

تابعت هانى رمزى وهو صديق للبطل أو فى دور الشرير الذى يواجه البطل مع هنيدى فى «صعيدى» أو مع آدم «ولا فى النية»، وعلى المسرح وفى التليفزيون دائمًا أجده ممثلاً يتقمص الشخصية حتى جاءت له مساحة أكبر فى فيلم «الحب الأول»، أول إخراج لحامد سعيد وهو غير المخرج المعروف سعيد حامد، كان هانى فى هذا الفيلم هو متعهد الضحك بينما بطل الفيلم مصطفى قمر متعهد الحب والغناء والتسبيل.

وهانى لديه طموح أبعد ولهذا أقدم على «جواز بقرار جمهورى»، فيلم جرىء للكاتب محسن الجلاد والمخرج خالد يوسف، شاركته حنان ترك البطولة. ويبدو أن الرسالة السياسية فى الفيلم التى تعرى الفساد وتؤكد على أن كل شىء ينتظره حل من رئيس الجمهورية شخصيًا. وهذه الرسالة لم تكن تشغل بال جمهور السينما من الشباب الذين تتراوح أعمارهم حول العشرينيات لأنهم قطعوا التذاكر لكى يشاهدوا هانى رمزى الذى أضحكهم فى «فرقة بنات وبس» و«صعيدى رايح جاى» أن يكرر نفس الضحكات ويلقى عليهم نكتًا متوالية وليس موقفًا دراميًا، أنا بالطبع لا أبرئ ساحة الفيلم نهائيًا لأن هناك بالفعل مسئولية يتحملها أيضًا بناء الفيلم على مستوى البناء والإخراج الذى كان ينبغى أن يتشبع أكثر بقدر أكبر من الفانتازيا لكى تصل رسالته فى إطار أكثر إمتاعًا لجمهور السينما، ورغم ذلك فإن هانى رمزى كان لديه إحساس حقيقى بضرورة أن يقدم أوراقًا مغايرة لتلك التى يقدمها هنيدى وعلاء وآدم، هانى يستعد هذا الصيف بفيلم «محامى خُلع» أول إخراج لمحمد يس وتأليف وحيد حامد، يريد هانى أن يقول لأبناء جيله الذين وقف معهم بطلاً ثانيًا أنه قادر على أن ينافسهم بمفرده ويتحمل مسئولية الشباك، فهل يقول له الجمهور حبيتك فى الصيف حبيتك فى الشتاء؟



هانى رمزى وماجد المصرى وأميرة فتحى فى «فرقة بنات وبس»



أحمد آدم فى «ولا فى النية»



جملة واحدة فى فيلم سعيد مرزوق «المغتصبون» كانت كفيلة بأن تستشعر أن هذا الممثل لديه حضور وإشعاع خاص، كانت الجملة هى «هو فيه إيه». أما الممثل فهو أشرف عبد الباقى. أتذكر عند عرض هذا الفيلم أننى كتبت اسمه فى المقال مرتين. قلت تذكروا هذا الاسم جيدًا، ولا أعتقد أننى كنت الوحيد الذى استشعر ذلك لأن موهبة أشرف كانت قادرة على أن تعلن عن نفسها، ولهذا بعد سعيد مرزوق قدمه رأفت الميهى فى دور رئيسى فى فيلم «سيداتى آنساتى» وخيرى بشارة فى «آيس كريم فى جليم».. انطلق أشرف فى نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات ولدى الجميع إحساس حقيقى أن أشرف هو «الألفا» القادم بعد عادل إمام فهو كوميديان لا يعتمد لا على قصر قامته ولا طوله، ولا وزنه الزائد، إنه متوسط فى كل شىء إلا فى شيئين: الموهبة وخفة الظل. ولهذا فإن سعيد مرزوق أسند له بطولة فيلم «آى آى» أمام ليلى علوى وذلك عام ١٩٩٣، ورضوان الكاشف يسند إليه بطولة مشتركة فى «ليه يا بنفسج»، والراحل عاطف الطيب يمنحه بطولة آخر أفلامه «جبر الخواطر» عام ١٩٩٨، الفيلم عرض بعد ثورة المضحكين الجدد بعام، ولكن أشرف عرف البطولة قبل ذلك التاريخ ولهذا عندما فعلها هنيدى فى «إسماعيلية رايح جاى» عام ١٩٩٧، وجدوا أن لأشرف فيلمًا داخل العلب إخراج عاطف الطيب عام ١٩٩٥، وهو «جبر الخواطر» وعرض الفيلم، لكن الفيلم لم يحقق أى إيراد يذكر أو لا يذكر. ولم تتوقف المراهنة على «أشرف»، المخرج كريم جمال الدين يسند له البطولة فى «قضية أمن دولة» أمام يسرا، ويتكرر الأمر مرة أخرى مع إيناس الدغيدى فى «كلام الليل» أمام يسرا أيضًا.

ثم ينتقل أشرف ليتحمل البطولة منفردًا فى «أشيك واد فى روكسى» ١٩٩٩، إخراج عادل أديب ويفشل الفيلم ويلقون باللائمة على حسين الإمام المنتج والملحن والذى اشترك فى البطولة، ثم ينتج أشرف لنفسه فيلم «رشة جريئة» ويتفق مع المخرج سعيد حامد والكاتب ماهر عواد ويقدم فى فيلمه حكاية ممثل مغمور يطمع فى تحقيق شهرة ويقدم جانبًا من مسرحية عطيل ويفشل تجاريًا، رغم أن كل الأوراق كانت هذه المرة فى يده، إلا أنه لم يستطع أن يقترب من الجمهور. وكانت التوقعات التى كانت تضع أشرف فى المكانة الأولى فهو لم يستطع حتى أن يضع نفسه فى دائرة الممكن من النجوم.

ويبقى السؤال كيف خابت التوقعات وأنا أحد هؤلاء الذين كانت توقعاتهم حيث لم يعد أشرف إلى أطراف الدائرة ولم يتشبث حتى فى قطار نجوم الكوميديا.. إنه الجمهور صاحب اليد الأطول.. والكلمة العليا. لم يمتلك أشرف تلك المفردات التى تجعله نجم المرحلة.



هؤلاء هم البارزون فى دنيا الكوميديا الجدد، لكن الألفية الثالثة حملت أسماء صف ثان يطمع فى أن يحتل أيضًا المركز الأول مثل أحمد عيد وأحمد حلمى ومحمد سعد وأحمد رزق.

أحمد عيد يفجر الضحكات بدوره، فهو يقدم الموقف الصامت ورد الفعل الصامت، أتذكر له مشهدًا أو اثنين فى فيلم «شجيع السيما» أمام أحمد آدم عندما سأله بهدوء هو تليفون ليلى علوى المحمول اشتراك ولا كارت، أتذكر له أيضًا دوره فى «فيلم ثقافى» إخراج محمد أمين، كان مقتصدًا جدًا فى تعبيرات الكوميديا لكنها وصلت للناس، وفى فيلم «أفريكانو» إخراج عمرو عرفة أمام أحمد السقا ومنى زكى كان صديقًا للبطل ونجح فى إضفاء الإحساس الكوميدى، حتى الآن لايزال «عيد» هو نجم الصف الثانى وهو لا يقاوم وينتظر أن تأتى له الفرصة لكنه لن يسعى إليها ولن يصنعها، فقط ينتظرها، فإذا جاءت فإنه لها وإذا لم تأت فهذا قدره وكفى الله ممثلى الصف الثانى القتال من أجل النجومية.

أحمد رزق كان لافتًا عندما اشترك فى دور صغير جدًا فى فيلم «إسماعيلية رايح جاى» ثم كان أكثر أبطال «فيلم ثقافى» تلقائية، ولا أنسى له مشهدًا فى الكنيسة وهو يخطب فى تأبين المرحوم الذى لا يعرفه، وبعد ذلك وقع اختيار رأفت الميهى عليه فى فيلم «علشان ربنا يحبك» تقلصت مساحات الضحك وإمكانيات الوعد التى كنا ننتظرها من أحمد رزق، فقد تراجع إلى مشروع نجم مع إيقاف التنفيذ، أتمنى أن يكون الإيقاف مؤقتًا!!

أحمد حلمى ارتضى بموقع الصديق الدائم لعلاء ولى الدين، ثم هانى سلامة، ثم محمد فؤاد، ثم كريم عبد العزيز. لم يتحمس له الجمهور إلا فى بطولة مشتركة مع محمد سعد فى فيلم «٥٥ إسعاف» إخراج مجدى الهوارى، وكان الدافع هو رخص ثمن نجمى الفيلم. أغلب الظن أن أحمد حلمى سوف يسير على خطى عبد السلام النابلسى أستاذ أدوار صديق البطل.. ولقد حاول عبد السلام أن يتمرد وأنتج لنفسه فيلم «حلاق السيدات» وخسر فلوسه، لكنه لم يصبح بطلاً. ولا أعتقد أن حلمى سوف يغامر بفلوسه ولن يغامر أيضًا المنتجون بفلوسهم من أجله.

أما محمد سعد فلقد كان لافتًا فى دور «اللمبى» فى فيلم «الناظر» لشريف عرفة بطولة «علاء ولى الدين»، سعد لديه حضور سارق للعين، ولهذا فى بطولة مشتركة فى فيلم «٥٥ إسعاف» اقترب من الناس ويستعد هذا الصيف لكى يدخل على الحلبة بطلاً كوميديًا فى فيلم «اللمبى» ويعتبرونه هذا الصيف هو الحصان الأسود. هذا السباق المحموم الذى لا يرحم من يسقط أو تتباطأ خطواته.

مرت خمس سنوات على نجوم الضحك الجدد فى مصر الذين يقدمون لجمهورهم الوجبات الجاهزة الساخنة السريعة وحتى الآن هم مضحكون بلا مشروع سينمائى مغاير وبلا طموح مختلف، لم يواكب انطلاقهم كتاب ومخرجون يشكلون معهم رؤية أخرى على مستوى الصورة والفكر السينمائى. باستثناء بعض لمحات شريف عرفة الذى ينتمى إلى جيل أسبق حيث كون مع عادل إمام ووحيد حامد ثلاثيًا فى عقد التسعينيات. وهناك أيضًا لمحات من سعيد حامد وطارق العريان وساندرا نشأت، ولكن كتاب السيناريو البارزين فى هذه المرحلة مثل أحمد البيه وأحمد عبد الله ومدحت العدل ثغرة كبيرة تضرب المضحكين الجدد فى مقتل.

ولهذا تظل ثورة هؤلاء معرضة لثورة أخرى مضادة لأنها ثورة ناقصة حملت مفردات جديدة فى أسلوب أداء الممثل لكنها تردد نفس النغمات والإيقاعات القديمة، ولا يستطيع النجوم مهما كان لديهم من تواصل جماهيرى أن يمتد العمر الفنى بهم إذا تم تسكينهم فى قائمة النجوم ـ تيك أواى ـ.

أنتظر من هؤلاء النجوم قدرًا من الجراة فى الدفع إلى الساحة بقوة لكتاب ومخرجين يشاركونهم فى نبض وإحساس الروشنة!

ولا أقل عليهم وعلى ثورتهم السلام.. أو على رأى حكيم: إس إس السلام عليكوا، ولا يفل الروشنة إلا المزيد من الروشنة!!

السينما المصرية و هموم الشباب

جمال إسماعيل

«أفلام» بداية الألفية الجديدة «ذكورية».. تغلب عليها «الكوميديا».. تزيد مشاكل الجيل الجديد ولا تعبر عن طموحاته.. ويكمن سر الإقبال «الجماهيري» عليها في أنها «تقتل» وقت الفراغ و«الكآبة» ومليئة بالضحك والمرح.

إلى أي مدى استطاعت السينما المصرية أن تقترب من الشباب، تصور واقعه الاجتماعي وتعبر عن مشكلاته العامة والخاصة؟ ما هي طبيعة وأبعاد هذه المشكلات الاجتماعية، وما هي «نوعية» هذه السينما؟ ما هي مضامينها وحجم تأثيرها على الشباب وتأثره بها وبما تقدمه كآلية من آليات الثقافة، وكوسيلة اتصال جماهيري ذات قدرة هائلة في التأثير على الجمهور المتلقي، وإحدى وسائل التنشئة الاجتماعية التي تلعب دورًا مهمًا في تشكيل وعي وهوية الشباب، الذي يعد أهم الشرائح التي تحتل مكانة محورية في المجتمع، كما يعد الشريحة الأكثر حساسية إزاء التحولات التي تطرأ على المجتمع، والأكثر شوقًا للتغيرات الاجتماعية؟



تساؤلات ترسم إجاباتها ملامح محاور أساسية لأحدث دراسة أكاديمية تتناول عبر فصولها ومباحثها أهم ملامح مشكلات الشباب في المجتمع المصري، وكيفية اقتراب السينما المصرية من الشباب، ومن تلك المشكلات، في فترات «رصد» تشمل ثلاث حقب تبدأ منذ أوائل السبعينيات، مرورًا بالثمانينيات والتسعينيات، وحتى بداية الألفية الجديدة. وقد انتقت الباحثة عينة لأفلام صدرت في كل حقبة من الحقب الزمنية المختارة، وقامت بتحليل مضمون لتلك الأفلام. واقترن هذا التحليل في تناول أفلام حقبة التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بتحليل كمي وكيفي لمشكلات الشباب، من وجهة نظر الشباب أنفسهم، ومن خلال عينة البحث المختارة من بين طلبة وطالبات جامعات مصرية، حكومية وخاصة. وقد انصبت إجابات الشباب على الأسئلة الواردة ضمن صحيفة الاستخبار الخاصة بالبحث الميداني في الدراسة على الأفلام «الحديثة». الأمر الذي يجعل من آخر حقبة زمنية مختارة من قبل الباحثة نقطة محورية في عرضنا لهذه الدراسة الأكاديمية المتميزة.

عندما تأرجحت الطبقة الوسطى واهتزت

شهد المجتمع المصري خلال عقد التسعينيات، العديد من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك بفعل محاولات التغلب على الأزمات الاقتصادية عن طريق ترشيد السياسات الخارجية وفتح الباب أمام الاستثمارات العربية والأجنبية، وإفساح المجال أمام القطاع الخاص في مجالات الاستيراد والتصدير وإقامة المشروعات التجارية والخدمية.

وقد صاحب ذلك تخلي الدولة عن سياسات كثيرة كانت تلتزم بها من قبل، كسياسة دعم السلع التموينية وتعيين الخريجين، كما أدى ذلك أيضًا إلى اتساع نطاق المواقع الطبقية الرأسمالية التي شهدت انضمام جماعات جديدة ممن يطلق عليهم «الأثرياء الجدد». وفي هذا الإطار غدا تجميع الثروة هو القناة الرئيسية للحراك الاجتماعي في ظل انتشار وسيادة القيم المادية. وراحت آليات التحول الاقتصادي تعمل على إعمال القوانين العامة للنظام الرأسمالي، قادت إلى ازدياد غنى الأغنياء وفقر الفقراء، واهتز وضع الطبقة الوسطى فتأرجحت وساءت أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وعانى الملايين من أبنائها من الخوف والقلق على المستقبل، فظهر الاغتراب وعدم الانتماء والانفصال عن المجتمع وما نجم عن هذه الأوضاع من انحرافات وفساد وبلبلة، خاصة لدى الشباب، وهم الشريحة الأكثر حساسية للتغيرات والتحولات، والأكثر تفاعلاً معها وتأثرًا بنتائجها. وفي ظل هذه التغيرات ظهرت مشكلات وظواهر جديدة: حالات التهور واللامبالاة والعنف والزواج العرفي والسري.

كثرت حالات الطلاق والانفصال والدخول في جماعات ذات انتماءات غريبة عن المجتمع أو متطرفة. انتشرت ظواهر أخرى في المجتمع مثل البلطجة، كنتاج للفوضى الاجتماعية وانشغال الأمن بمحاربة التطرف. زادت جرائم الاغتصاب وقتل الأزواج، وقتل الأبناء للآباء. وبانتهاء الألفية الثانية، وظهور العولمة، ظهر تأثر المجتمع المصري بها، وبغيرها من تغيرات عالمية، وامتد التأثير ليشمل الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.



وترصد الباحثة، د. عالية أبو دومة، ٥ ظواهر ثقافية تضع أطرًا للمشكلات التي اتضحت معالمها في الحقبة المشار إليها وهي: النزوع نحو التمسك بالشكليات والجمود والتطرف الديني، نزوع استهلاكي شديد وشيوع ثقافة الاستهلاك، انحسار مستوى المشاركة والعزوف عن الحياة العامة، والشعور بالاغتراب وتراخي الولاء القومي والطبقي والاجتماعي وتعاظم الشعور بالفوضى وعدم احترام القانون، وتهديد الثورة العلمية والتكنولوجية لمنظومة القيم. وتأثر الشباب بنمط الحياة الغربية والأمريكية. تلك هي ملامح الواقع الاجتماعي ومشكلاته كما ترصدها الدراسة. فماذا عن «سينما الشباب» في مرحلة التسعينيات وبداية الألفية الجديدة؟

في الجزء الخاص بالتحليل النقدي، السوسيولوجي، لأفلام هذه الحقبة تشير الباحثة «أبو دومة» إلى أن بعض الأفلام جاءت معبرة عن الواقع، «وذلك نتيجة لهامش الديمقراطية، ومناخ الحرية، الذي ساد هذه الفترة وأدى إلى انتعاش حرية الصحافة والأدب والفن، فجاءت الأفلام معبرة مجسدة للمشكلات التي عانى منها الشباب والمجتمع». ولكن إلى أي مدى «كانت معبرة»، وإلى أي حد استفادت السينما، في هذا التعبير، من مناخ الحرية الذي ساد.

من شباب على كف عفريت إلى دماغ بلية

عند تناولها لسينما حقبة التسعينيات رصدت الباحثة ٥٦ فيلمًا تبدأ بفيلم «شباب على كف عفريت» إخراج محسن محيي الدين عام ١٩٩٥، وتنتهي بفيلم «بلية ودماغه العالية» إخراج نادر جلال عام ٢٠٠٠. لاحظت الباحثة، من خلال الملامح العامة لحقبة التسعينيات انتشار الأفلام التي تناولت مشكلة المخدرات والإدمان باعتبارها «تيمة رابحة» تعكس انتشار الظاهرة - اجتماعيًا - كرد فعل لحركة الرواج المادي في أوائل تلك الحقبة، حيث ظهرت طبقة أثرياء جدد، وحيث نشطت حركة تهريب وتجارة المخدرات وأصبحت من وسائل الثراء السريع، كما أصبح الإدمان والتعاطي من وسائل هروب الشباب من المشكلات التي تواجههم، أو لجوء البعض منهم إلى المخدرات كوسيلة للتميز ومسايرة للجو العام السائد في تلك الفترة.

في هذا السياق تشير الدراسة إلى أفلام مثل: اللعب مع الشياطين، المساطيل، بنت مشاغبة جدًا، المشاغبات والكابتن، مراهقون ومراهقات، فارس المدينة، المشاغبون في نويبع، بنات في ورطة، الغرفة ١٢، والقتل اللذيذ. وظهرت في التسعينيات أيضًا الأفلام التي تناولت الفساد بمظاهره المتعددة كالإتجار في العملة والتحكم في أسعارها، سرقة أموال الحكومة والتهرب من الضرائب، الرشوة والمحسوبية، والإتجار في الأغذية والبضائع الفاسدة، وانحرافات كبار المسئولين. ومن هذه الأفلام: الفضيحة، بوابة إبليس، اللعب مع الكبار، الإرهاب والكباب، دماء على الأسفلت، طيور الظلام، بخيت وعديلة، المنسي، وإنذار بالطاعة.

رصدت سينما التسعينيات أزمة الشباب ومعاناتهم الناجمة عن «ظروف اجتماعية واقتصادية» والمتمثلة في الإحباط والاغتراب والرفض. وتناول فيلم «ديسكو ديسكو» تمرد ورفض الشباب للمعايير والقيم والسلطة ممثلة في الآباء والأمهات والقائمين على التعليم. وتعرض الفيلم لانحرافات هؤلاء الشباب ولجوئهم إلى السرقة والإدمان والزواج السري، والدخول في علاقات غير سوية. وكما تعرض فيلم «القتل اللذيذ» لانشغال الأهل عن رعاية الأبناء، أبرز فيلم «بيتزا بيتزا» حالة الضياع التي تعاني منها مجموعة من الشباب الفاقد للهدف، الغائبة عنه هويته، والمتمرد المعترض. لقد تأثرت الأفلام بحركة التغريب و«الأمركة» ويجسد فيلم «آيس كريم في جليم» مشكلة اغتراب الشباب عن واقعهم، حيث الشخصية الرئيسية منتمية للثقافة الغربية، تعيش في مصر لكنها لا تسمع، ولا ترى، سوى الموسيقى والأفلام الغربية، ولا تشعر بداخلها بأي انتماء إلى مصر وثقافتها. وفي فيلم «أمريكا شيكا بيكا» يصبح السفر إلى أمريكا هو الأمل والحلم لمجموعة من الشباب المتباينة الصفات والطبقات والانتماءات. وينتهي الفيلم باكتشاف حجم الأكذوبة في الحلم والأمل. وفي حين يتعرض فيلم «صعيدي في الجامعة الأمريكية» لأزمة الهوية المصرية، وعدم الانتماء لدى بعض فئات من الشباب، يتناول فيلم «هاللو أمريكا» مساوئ المجتمع الأمريكي «المفتوح».



تناولت أفلام سينما التسعينيات مشكلة التطرف والإرهاب كرد فعل للإحباط الاجتماعي والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي مر بها المجتمع. وتناولت الباحثة، بالتحليل النقدي، أفلام: الإرهابي، طيور الظلام، وأيضًا هاللو أمريكا. كما رصدت الأفلام التي تناولت مشكلات خاصة بالفتيات «حيث أبرزت السينما مشكلة التعامل مع الفتيات كجسد، والنظر إليهن ككائن بيولوجي في المقام الأول، أو مجرد سلعة تباع وتشترى». «وقد صورت بعض الأفلام الفتيات يعملن كوسيط لتسهيل العمليات التجارية وعقد الصفقات والتأثير على المستثمرين». من بين هذه الأفلام: المساطيل، مراهقون ومراهقات، فارس المدينة، وإنذار بالطاعة. وفي ظل «الثقافة الاستهلاكية» أصبحت الصورة تسعى إلى تحطيم الحاجز اللغوي وإثارة الغرائز وأحلام تحقيق الأماني والشهرة والثراء السريع، لاقتناء السلع المادية والكمالية والملابس والسيارات الفاخرة وغير ذلك من «ثقافة» جسدتها أفلام مثل سوق النساء، الباشا، دماء على الأسفلت، وآيس كريم في جليم. كما رصدت السينما ظاهرة الزواج العرفي في

السينما المصرية وهموم الشباب
عالية أبو دومة
رسالة دكتوراة غير منشورة..
نوقشت وأجيزت بجامعة عين شمس أبريل ٢٠٠٢

بعض الأفلام مثل: ديسكو ديسكو، لحم رخيص، يا دنيا يا غرامى، وطيور الظلام.

ركزت سينما التسعينيات على أفلام الحب والزواج: دسوقى أفندى فى المصيف، آيس كريم فى جليم، مستر كاراتيه، إسماعيلية رايح جاى، اضحك الصورة تطلع حلوة، صعيدى فى الجامعة الأمريكية، الحب الأول، شورت وفانلة وكاب، وبلية ودماغه العالية. وتباينت المشكلات التى واجهت الشباب فى إتمام الزواج والعثور على الشريك المناسب.

ومن الملامح العامة لسينما الشباب فى التسعينيات أيضًا تناول موضوعات ومشكلات جنسية مثل: الكبت، الإثارة، الشذوذ، الأمراض، التحرر، والعجز الجنسى. وظهر ذلك فى أفلام مثل المزاج، القاتلة، أمريكا شيكا بيكا، استاكوزا، همام فى أمستردام، هاللو أمريكا، فيلم ثقافى، الحب فى طابا، والنوم فى العسل.

تعرضت سينما التسعينيات لمشكلة البطالة، وحاولت إيجاد حلول غير تقليدية لها، و«تعتبر تيمة الحراك الاجتماعى وانتقال الشخصية الرئيسية من طبقة أدنى إلى طبقة أعلى، من أكثر التيمات تأثيرًا فى المشاهدين، إذ تسمح لهم بالتنفيس عن إحباطاتهم وهمومهم الداخلية». وظهرت هذه التيمة واضحة فى أفلام إسماعيلية رايح جاى، أمريكا شيكا بيكا، هاللو أمريكا، الناظر، وغيرها من أفلام تغلب فيها «الشباب» على مشكلة البطالة، إما باكتشافه قدرة داخله تجعله ينتقل - فجأة - إلى عمل آخر يرتفع به إلى مكانة أعلى، أو بالهجرة خارج الوطن، أو بالدخول فى صفقات مريبة واستغلال نفوذ.

رصدت سينما التسعينيات ظواهر العنف والبلطجة وظهور «الحارس الخاص» كإطار تكميلى لشباب البرجوازية العليا وضرورة للوجاهة الاجتماعية. وظهر ذلك فى أفلام منها: اللعب مع الكبار، فارس المدينة، مستر كاراتيه، لا يا عنف، المنسى، الباشا، القتل اللذيذ، وبخيت وعديلة.

مفردات لغوية غريبة فى الألفية الجديدة

لاحظت الباحثة عند رصدها لملامح سينما التسعينيات ومدى اقترابها من مشاكل الشباب، أن السمات الغالبة على أفلام نهاية العقد الأخير وبداية الألفية الجديدة، تتمثل فى أن معظم الأفلام الكوميدية هزيلة وسطحية، وصفها بعض النقاد بأنها «أفلام بهلوانات» وتميزت عناوينها بالسذاجة والغرابة مثل: ولا فى النية أبقى.. عبود على الحدود، الجردل والكنكة، أشيك واد فى روكسى، وحنحب ونقب. وترى الباحثة أن مثل هذه الأفلام اتسمت بعدة ملامح هى:

* انتماء الأبطال، أو الشخصيات الرئيسية، إلى فئة الشباب التى تعددت وجوههم وكثر عددهم فى الآونة الأخيرة.

* هذه الأفلام لا تقوم على شخصية محورية واحدة.

* شخصيات الأبطال تميزت بأنها منتقاة من هامش المجتمع لكى تعبر عما أفرزته المتغيرات الاجتماعية والسياسية من مشكلات مختلفة لأفراد لم يصبهم أدنى حراك اجتماعى.

* تميزت الأفلام بتكرار حبكات ومفردات سينمائية معينة، من «إفيهات» ونكات وتراكيب لغوية مميزة لكل فيلم، وأغان ورقصات غير معتادة.

* غلبت على مضامين هذه الأفلام تناول تيمة الحراك الاجتماعى والصعود السريع، بضربات الحظ. كما سايرت هذه الأفلام موضة الغناء والحوار الذى لا معنى له مثل: باكالولو، كامننا، يا نانا يا طاطا، وكاجولوه.

* حصرت هذه الأفلام أحلام الشباب فى النقود، الدش، الموبايل، السيارة الفاخرة، الحياة المرفهة، والرغبة فى مسايرة الموضة وشراء ملابس من «ماركات» عالمية.

* كان لصورة «البطل» تأثيرها الكبير على مشاهدى الفيلم، «لأن الأفراد يضعون أنفسهم - عادة - فى موضع الأبطال، ويتقلبون بطريقة لا شعورية الاتجاهات التى يعبرون عنها.

وقد تميزت صور «الأبطال» فى هذه الأفلام بأنها صور سلبية تتسم بالسطحية، وبفقدان القدرة على التمييز بين ما هو جاد وما هو وهمى وزائف. وأصبحت الأغانى والمفردات الغريبة فى هذه الأفلام جزءًا من ثقافة الشباب. وقد أظهرت نتائج بحث وتحليل «استمارات الاستبيان» الملحقة بالدراسة الأكاديمية التى نحن بصددها، أن الشباب اكتسبوا معظم المفردات اللغوية الجديدة من الأفلام، فتكونت لديهم ثقافة فرعية خاصة بهم.

لقد كان فيلم «إسماعيلية رايح جاى» سنة ١٩٩٨، بمثابة الضوء الأخضر لهذه النوعية من الأفلام، حيث حقق إيرادات فاقت كل إيرادات الأفلام السابقة، وشغل دور العرض لفترة طويلة، وحقق نجاحًا جماهيريًا ساحقًا. وقد يرجع انتشار ورواج هذه الأفلام إلى كثرة الضغوط والصعوبات التى يواجهها الشباب، الذى وجد فى مثل هذه النوعية تنفيسًا له، بالإضافة إلى اقترابها من ثقافته وواقعه ولغته ورغبته فى التزود بـ«مصطلحات» جديدة تميزه. وقد وجدت الباحثة أن كثيرًا من الشباب استند عند اختياره للأفلام التى يراها قريبة منه معبرة عنه، إلى تقارب أعمار الشخصيات الرئيسية فى هذه الأفلام، مع أعماره.. الأمر الذى أوجد أُلفة وتوحدًا عمقتهما اللغة والمصطلحات المستخدمة.

كذلك وجدت الباحثة فى تحليلها لإجابات الشباب، أنهم يرون هذه الأفلام قريبة من واقعهم «لأنها تساعد على شغل وقت الفراغ وملئه بالمرح والضحك والبعد عن الكآبة والقيام بالوظيفة الترفيهية المنشودة».

قدرة ليست على قدر الطموحات

فى الاستبيان الخاص بآراء الشباب حول مدى قدرة افلام السينما المصرية، فى التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، على تجسيد مشكلاتهم، جاءت الإجابات واضحة تؤكد أن القدرة لم تكن على قدر الطموحات وأن نسبة كبيرة من الشباب كانت تنتظر من السينما، وهى تتناول مشاكلها، أن نطرح لها بعض الحلول. وقد أجمع ٢٢٪ من طلبة الجامعات المصرية و١٦٪ من طلبة الجامعات الخاصة، على أن هذه الأفلام لم تستطع أن تعكس مشكلاتهم. وقال الأغلبية أنها عكستها، ولكن إلى حد ما. أما عن الحلول فقد قالت الأغلبية من أفراد العينة، بذكورها وإناثها، أن الأفلام لم تطرح حلولاً للمشكلات بصفة عامة، وإن كانت قدمت - أحيانًا - بعض الحلول الجزئية أو السلبية.

ملمح آخر مهم، من ملامح السينما الحديثة، وربما ملامح المجتمع بشكل عام، أبرزته الدراسة ويتمثل فى استمرار طغيان السينما الذكورية. ففى الوقت الذى اهتمت فيه الأفلام بتقديم صورة الشباب فى أنماط مختلفة لنماذج متنوعة، جاء تحليل إجابات الطالبات ليبين أن الأفلام لم تبرز صورة الفتاة المصرية بشرقيتها وذكائها وحيائها وشخصيتها المستقلة. لم تبرز صورة الفتيات المسيحيات الملتزمات. أهملت صورة الفتاة الرياضية الناجحة عالميًا، كما أهملت صورة الفتاة العاملة والأم الصغيرة التى تعانى صراع الأدوار والإحباطات اليومية. وركزت فى الغالب على التعامل مع الفتاة أو المرأة على أنها «لقطات مثيرة» ودمية لعرض الأزياء والإغراء والإثارة.

وعن تناول الأفلام لمشكلة الزواج السرى يرى أفراد العينة، من جامعة خاصة أن الأفلام توجه بعض الشباب إلى الزواج العرفى باعتباره الطريق الوحيد فى ظل ظروف صعبة». ويذكر شاب فى جامعة حكومية أن الأفلام التى تثير الغرائز الجنسية «تضع الشباب أمام مشكلة لا حل لها إلا بالزواج السرى». وعن المخدرات تقول فتاة فى جامعة حكومية إن الأفلام تدعو إلى تدخينها باعتبارها الحل الوحيد للهروب من المشاكل». ويرى أحد أفراد العينة، من جامعة خاصة «أن عرض المشاهد التى يدخن فيها الأبطال المخدرات ويشربون الخمر وسط أجواء مرح وضحك، يجعل البعض يتمنى لو كان فى أماكن هؤلاء الأبطال».

وترى أغلبية العينة أن الأفلام مسئولة عن انتشار سلوكيات ضارة تصورها السينما فى تفاصيل «مشجعة»، مثل العنف، السب بالألفاظ البذيئة والركيكة، الانحراف، السرقة والاحتيال، الثقافة الاستهلاكية والملابس الغريبة الفاضحة، وعمليات الاغتصاب.

أولويات. نتائج. ورؤية مستقبلية

محوران أساسيان قدمت الباحثة من خلالهما أهم النتائج التى كشف عنها البحث الميدانى، هما:

* ترتيب المشكلات الاجتماعية طبقًا لأهميتها من وجهة نظر الشباب.

* علاقة السينما بالواقع الاجتماعى للشباب.

فى المحور الأول: احتلت مشكلة الشعور بعدم الانتماء للوطن، كمشكلة سياسية، مركز الصدارة فى سلم أولويات واهتمامات الطلبة والطالبات. تليها مشكلة غياب القدوة السياسية والقضايا الوطنية والعربية. وجاءت مشكلة ضعف المشاركة السياسية فى آخر الترتيب. وأشار الشباب إلى مشكلة فقدان المصداقية فيما يقال لهم.

وعلى صعيد المشكلات الاقتصادية اتفق الطلبة والطالبات على أن مشكلة البطالة تحتل الصدارة، تليها مشكلة أزمة السكان ثم الفساد والواسطة والمحسوبية. وجاءت «قلة الدخل» و«ارتفاع الأسعار» فى المرتبة الأخيرة.

أما الظواهر الانحرافية فى المجتمع فقد تقدمتها مشكلة الإدمان ثم اللامبالاة، وبرز اتفاق واضح على أن ارتفاع تكاليف الزواج فى مقدمة الأسباب التى تحول بين الشباب وبين الارتباط بالزواج. الأمر الذى يؤدى إلى تفاقم حالات الزواج السرى. كذلك توصل البحث إلى وجود إجماع بين الطلبة والطالبات، من العينة المختارة، حول مشكلة تأثير الغزو الثقافى الأجنبى ومخاطرها والنتائج المترتبة عليها، وعلى الثقافة الوطنية القومية. واحتل الغزو الإعلامى المرتبة الثانية فى رؤية الشباب للمشكلات الثقافية. كما أرجع الكثير من الطلبة والطالبات، الكثير من المشكلات والظواهر المرضية فى المجتمع إلى «عدم الالتزام» والبعد عن الدين. واعتُبر التطرف مشكلة ناجمة عن رد فعل للأوضاع السائدة والفساد الأخلاقى. وقد تبين أيضًا أن الكبت الجنسى هو مقدمة المشكلات «الخاصة» التى يعانى منها الطلبة، واحتلت مشكلة «الإحباط» المرتبة الأولى لدى الإناث، واحتلت مشكلات عدم تحقيق الذات والفراغ وضعف الثقة بالنفس والشعور بالعجز مراتب متباينة لدى الجنسين.



وفى المحور الثانى الخاص بالسينما والواقع الاجتماعى للشباب، من واقع نتائج البحث الميدانى: أوضحت الدراسة أن أغلبية العينة، سواء من الطلبة أو الطالبات، يفضلون مشاهدة الأفلام على شاشات التليفزيون سواء القنوات الرسمية أو المتخصصة أو الفضائية. وأجمعت العينة المختارة على تفضيل الأفلام العربية القديمة. وقد يرجع ذلك إلى الحلول المبسطة التى تطرحها هذه الأفلام، والتى غالبًا ما تنتهى نهايات سعيدة وتكون غنائية استعراضية من كلاسيكيات السينما المصرية. وفى الوقت الذى فضل فيه الطلبة الأفلام الكوميدية، فضلت الطالبات الأفلام الرومانسية، وتدنت نسبة الاهتمام بأفلام التراجيديا.

اتفق الشباب، ذكورًا وإناثًا، حول مدى تأثرهم بصورة وسلوكيات الشخصية المحورية فى الأفلام، ومحاولة الاقتداء بها وتقليدها فى المظهر وأسلوب الحديث والتعامل مع الآخرين.

وفى ضوء ما سبق من نتائج، توقعت الباحثة فى رؤيتها المستقبلية، استمرار أزمات الشباب ومعاناتهم من مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية. كما توقعت أن تتطور أحلام وطموحات الشباب، وتتزايد تطلعاتهم، فى ظل الانفتاح الإعلامى والثورة المعلوماتية.

وفى ظل انتشار موجة «أفلام الشباب» من المتوقع أن يزداد تأثر الشباب باللغة السائدة فى تلك الأفلام «التى قد ساهمت فى تكوين لغة خاصة يتداولونها كجزء من ثقافة خاصة». ومع الانفتاح الإعلامى والتقدم التقنى من المتوقع أن تقل نسبة الأفلام القائمة على الإضحاك فقط دون الاهتمام بالمضمون، وأن يتم تناول قضايا الشباب ومشكلاتهم بأساليب وأشكال أكثر عمقًا وموضوعية.

هذه هى محاور ملفات أحدث دراسة حول «السينما والشباب»، تدق بالأدلة والأدوات الأكاديمية العلمية، أجراس الخطر، وتوقظ الشوق وتعلى الأمل فى سينما تروى حكايات البشر والأمكنة دون استفزاز «محلى» وبعيدًا عن دوائر أوهام «همام» فى أمستردام.

سينما تقدم صورة لا يستبدل فيها «كابوريا» الملاكم الشعبى، حلم الوصول إلى العالمية والتفوق الرياضى، بالتحول إلى ملاكم «ترفيهى» يسلى أسرة ثرية تريد كسر دوائر الملل بالمراهنة على الملاكمات. وأفلام تحارب عادات وتقاليد بالية، تبدد الخوف من المستقبل والمستجدات الثقافية، ويقدم الخيال المبتكر فى إبداعاتها بعض حلول لبعض مشكلات الشباب، ولو بالعودة إلى صورة الإنسان القادر على الفعل الإيجابى، والمواجهة، والانطلاق. ■

عروض موجزة

كتب عربية

أول حكاية: حكايتى مع الدبلوماسية

جميل مطر

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢٧٠ص



يعرف قراء مجلة «وجهات نظر» مؤلف هذا الكتاب جيداً، فقد كان أحد الذين شاركوا فى تأسيسها والإشراف عليها والكتابة فيها منذ أن ولدت فكرة وحتى صدور الأعداد السبعة الأولى منها. ولكن أغلب القراء يعرفون جميل مطر من خلال ما يكتبه فى الصحف والمجلات العربية من تحليلات سياسية متنوعة فى العلاقات الدولية والشئون العربية، وكذلك يعرفه الدارسون فى العلوم السياسية من خلال كتبه ودراساته ومن خلال مركز الدراسات الذى يديره والذى يؤمه شباب الباحثين للاسترشاد وللاطلاع على أحدث المراجع والدوريات التى تخلو منها أغلب مكتباتنا الجامعية.

ويعد هذا الكتاب الذى صدر منذ ثلاثة أشهر أول فرصة تتيح للقراء معرفة أجزاء من خلفية هذا الرجل الذى وصفه الأستاذ صلاح الدين حافظ فى تقديمه للكتاب بالصامت حين يتمرد! ومع هذا فإن الجانب الذاتى فى رواية حكاية شاب فى العمل الدبلوماسى ليست هى كل ما يشتمل عليه الكتاب، حيث إنه يقدم صورة تفصيلية من داخل وزارة الخارجية المصرية لمرحلة مهمة من تاريخ مصر، تمتد من عام ١٩٥٤ حين التحق جميل مطر بالسلك الدبلوماسى وحتى عام ١٩٦٨ حين اختار ترك العمل الدبلوماسى والعودة إلى الجامعة طالباً فى الدراسات العليا فى مونتريال.

ربما ما يميز هذه المذكرات أنها تروى رحلة شاب فى أول السلم الدبلوماسى بعكس المذكرات التى يروى فيها أصحابها عن إنجازاتهم فى مواقع المسئولية واتخاذ القرار، وأعتقد أن هذا هو السبب فى طابع التمرد الذى وصفت به. فقد اصطدم الشاب الملتزم والمتحمس لقضية وطنه بممارسات غير مقبولة من بعض السفراء الذين عمل تحت رئاستهم تضر بسمعة البلاد أو تنافى الأمانة وروح المسئولية. ولكن بقدر الصراحة التى روى بها الكاتب تفاصيل تلك الممارسات والأحداث السياسية المهمة التى ارتبطت بها، بقدر السرية التى فرضها على أسماء أبطال هذه الحكايات، وهو موقف باعث على الإزعاج من ناحية ولكنه أيضاً باعث على الاحترام من ناحية أخرى.

تدور حكايات جميل مطر مع الدبلوماسية فى نيودلهى، وبكين، وروما، وسانتياجو، وبيونس ايريس، والتى برع فى وصف كل منها بشوارعها وأجوائها وناسها وروائحها، جاعلاً من هذا الكتاب نموذجاً من أمتع نماذج أدب الرحلات. فقد استطاع أن يتناول موضوعات مثل علاقة الديموقراطية الهندية والبيروقراطية الصينية بالبنية المجتمعية والثقافية فى كلا البلدين، وخلفيات الحرب الباردة التى تحكمت فى مصير شيلى وفرضت عليها حكم بينوشيه، بنفس البساطة التى وصف بها نهر لابلاتا، وأسلوب تخطيط المدن الأسبانية، وملاهى روما، ومزارع الشاى فى سفوح تلال سيلان.

ومن ضمن الشخصيات القليلة التى ظهرت بأسمائها فى مذكرات جميل مطر الشاعر الراحل نزار قبانى الذى جمعته بالمؤلف صلة صداقة وزمالة فى بكين عندما بدأ الدمج بين وزارتى خارجية مصر وسوريا أثناء دولة الوحدة. كما جمعته تجربة إنسانية رقيقة دارت فصولها بين بيونس ايريس ومونتريال والقاهرة مع بطل السباحة المصرى عبد اللطيف أبوهيف، كشفت عن البطولة الإنسانية التى تلازمت مع البطولة الرياضية فى شخصية «تمساح النيل».

إن تشابك التاريخ الشخصى بالتاريخ العام، والوصف الأدبى بالتحليل السياسى فى هذا الكتاب يجعل منه مادة شيقة للقراءة. وإذا كانت كتابات جميل مطر وتحليلاته السياسية تتسم بالاتساع فى مجالات الاهتمام والتعمق فى الأبعاد الثقافية التى تحيط بالظواهر والأزمات الدولية، فإن تأثير الخبرات والتجارب التى كشف عن بعضها هذا الكتاب تفسر هذه السمة إلى حد بعيد.

□ □ □

الاقتصاد المصرى والعولمة

شريف دلاور

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢، ١٤٢ صفحة



فرضت العولمة بإجراءاتها أنماطاً جديدة من التفكير فى الواقع السياسى والاقتصادى، وباتت كل دولة مطالبة بتحسس مواقعها فى النظام الدولى وفقًا لآليات تزول فيها الحدود وتتلاشى الخصوصيات ويسود نظام دولى وحيد.

وربما كان الشق الاقتصادى فى العولمة هو الغالب وهو الذى يستدعى قدرًا أكبر من محاولات التكيف.

وكما يشير المؤلف فإن الإشكالية العامة التى تواجه السياسات العامة اليوم فى كل الدول تتمثل فى التوفيق بين تحرير الأسواق من جانب، ومتطلبات الفئات العريضة من جانب آخر، بعبارة أخرى، إحداث التوازن بين اقتصاد السوق والعدالة الاجتماعية.

وهى مسألة ليست سهلة فى ظل إلغاء الإجراءات الحمائية التى كانت تتخذها الدول دعمًا لمنتجاتها وحفاظًا على أسواقها، فضلاً عن التصادم المحتمل بين قيم العولمة الثقافية والخصوصيات الوطنية والقومية.

المؤلف يتعرض لكثير من تلك الإشكاليات ويطرح رؤية علمية لإعادة صياغة السياسات الاقتصادية تعيد الاتزان للوضع الآلى فى القطاعات المصرفية بما فيها تعديل أسعار الفائدة وأسعار صرف العملات والإنفاق العام والخاص والتمويل العقارى والمنظومة الضريبية. وكذلك التعامل الفعال مع معطيات العولمة وتحقيق التعاون الاقتصادى العربى.

□ □ □

من حياتى مع الموسيقى

سمحة الخولى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٣١٠ صفحات



قضت المؤلفة جل سنوات حياتها فى رحاب الموسيقى. تدرُسها طالبة، ثم تدرِّسها فى معاهدها المتخصصة، إلى أن انتهى بها المطاف عميدة لمعهد الكونسرفتوار ثم رئيساً لأكاديمية الفنون، وحتى بعد انتهاء حياتها الوظيفية بقيت على صلة بالفن الذى أحبته، أستاذاً غير متفرغ وممثلاً لمصر فى المجلس الدولى للموسيقى.

وبرغم شغفها بالموسيقى الغربية، فإن المؤلفة أجادت العزف على آلة العود، وهو ما شهد به لها ممتحنها فى الدبلوم النهائى الموسيقى الرائد صقر على، كما أن شهادتها للدكتوراه من جامعة أدنبرة كان موضوعها الإطار التاريخى والفكرى والدينى للموسيقى فى الحضارة الإسلامية. إلى جانب حصولها على دبلوم الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن فى عزف البيانو.

هذه المزاوجة التى تنظر إلى الموسيقى فى شمولها دون تفرقة بين شرقية وغربية، تتضح بجلاء فى فصول الكتاب الذى تبدأه المؤلفة بفرسان التلحين الشرقى، وتشير إلى عطاء كل منهم وجهوده فى مجاله، وأولهم كامل الخلعى الذى يعد كتابه «الموسيقى الشرقى» من عيون كتب الموسيقى المصرية فى مطلع القرن، فضلاً عن عديد من الموشحات والأوبريتات التى مازالت محفورة فى ذاكرة الموسيقى العربية، وتحدثنا عن الشيخ سلامة حجازى رائد المسرح الغنائى فى مصر. الذى نقل فن الغناء من أسلوب غناء الوصلة مع التخت فى ليالى السمر والطرب إلى الغناء المسرحى، ثم سيد درويش الذى عبر بالموسيقى المصرية والغناء من صالونات الخاصة إلى الشوارع والأزقة والحوارى، ولهذا لُقِّب بفنان الشعب «لأن الموسيقى المصرية قبله لم تكن تعرف غير الشجن والوجد والهيام، وبعده كانت الموسيقى تغنى للوطنية وتعبر عن طوائف العمال وتوحى بجو الريف وتسخر من الحكام الطغاة».

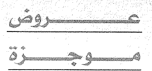
وتتابع المؤلفة عطاء رواد الموسيقى المصرية: زكريا أحمد ومحمد القصبجى وسيد مكاوى ومحمد عثمان. ثم تعرض لأدوار نفر من رواد التأليف الموسيقى بمعناه الأكاديمى من أمثال يوسف جريس وحسن رشيد وأبوبكر خيرت وجمال عبدالرحيم «زوج المؤلفة» الذى تتحدث عن مشوار حياته الموسيقية والتحديات التى واجهها فى سبيل دراساته للموسيقى فى الخارج.

ومن الصفحات المهمة فى الكتاب، تلك التى يضمها الفصل الثالث والذى تعرض فيه لشخصيات تركت أثرًا فى مجال الموسيقى دون أن تكون الموسيقى هى مجال بحثها واهتمامها الأصيل مثل العالم المصرى الكبير الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم الذى أسس الجمعية المصرية لهواة الموسيقى، والمفكر الأديب الدكتور حسين فوزى الذى كانت كتاباته وأحاديثه الإذاعية وبرامجه عن الموسيقى الغربية، سببًا فى نشر الثقافة الموسيقية بين قطاعات شعبية عريضة. والشيخ أمين الخولى «والد المؤلفة» المفكر الإسلامى والقاضى الشرعى الذى أشاع باستنارته ورؤيته الثقافية جوًا من حب الفنون واحترامها فى وقت نظر إليها بعض المشايخ بوصفها رجسًا من عمل الشيطان.

وكانت دراساته عن اللغة فى القرآن الكريم دراسة فنية وأدبية رفيعة. وآخرين من أمثال بهيجة رشيد وعواطف عبدالكريم ويوسف السيسى.

وتخصص المؤلفة القسم الأخير من كتابها لمتابعات نقدية وتحليلية تدور حول الموسيقى وعنها، وكيف يمكن الارتقاء بها وتقريبها من الوجدان الشعبى.

□ □ □



ثورة المعرفة والتكنولوجيا

بشّار عباس

دمشق: بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١، ١٦٠ صفحة



بانتقال العالم من عصر الاقتصاد الصناعى إلى اقتصاد المعرفة فى ثمانينيات القرن الماضى. انتقلت المجتمعات إلى طور جديد فى تطورها، وصار مجتمع المعلومات هو السمة التى يمكن إطلاقها على عصرنا دون تردد، وتشير إحصاءات يوردها المؤلف إلى أن العلاقة المباشرة بين التنمية وعملية توليد المعلومات واستخدامها، إذ أن أكثر من ٥٠٪ من الناتج الإجمالى فى الدول المتقدمة مبنى أساسًا على المعرفة، كما يبلغ النمو فى قطاع المعلومات فى أوروبا حوالى ٣٠٪ أى ما يعادل خمسة أضعاف نمو الاقتصاد العام فى أوروبا والبالغ ٦٪ عام ٢٠٠٠، وهو ما يعنى أن الاستثمار فى مجال المعلومات والتكنولوجيا صار أحد أهم عوامل الإنتاج.

وقد أدركت دول عدة خصوصًا أمريكا واليابان أهمية التعليم فى اقتحام مجتمع المعلومات، حيث أعادت الولايات المتحدة النظر عدة مرات فى سياستها التعليمية منذ نهاية الستينيات، واعتبر التعليم هدف ذو أولوية فى المجتمع اليابانى، وكانت النتيجة أن نسبة الاكتشافات الأمريكية المسجلة عالميًا بلغت ٥٥٪ من مجموع الاكتشافات فى العالم، وتبلغ النسبة ٢١٪ فى اليابان، فيما لم تبلغ النسبة فى دول الاتحاد الأوروبى مجتمعة ١٥٪ (تُرى هل هناك معنى للحديث عن نسبة الاكتشافات العلمية فى دول العالم الثالث؟).

المؤلف يؤكد على قيمة التكنولوجيا الحديثة فى التعليم، ويشير إلى فشل الأساليب التعليمية القديمة المنتهجة فى بلادنا، والتى تتجاهل الوسائط المتعددة والتكنولوجيا النقالة والإنترنت والثورة الهائلة فى مجال الاتصالات، وهى جميعًا ظواهر حطمت الحواجز الجغرافية وحررت الأفراد من قيود المكان.

ومن ناحية المضمون يشدد الكتاب على أهمية التطور فى مجالات تعليم الرياضيات والعلوم بوصفها قاعدة للتقدم التكنولوجى الذى يغذى اقتصاد المعرفة وتنفيذ برامج التنمية الشاملة، ولكن ذلك لا يعنى انهدام الأمل فى دخولنا عصر المعلومات، فالبلدان العربية - بحسب المؤلف - تمتلك أرضية قوية للانطلاق وبناء نظام للمعلومات العربية، ويورد المؤلف إحصاءات مهمة عن عدد خريجى الجامعات وحملة شهادات الدكتوراه والمختصين فى العلوم التطبيقية والهندسية ونسب الإنفاق على التعليم والبحث العلمى، لكنه يعلق على الإحصاءات فيشير إلى انعدام الروابط بين منظومة التعليم وافتقار خريجى الجامعات إلى المعلومات الكافية للتقدم فى المجال العلمى. فضلاً عن غياب القرار السياسى الذى يدعم التعاون فى مجال تكنولوجيا المعلومات.

ويقترب المؤلف من واقع التعليم العربى ومشكلاته فيشير إلى أن نسبة الأمية بين البالغين تبلغ نحو ٤٨٪ أى نحو ٣٥ مليونًا معظمهم من النساء، كما أن الإنفاق على الفرد فى التعليم لا يتجاوز ٣٤٠ دولاراً، فيما يبلغ الإنفاق على الفرد فى سنوات التعليم فى أوروبا حوالى ٦٥٠٠ دولار، وتبلغ نسبة الإنفاق على البحث والتطوير من العالم العربى حوالى ٠,٤٪ من إجمالى الإنفاق العالمى على الهدف ذاته، ويقدم المؤلف عدة مفاهيم أساسية لتطوير التعليم أبرزها التوازن بين الفلسفة الفردية وتعميق روح الجماعة للارتقاء بالتعليم، ويؤكد فى موضع آخر على أهمية التكنولوجيا المناسبة للعملية التعليمية فى التعليم عن بُعد والتدريب المهنى والتعليم المستمر، ويحدد معايير عدة لهذا الاختيار بما يسمح بتطوير المهارات وتحقيق التفاعلية بديلاً عن التلقين فى إطار تكلفة مناسبة واستخدامات سهلة، ويقدم المؤلف دراسة مستفيضة عن التعليم والعولمة مناقشًا مخاطرها وإمكانيات الانفلات من تأثيراتها السلبية والاستفادة من إيجابياتها إلى أقصى حد ممكن.

□ □ □

الموسيقى ومنزلتها فى فلسفة الفارابى

سالم العيادى

تونس: دار الوسيطى للنشر، ٢٠٠٢، ٢٠٠ صفحة



يرتبط فهم الفارابى لنظرية الموسيقى بتعريفه لمفهوم النطق، إذ يرى أن هيئة الموسيقى النظرية تنطق. والمعقولية المثبتة للموجود الموسيقى تمثل المبدأ الموجِّه للمشروع الفارابى الذى أعلنه فى فاتحة كتابه «الموسيقى الكبير»، حيث قال إن إقدامه على صياغة نظرية الموسيقى يفترض الإقرار بأن الموجود الموسيقى معقول لا تتجاوز أعراضه الذاتية قدرة العقل، كما لا يتعارض مع أسس النسق الفلسفى، وإنما هو امتداد لها، يقول الفارابى: الألحان وما ينسب إليها هى من الأشياء التى تُحس وتُتخيل وتُعقل، وهو هنا يختلف مع التصور الفيثاغورثى الذى جعل من الموسيقى حالة صوفية ومنحة إلهية تعجز عن فهمها وتعقلها أدوات التحليل.

فى هذا الإطار يشير المؤلف إلى تمييز الفارابى بين الموسيقى النظرية والموسيقى العملية وكيفية إدراك كل منهما والعلاقة التكاملية بينهما وشروط إدراك هذه العلاقة استنادًا إلى الحس والقياس مع تفضيل الحس بوصفه الحاكم على العقل وليس العكس.

ويصنف الفارابى الموسيقى ضمن علوم التعاليم وهى سبعة: علم العدد وعلم الهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم وعلم النجوم التعليمى وعلم الموسيقى وعلم الأثقال وعلم الحيل، وموضوع علم التعليم هو موضوع كلى، وأجزاؤه السبعة تُدرَك متكاملة، لكن انتساب الموسيقى إلى علم التعاليم ليس كانتساب علوم العدد والهندسة إليه، فهى نسبة الجزء إلى الكل، وهى نسبة المتأخر إلى المتقدم، و«الكندى» يجعل من علم التعاليم علمًا أوسط بين الطبيعة وما بعد الطبيعة.

بهذه المعانى يمكن القول إن فلسفة الموسيقى وجه من وجوه التفكير فى أشكال ظهور الحقيقة، وفى أشكال التواصل الإنسانى فيها، مما يجعل فلسفة الموسيقى امتدادًا لفلسفة الحقيقة والسعادة (الحكمة)، وهى - أى فلسفة الموسيقى - من ناحية ثانية، وكما يشير المؤلف، نظرية فى الموسيقى التعقلية التى يقترن فيها الإنشاء الجمالى بمعرفة قواعد الإنشاء من ناحية، وبالوعى بالمقاصد المدنية للإنشاء من ناحية ثانية، وهذا ما قصد إليه الفارابى حين كتب فى الموسيقى، التى هى وجه من وجوه الفلسفة لديه، وامتداد لاهتمامه الفلسفى الأصلى.

□ □ □

إشكاليات قصيدة النثر

عزالدين المناصرة

بيروت: عمان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ٥٣٢ صفحة



يكاد الوصف الذى يطلقه الشاعر عزالدين المناصرة فى كتابه على قصيدة النثر بوصفها «نصًا مفتوحًا عابرًا للأنواع»، أن يكون أدق الأوصاف وأصدقها تعبيرًا عن تلك القصيدة الإشكالية التى بقدر ما أسهم شعراء كبار فى ترسيخ وجودها فى السنوات الأولى من خمسينيات القرن المنقضى، بقدر ما أساء إليها آخرون حين استسهلوا الإبداع عبرها انفلاتًا - فقط - من قيود الوزن والقافية، دون الارتكان إلى شعرية حقيقية تولد موسيقى الشعر وإيقاعاته الداخلية عبر المعنى واللفظ والدلالة، بديلاً عن الأوزان والقوافى.

يتابع المؤلف اجتهادات «كبار» قصيدة النثر، إذ يجمع كثيرون على أن مقالة أدونيس عن قصيدة النثر فى العام ١٩٦٠ هى "أول مقالة نقدية واضحة المعالم عن خصائص قصيدة النثر"، وكما يشير المؤلف فإن الأفكار الأساسية التى انطوت عليها المقالة، اعتمدت بشكل رئيسى على ما كتبته سوزان برنار عن قصيدة النثر بالفرنسية، وهو ما نبَّه إليه الشاعر عبدالقادر الجنابى حين قال بوضوح إن مقالة أدونيس أساءت لمفهوم قصيدة داخل النثر الفرنسى، بهذا المعنى - يضيف الجنابى - فإن أدونيس لم يكتب قصيدة نثر واحدة.

ويقدم المؤلف نقدًا وافيًا لأطروحات أدونيس حول قصيدة النثر وكذلك عن أفكار أنسى الحاج وبول شاءول وشربل داغر ومحمود درويش وأحمد عبدالمعطى حجازى وآخرين.

ويشير إلى الانفجار الذى شهدته قصيدة النثر فى الثمانينيات والتسعينيات، وظهور عشرات الأسماء ممن يحسبون أنفسهم على كتابتها، والخلاصة التى يقدمها المؤلف قبل الولوج إلى تحليل عشرات النماذج وتمحيص آراء نقدية عديدة تناولت قصيدة النثر، هى أن حركة الشعر المنثور التى بدأت مع أمين الريحانى عام ١٩١٠ وحركة النثر الشعرى التى بدأت مع جبران خليل جبران عام ١٩١٤، قد مهدتا لظهور قصيدة النثر فى أواسط الخمسينيات، والتى جاءت محكومة بمرجعية أورو - أمريكية من جهة، وبمرجعية عربية نلمحها فى الكتابات الصوفية وأسفار التوراة واللغة الإنجيلية.

ويشير المؤلف إلى مسألة بالغة الأهمية، وهى تحالف كتّاب قصيدة النثر الشباب فى الثمانينيات والتسعينيات مع ثلاثة شعراء هم أدونيس وسعدى يوسف ومحمود درويش، ففى مقابل الاعتراف بهم فقط دون منافسيهم، على هؤلاء أن يدشنوا شاعرية جيل الشباب من كتّاب قصيدة النثر، وهى - أى قصيدة النثر - هى قصيدة العولمة، وهى تعبير عن حالة التشظى العربية منذ الحرب الباردة، وهى كذلك تعبير عن حالة التجريد وتبريد اللغة الشعرية الذى ترغبه السلطة، لأنه يلتقى مع مفهوم طمس الهوية الذى تريده العولمة.

ويؤكد المؤلف فى ختام خلاصته، أن قصيدة النثر العربية «تعرَّبت»، ولا يمكن تجاهلها، وأنها ينبغى، أن تقرأ كجنس مستقل له هوية خاصة، سواء كانت درجات الشعرية فيها عالية أم هابطة.

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب أجنبية

West of Kabul, East of New York

(غرب كابول، شرق نيويورك)

Tamim Ansary

Farrar, Straus and Giraux, 292PP., 2002, $22.00



مؤلف هذا الكتاب تميم أنصارى مولود فى أفغانستان، عاش طفولته هناك لكنه أمضى معظم حياته فى الولايات المتحدة، حيث يعيش الآن كاتبًا صحفيًا مقيمًا فى ولاية كاليفورنيا. وبسبب هويته المزدوجة تلك فإنه يمكن أن يتحدث بعمق عن موضوعه بعد أن سكبت قنوات التليفزيون الأمريكية فى أعقاب ١١ سبتمبر كمًا كبيرًا من المعلومات التى اعتبرتها حقيقية ويقينية عن كل شىء ابتداء من الإسلام ومرورًا بالإرهاب وحتى الأفغان. واختار المؤلف عنوانًا موفقًا لكتابه فشرق كابول يعنى أيضًا أنه يتحدث عن الشرق وغرب نيويورك يعنى الحديث عن الغرب، فكان هناك تقابل بين الشرق والغرب، وبين المدينتين. يتحدث أنصارى عن ١٦ عامًا عاشها فى بداية حياته فى كابول وتحديدًا فى خمسينيات القرن العشرين، وكان أبوه الذى ينتمى لأسرة أرستقراطية شاعرًا وأستاذًا للأدب فى الجامعة، ثم مسئولاً حكوميًا. وقد التقى الأب بوالدة تميم أثناء دراسته فى شيكاغو وتزوجها ثم عاد بها إلى أسرته فى أفغانستان.

الجزء الثانى من الكتاب يتحدث عن عودة تميم مرة أخرى مع والدته وأخته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٤ ثم دراسته فى ريد كولدج فى أوريجون واستقراره وعمله رئيسًا لتحرير إحدى الصحف فى سان فرانسيسكو كما يتحدث أيضًا عن زواجه.

ويشير المؤلف إلى أنه فى بداية الثمانينيات عندما أيقظت الثورة الإسلامية فى إيران طفولته الإسلامية قرر أن يقوم بجولة من خلال شمال أفريقيا وتركيا بحثًا عن الجذور. ويقول تميم إنه لشدة ألمه اكتشف كيف أن مسلمى هذه الدول ليسوا فقط بعيدين عن مستوى الحياة الأمريكية التى يعيشها هو، بل أيضًا عن الإسلام، كما عاشه هو فى فترة طفولته وصباه فى أفغانستان.

ويتحدث المؤلف عن ظاهرة الأصولية الإسلامية ونشأتها ويبدى احتقارًا شديدًا لأسامة بن لادن ومخاوف من الأفكار التى يمثلها هذا الأصولى. ويقول إن الإسلام لا يمثل تهديدًا كما يشاع فى الغرب، بل ذلك النوع من الإسلام المتولد عن الفقر والحرب والشظف الاقتصادى والاجتماعى.

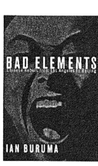
□ □ □

Bad Elements
Chinese rebels from los Angeles to Beijing

(عناصر سيئة: المتمردون الصينيون من لوس أنجلوس إلى بكين)

Ian Buruma

Weidenfeld and Nicolson, £ 20.00, 2002



يطرح مؤلف الكتاب أسئلة جريئة عن المستقبل السياسى للصين.. هل يستمر نظام الحكم الشيوعى؟ هل يحدث انتقال سياسى سلمى إلى نظام تعددى؟.. والمؤلف هنا لا يعتقد أنه من الممكن حدوث مثل هذا الانتقال السياسى بشكل سلمى لكن من يعرف ماذا سيحدث.

لقد ظلت الصين على مدى عشرات السنين مجتمعًا مغلقًا على فهم كثير من الغربيين وتحدث البعض عنها بشكل مجرد كما لو كانت لوحة سريالية إلا أن المؤلف فى كتابه يتحدث عنها كمجتمع حى عن مجتمع مؤلف من أفراد وليس فقط من جموع أو حشود، وهذا سر أهمية الكتاب الذى يأخذنا إلى مجتمعات الانشقاق على نظام الحكم الشيوعى فى بكين سواء كانت تلك المجتمعات فى تايوان أو سنغافورة أو الناجين من مذبحة تيان آمين «ميدان السلام السماوى» فى قلب بكين فى نهاية ثمانينيات القرن العشرين. ويتحدث أيضًا عن التجربة الديمقراطية التى يصفها بالمؤدبة فى هونج كونج التى عادت عام ١٩٩٧ إلى حضن الصين الأم وأيضًا عن حركات المعارضة فى داخل البلاد. ومن خلال كل ذلك يطرح أسئلة.. هل التجربة الديمقراطية فى تايوان، التى تطالب الصين بعودتها إليها يمكن أن تتكرر فى الصين؟ أم هل يمكن أن تصاب الصين بعدوى الديمقراطية من هونج كونج حتى لو كانت ديمقراطية غير مكتملة كما يقول المؤلف؟

ويعتقد المؤلف أنه لكى يمكن أن نتطرق إلى إجابات لمثل هذه الأسئلة المستقبلية فإنه لابد من الرجوع إلى الماضى إلى الثقافة الكونفوشية التى عاشت مئات السنين ولازالت فى المخزون العميق للصينى العادى. إن طريق الصين فى المستقبل لن يكون على النمط الذى كان يعتقد كثيرون، بل سيكون لها طريقها الخاص النابع من تاريخها وتجاربها وهذا هو سر عظمة الصين.

□ □ □

Sport in Latin American Society
Past and Present

(الرياضة فى أمريكا اللاتينية: الماضى والحاضر)

J.A.Mangan and lamartine P.DA Costa Editors

Cass, 210PP, £ 42.50, 2002

استمتع العالم طيلة الشهر الماضى بمباريات كأس العالم فى كوريا واليابان. وبالطبع كانت فرق أمريكا اللاتينية وفى مقدمتها البرازيل حديث الجميع وإذا كانت انجلترا قد اخترعت كرة القدم فإن أمريكا اللاتينية والبرازيل فى المقدمة هى التى أعطت لكرة القدم طعمًا ورائحة ولونًا بحيث أصبح لا يذكر اسم كرة القدم دون أن يتبادر للأذهان البرازيل والأرجنتين وغيرهما من دول هذه القارة.

إن الرياضة بشكل عام، وفى المقدمة كرة القدم، عامل أساسى فى حياة الملايين فى أمريكا اللاتينية. البعض يقول أنها مخدر وهناك من يقول أنها دين وآخرون يرونها كرنفالاً. لكن الأمر الذى لاشك فيه أن الرياضة هناك ارتبطت بالقومية والتحديث وبالذكورية. لقد كانت الرياضة قوة تحرر وفى نفس الوقت قوة مساندة للديكتاتورية وقد ساعدت فى توحيد القارة وفى إشعال الحروب بين دولها. إنها تخترق التاريخ الثقافى لأمريكا اللاتينية كما لم يحدث فى أى قارة أخرى.

وهذا الكتاب مجموعة من المقالات تشرح تطور وأهمية هذه الظاهرة ثقافيًا، وتتفرع الأبحاث زمنيًا وقطريًا أى من دولة إلى أخرى وكذلك رياضيًا بمعنى الحديث عن فنيات الرياضة وقوانينها، وعلى سبيل المثال فإن توماس كارتر يتحدث فى أحد فصول الكتاب عن دور كرة السلة فى دعم مصطلح ومفهوم الذكورية بين المشجعين فى العاصمة الكوبية هافانا بينما يتحدث فيل ديوك وليزكرولى عن الروابط بين كرة القدم والسياسة فى الأرجنتين.

□ □ □

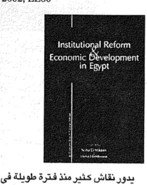
Institutional Reform And Economic development in Egypt

(الإصلاح المؤسسى والتنمية الاقتصادية فى مصر)

Edited by: Noha El Mikawy

And: Heba Handoussa

Cairo: Auc Press (Paper back), 2002, LE80



يدور نقاش كثير منذ فترة طويلة فى مصر حول مسألة ترابط الإصلاح السياسى والمؤسسى مع الإصلاح الاقتصادى، ويختلف المحللون والخبراء، فهناك من يؤكد حتمية هذا الترابط باعتباره الأساس المتين للتقدم، بينما يشير البعض إلى إمكانية البدء بالإصلاح الاقتصادى على أن يتلوه فيما بعد الإصلاح السياسى ويضربون بالتجربة الصينية مثالاً على ذلك.

وهذا الكتاب الذى أصدرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة يتناول هذه القضية الأساسية وهى العلاقة بين السياسة والاقتصاد مع الإشارة إلى تجربة مصر فى التسعينيات ووجهات نظر علماء السياسة والاقتصاديين فى هذه المسألة.

ويقدم الكتاب مجموعة كبيرة ومهمة من المعلومات والبيانات بما فى ذلك استطلاعات رأى عام تفصيلية تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أهمية أن يسير الإصلاح السياسى جنبًا إلى جنب مع خطوات الإصلاح الاقتصادى.

وتقدم المؤلفتان نهى المكاوى وهبة حندوسة تحليلاً معمقًا عن التشريع المصرى ويلفتان الانتباه إلى ناحية أساسية فى الإصلاح المؤسسى ألا وهى القاعدة المعرفية والمعلوماتية للتشريع وأيضًا الهيكل التنظيمى لصياغة السياسات.

وفيما يتعلق بما حققته مصر من إصلاح اقتصادى فى بداية التسعينيات، فإن المؤلفتين تركزان بشكل رئيسى على معوقات زيادة الصادرات وهى قضية ملء السمع والبصر فى مصر حاليًا، وهناك كلام كثير للغاية عنها دون أن يتحول إلى فعل حقيقى يتمثل فى تحسين فرص الصادرات المصرية فى الخارج.

قــــراءات جــــديـدة

اقتصـــاد

Blue Gold: The Fight to Stop the Corporate Theft of the World's Water

(الذهب الأزرق: المعـركـة من أجل وقف الشركات عن سرقة مياه العالم)

Maude Barlow and Tony Clarke

New Press, 2002, 296PP., $25.95

فى بعض الدول تمت خصخصة المياه، مما أدى إلى ارتفاع مـعـدلات الاسـتـهـلاك واستنفاد الموارد. وفى بعض الأماكن يدفع السكان الفقراء ثمنًا أعلى للمياه من السكان الأغنياء. يؤكد المؤلفان على أن المياه حاجة أساسية ويجب أن تعامل بشكل يختلف عن السلع الأخرى ولا يصح وضعـهـا فى أيدى الشـركـات الخـاصـة. وهـمـا يـعـبـران عن خوفهما من السلطة والقوة التى أصبحت فى أيدى الشـركـات المـتـعـددة الجنسـيـة وتحكمهم فى الاقتصاد وفى موارد الطبيعة. وكل هذا يعود لاتفاقات التجارة الحرة التى توقعها الحكومات لتسلم بها إدارة حقوق المياه إلى مثل هذه الشركات.

■■■

Argentina and the IMF

(الأرجنتين وصندوق النقد الدولى)

Michael Mussa

Institule for International Economics, 2002, 80PP., £ 15.95

فى هذا الكـتـاب يحلل رئيس الخـبـراء الاقـتـصـاديين فى صندوق النـقـد الدولى أسـبـاب الأزمـة الأخـيـرة فى الاقـتـصـاد الأرجنـتـيـنى والأخطاء التى قـــام بهـــا الصندوق فى تأييده لسياسات اقتصادية غير ملائمة.

أنثروبولوجى

أفارقة بين عالمين

فرنسيس وفيق

القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٢

تميز السودان بتعدد ثقافاته وعناصره الحـضـاريـة وهـو مـا يـمـنـحـه خـصـوبـة وخصوصية هائلة بفعل هذا التنوع وتعدد مستوياته، وتمثل قبائل الدينكا صورة من صور هذا التنوع فى السودان، وهو ما يدور حـولـه بـحـث المـؤلف. إذ تـنـتـمـى الدينكا إلى الحضارتين الأفريقية والعربية وتكتسب من كلتيهما قدرًا وهو مـا يـمـنـحـهـا فـرادتـهـا بوصـفـهـم أفـارقـة بين عـالمين: عـربى وأفريقى.

بيئـــة

البراكين والزلازل وأثرها على البيئة

مصطفى محمود سليمان

القاهرة: دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٢

بقدر مـا تـثـيـره البـراكـين والزلازل من أشجان ومـخـاطر على حـيـاة البشـر وبقدر الدمار الذى تلحقه بالناس والممتلكات من ضحايا، فإن لها تأثيرات أخرى بعضها إيجابى وأكثرها سلبى، لكنها إجمالاً تؤثر على البـيـئـة وعلى خصوبة التربة وتغيِّر طبيعة التربة ودرجة خصوبتها، هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

■■■

The Skeptical Environmentalist

(البيئى المتشكك)

Bjorn Lomborg

Cambridge UP, 2001, 540PP., $ 17.95

المؤلف يـتـحـدى الاعـتـقـاد الـواسـع حـالـيًا بان الوضع الـبـيـئـى فى الـعـالم يـتـجـه من سيئ إلى أسـوأ. فـبـالرغم من كـونه عـضـوا سابقًا فى جماعة السلام الأخضر وأستاذا فى علم الإحصاء، يرى لومبورج أن الكثير من المنظمات البيئية تستخدم معلومات علمية انتقائية تنتج عنها نتائج مضللة عن القضايا البيئية العالمية التى يتم التصدى لمعالجتها.

وينتهى لومبورج إلى أن أسباب التفاؤل تفوق أسـبـاب الـتـشـاؤم بـالـنـسـبـة لقـضـايـا الـبـيئـة فى الـعـالـم، إلا أن هذه ليست دعوة للتـقـاعس وإنما دعـوة لـتـرتـيـب الأولويات ومحاربة المشاكل الحقيقية وليس المشاكل المتخيلة.

تـــاريـخ

الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر

جوان كول

ترجمة: عنان على الشهاوى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

كان مدهشًا ألا يقدر عامة الناس ما قام به عـرابى وزمـلاؤه، بل إن كـثـيـرين حـمَّلوه مسئولية الاحتلال الإنجليزى لمصر وأطلقوا على حركته الثورية ونضاله اسم «هوجة»، وقد عـانى عرابى عقب عودته من المنفى من الازدراء والإقصاء، لكن المتضمنين والمقدِّرين لنضـال الشـعـوب فى سـبـيـل اسـتـقـلالـهـا وضعوا حركة عرابى فى إطارها الصحيح، وفى هذا الكتاب استعراض لجانب مهم فى تكوين المشاركين فى حركة عرابى من حيث أصولهم الاجتماعية وخلفياتهم الثقافية والعلاقات بينهم وبين السلطة العثمانية التى كانت سائدة آنذاك وموقع هذه الحركة فى سياق الحركات التحررية فى العالم.

■■■

آلهة وأساطير مصر القديمة

روبرت آرمور

القاهرة: الجامعة العربية، ٢٠٠٢

تعددت الآلهة فى مصر القديمة حسب عطاءاتها وتصورات المصريين القدماء عنها، فهذا إله الخصب والنماء، وذاك إله الشمس وآخر للخصوبة.. إلخ، وهى فكرة كانت شائعة عند أصحاب الحضارات القـديـمـة حـتـى جـاء أصـحـاب الأفكار الـتـوحـيـديـة مـثـل إخناتون الذى دعـا إلى عـبـادة الإلة آتون وحـده والانصراف عـمن دونه من الآلهة، وقد عبر الأدب والأساطير المصـريـة الـقـديـمـة عن هذه الفكرة، وهو مادارت حوله دراسات المؤلف الذى تحدث عن «رع» عند المصريين القدماء والدلالات الدينيـة والرمـزيـة فى أسطورة إيـزيس وأوزوريس، وعدد آخر من النماذج الأدبية والفنيـة التى تشيـر إلى فلسـفـة الشـعب المصرى وأفكاره عن الآلهة والأديان.

■■■

Barbed Wire: A Political History

(الأسلاك الشائكة: تاريخ سياسى)

Olivier Razac

Translated by: Francoise Knight

New Press, 2002, 112PP., $22.95

ابتدعت الأسلاك الشائكة أول مرة فى الولايات المتـحـدة عـام ١٨٧٤ كطريـقـة رخيصة لحماية المزارع من الحيوانات البـرية. ثم مـا لبـثت أن اسـتـخـدمت كـأداة سيـاسـيـة لفصل السكان من الأمريكيين الأصليين عن المهاجرين البيض وتحديد إقامتهم. يقول المؤلف الفرنسى لهذا الكتاب إن الأسلاك الشائكة أصبحت تمثل الإدارة السـيـاسـيـة للفـضـاء وأداة للتنظيم الاجتماعى. وهو يتتبع دورها التاريخى فى الحـرب الـعـالمـيـة الأولى، حـين أحـدثت الأسلاك الشائكة ثورة فى معارك الخنادق، كما لحق بها تطور آخر عندما أصبحت مكهربة فى عصر النازية. ويصل أوليفيه رازاك فى دراسـتـه الـتـاريـخـيـة إلى دور الأسلاك الشائكة فى مـخـيـمـات اللاجئين الفلسطينيين فى الشرق الأوسط، وما تمثله من إهانة إنسانية وفصل عنصرى فج.

حيوانات أليفة

The Other End of the Leash: Why We Do What We Do Around Dogs

(الطرف الآخـــر من السلسلة: لماذا نتعامل هكذا مع الكلاب)

Patricia Mc Conneli

Ballantine, 2002, 272PP., $ 29.95

تعمل المؤلفة أستاذًا فى علم الحيوان ومتخصصة فى سلوكيات الحيوان، وهى تتوجه فى هذا الكتاب إلى محبى الكلاب من أجل تحـسـين طرق الاتصـال بين الكلب وصاحبه. فلتوفير البيئة الصالحة للكلاب يجب أن نـحـسن فـهـمـهـا، والنصـيـحـة الأساسية التى تؤكدها المؤلفة لصاحب الكلب أن يراقب تصرفات نفسه، لأن الكلب يراقبه جيدًا وقد يخطئ فى فهم الإشارات التى يطلقها.

■■■

The Character of Cats: The Origins, Intelligence, Behavior, and Stratagems of Felis Silvestris Catus

(شـخـصـيـة القطط: الأصل والذكـاء والسلوك والاسـتـراتـيـجـيـات الـخـاصـة بالقطط)

Stephen Budiansky

Viking, 2002, 256PP., $ 24.95

يـبـحـث المؤلف فى الطبيعة الغامضة للقطط المنزلية التى تعد أقل الحيوانات الأليفة ترويضًا. وهو يتتبع جينات القطط وخصالها من أجدادها الأفارقة، ويحاول الارتكان إلى نتـائج الأبحـاث العلمـيـة والمعملية التى لاحظت وسجلت السلوكيات الغريبة للقطط. وهو يأتى ببعض النتائج منها أن القطة وهى مازالت صغيرة تكون كائنًا اجتماعيًا ولكنها تميل للعزلة مع التقدم فى السن، كما يفسر الظاهرة الغريبة التى تجعل القطط تتجه صوب الشخص الذى لا يحبها، والسبب فى رأيه أن مثل هؤلاء الأشخاص يتجنبون النظر للقطط مما يزيد من اطمئنان القطط إليهم.

■■■

Parrot Training: A Guide to Taming and Gentling your Avian Companion

(دليل لتدريب وترويض الببغاء)

Bonnie Munro Doane

John Wiley, 2002, 216PP., $ 18.99

يقدم هذا الدليل أساليب تدريب مختلف أنواع الببغاءات، كما يناقش أسباب الإقدام على تدريب الببغاء، وانعكاس سلوك مالك الـبـبـغـاء على نتـائج التـدريب، وكيـفـيـة التـعـامل مع صغار الببغاءات وتعويدها على الطاعة.

يضم الكتاب فصولا عن تعليم الببغاء الكلمـات والتـحـدث والحـيـل والألعـاب المسلية، وكذلك تدريبه على النظافة.

دوريـــــات

الفن المعاصر

رئيس التحرير: فوزى فهمى

القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٢

عدد جديد من هذه الدورية المحكمة، تقدم فى باب وثائق ثقافية، الوثيقة الأمريكية التى تفرض الهيمنة الثقافية والأيديولوجية الأمريكية على العالم، وتقدم تعليقًا لبعض المفكرين عليها، فضلاً عن الأبواب المخصصة للمسرح والسينما والنقد والتراجم وغيرها.

■■■

نظـــرة

مدير التحرير: عصام زكريا

القاهرة: سمات للإنتاج الفنى، ٢٠٠٢

دورية مستقلة تعنى بتاريخ صناعة السينما سواء من الناحية الإنتاجية بإلقاء الضوء على الشـركـات الإنتـاجـيـة التى أسهمت فى النهضة الصناعية لفن السينما مثل شركة محمد بيومى وشركة عزيزة أمير وآسيا وغيرهم، وكذلك من الناحية الفنية والمدارس التى تأثرت بها صناعة السينما فى مصر، كما تتضمن الدورية حوارات مهمة عن السينما وعالم المهرجانات.

روايـــــة

رائحـة البحـر

طالب الرفاعى

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

رواية جديدة للكاتب الكويتى، ترسم شخصياتها تفاصيل الواقع فى إطار من المشـاعـر المتناقـضـة مـثـل الحب والكره والقسوة والرحمة.. إلخ. وصدرت للمؤلف من قبل رواية «ظل الشمس» فى القاهرة.

■■■

قـــــراءات جـــــديـدة

Cleopatra's Heir

(وريث كليوباترة)

Gillian Bradshow

Forge, 2002, 496PP., $ 25.95

تدور أحداث هذه الرواية التاريخية فى الصحراء المصرية وفى مدينة الإسكندرية القديمة. فالمؤلف وهو أستاذ فى التاريخ القديم استخدم معرفته بالتاريخ اليونانى والرومانى فى نسج روايته التى تقوم على تخيل مصير سيزاريون ابن كليوباتره من يوليوس قيصر.

"سياسة"

التقرير الاستراتيجى العربى لعام ٢٠٠١

رئيس التحرير: حسن أبو طالب

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢.

يناقش التقرير الاستراتيجى العربى لهذا العام أحداث وتطورات العالم العربى والتفاعلات الإقليمية والصراع العربى الإسرائيلى من خلال البيئة الدولية قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر وبعدها.

■■■

الاتحاد الأفريقى ومستقبل القارة الأفريقية

تحرير: محمود أبو العينين

القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ٢٠٠٢

يضم الكتاب مجموعة الأبحاث التى ناقشتها ندوة التحولات الأفريقية فى السنوات الأخيرة، والمشكلات التى ترتبت عليها وكيفية مواجهتها فى إطار الوحدة الأفريقية والتعاون بين دول القارة السمراء فى مواجهة التكتلات العالمية والاختلالات فى موازين القوى.

■■■

الديمقراطية المزعومة فى إسرائيل

محمد صلاح سالم

القاهرة: دار عين للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

أربعة محاور تتناول حقيقة الديمقراطية المزعومة فى إسرائيل، تبدأ بالظروف التاريخية التى مهدت لنشأة إسرائيل على حساب أهل فلسطين، ثم نظام الحكم والأحزاب الفاعلة فى إسرائيل وسيطرة العسكر عليها، وثالثا الطبعة الغنصرية للكيان الاستيطانى الإسرائيلى، وأخيرًا: التناقض بين طبيعة الدولة الإسرائيلية والمفاهيم الحقيقية للديمقراطية.

■■■

المشاركة السياسية للمرأة - خبرة الشمال الأفريقى

حمدى عبد الرحمن

القاهرة: الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية، ٢٠٠٢

رؤية تحليلية لقضية المشاركة السياسية النسوية فى بلدان الشمال الأفريقى، والمسألة الأساسية أن المؤلف يربط بين ارتفاع معدلات التنمية والرفاهية وزيادة المشاركة السياسية للمرأة فى البرلمان وغيره من الجمعيات الأهلية والتجمعات الإقليمية، وهو ربط مهم، فثمة علاقة وثيقة بين الجانبين.

■■■

خطاب الديمقراطية

عبدالغنى أبوالعزم

المغرب: مؤسسة الفن للنشر، ٢٠٠٢

تاسس خطاب الديمقراطية على مبادئ وحقوق الإنسان القائمة على ركيزتين أساسيتين هما الحرية والمساواة، إذ لا ديمقراطية فى غيابهما وهاتان الركيزتان متضمنتان فى كل الديانات السماوية، بما يعنى أنه لا تعارض بين الديمقراطية حتى فى صيغتها الغربية والتعاليم الدينية.

"سير ومذكرات"

ذكريات من حياتى

عبد العظيم أنيس

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يعرف الكثير عبد العظيم أنيس بوصفه أستاذًا لامعًا فى مادة تخصصه «الرياضيات»، لكن أكثر من هؤلاء يعرفونه بوصفه مفكرًا يساريًا مرموقًا ومثقفًا له إسهامات مهمة فى النقد والإبداع والحقل الثقافى بعامة، وفى هذه الذكريات يلقى أنيس أضواءً على محطات مهمة فى حياته لا يعرفها كثيرون، منها عمله الصحافى بجريدة المساء، واعتقاله فى أواخر الخمسينيات ونضاله فى محافل فكرية وسياسية عديدة، فضلاً عمن أثروا فى مسيرته من أمثال طه حسين وثروت عكاشة وجيفارا وآخرين.

■■■

حوارات مع حمدان

عمر الفاروق

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

مثّل المفكر الكبير جمال حمدان حالة إنسانية وإبداعية خاصة، سواء بعطائه الفكرى الفذ فى مجال تخصصه «الجغرافيا» أو الموضوعات المهمة التى انشغل بها والتى تصب جميعها فى مجرى الإيمان بدور مصر ومكانتها وتأثيرها فى محيطها خصوصًا فى مجلده المرجعى «شخصية مصر.. دراسة فى عبقرية المكان»، وكذلك كتاباته عن الصهيونية واليهودية وخطر إسرائيل على المنطقة، وقد كانت نهايته الفاجعة والمأساوية فى آن معًا استكمالاً لمسيرة حياته التى جنح فيها إلى العزلة التى كانت سببًا فى عطائه الفذ، وهذا الكتاب حوارات مع جمال حمدان عبر عطائه على مدى أكثر من نصف قرن.

■■■

لاجئ فى لندن

حمدى الحسينى

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

خبرة شخصية يقدمها المؤلف لحياته فى مدينة الضباب التى يعيش تحت سمائها مئات الألوف من العرب والمسلمين، والمؤلف يركز بالذات على شخصيات إسلامية دعوية وراديكالية اتخذت من لندن مركزًا لنشاطها من أمثال كمال الهلباوى الذى يحاوره المؤلف، ويقدم رؤية لإعادة - أو محاولة إعادة - الخلافة الإسلامية هناك، ويستحضر رؤاه للعوالم الأخرى للمدنية: الجاسوسية والبزنس والإعلام وغيرها.

■■■

من الصخيرات إلى تازمامارت

محمد الرايس

ترجمة: عبدالحميد جماهيرى

المغرب: دار أفريقيا، ٢٠٠٢

يروى المؤلف معاناة عشرين عامًا من التعذيب والحرمان والمعاناة داخل معتقل تازمامارت المغربى، وفى هذا المعتقل شهد المؤلف موت أكثر من ثلاثين معتقلاً تحت وطاة التعذيب وخرج ليحكى لنا عن هذه المأساة المروعة.

"شعر"

أيام الزهر

أنيس مسلم

بيروت: التعاونية اللبنانية للتاليف والنشر، ٢٠٠٢

جدلية فلسفية فى العشق والتغنى بالمحبوبة فى زمن طغت فيه الماديات وتراجعت نداءات الأرواح، من نص «الحنين شراعى: الحنين يقطر ذاتى / ينثرها ألحانًا على أرصفة المدينة / نسمًا عليلاً ينثرها على شرفات المنازل.

"علم نفس"

الحكمة الضائعة

عبد الستار إبراهيم

القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٢

ثمة فكرة شائعة تربط بين الفنون والجنون. والعبقرية والشيزوفرينيا، المؤلف يفند هذه المقولات ويشير إلى ارتباط الإبداع بالحكمة والتفكير العلمى المنطقى، وبعد المسافة بينه وبين الشيزوفرينيا والاضطرابات النفسية ويؤكد على أن الإبداع هو قمة الاتزان والتميز العقلى.

■■■

علم النفس العيادى

مصطفى سويف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

خمسة فصول عن هذا الفرع المهم لواحد من علماء الاجتماع والنفس الأفذاذ فى مصر والعالم العربى، هى علم النفس العيادى وحياتى وخبرات شخصية والبعد الحضارى فى العمل العيادى والعلاقة بين علم النفس والطب النفسى فى الحاضر والمستقبل.

■■■

Pretending and Imagination in Animals and Children

(المحاكاة والخيال فى الحيوانات والأطفال)

Robert W. Mitchell (editor)

Cambridge UP, 2002, £ 55.00

من المعروف أن أنشطة الأطفال مليئة بالخيال والتقليد أو المحاكاة، ولكن من اللافت للنظر أن الحيوانات أيضًا تظهر بانشطة مشابهة. يسعى هذا الكتاب إلى مقارنة مثل هذه الأنشطة فى كل من الأطفال والحيوانات للوقوف على العوامل النفسية والاجتماعية التى تؤثر على المحاكاة والخيال عند الأطفال.

"علوم"

البدايات.. قصة نشوء الإنسان فى الحياة والأرض والكون

إسحق عظيمون

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

تتعدد الروايات بشأن نشوء الكرة الأرضية ووجود الإنسان فوقها، لكن الرواية الأرجح تشير إلى الانفجار الشديد الذى تعرض له الكون واصطدام عديد من الكواكب والنيازك وطغيان البحار على اليابس مما أدى إلى اختفاء كائنات وظهور كائنات أقدر على التكيف كان بينها الإنسان، هذه قصة البدايات كما يرويها الكتاب.

■■■

النجاة

الناصر لدين الله أحمد عبد الهادى

تحقيق: إمام حنفى سيد عبد الله

القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٢

يناقش المؤلف مجموعة من المفاهيم التى قام عليها علم الكلام مثل مفهوم الحرية فى العقيدة الإسلامية، وأفعالنا هل هى مخلوقة أم حديثة، ومفاهيم أخرى مثل الجبر والاختيار والقضاء والقدر، ويستخدم المؤلف النصوص القرآنية لتقريب الدلالات.

■■■

Mapping Human History: Discovering the Past Through our Genes

(ترميم تاريخ الإنسان «البشر»: اكتشاف الماضى من خلال الجينات)

Steve Olson

Houghton Mifflin, 2002, 304PP., $25.00

«البحوث الجينية على وشك أن تنهى خبرتنا الطويلة السيئة بالعنصرية»، هكذا يقول المؤلف الذى يتناول النتائج الحديثة للدراسات الجينية واللغوية والأثرية التى تثبت أن كل فرد من الستة مليارات نسمة التى تسكن كوكب الأرض من أصل واحد، وحواء واحدة، التى سكنت مكانًا ما فى شرق أفريقيا من حوالى ١٥٠,٠٠٠ عام.

أما التنوع فى الشكل الخارجى للبشر فمصدره الانتخاب الطبيعى والحوادث الجينية. فلا توجد قاعدة لافتراض أساس بيولوجى أو حيوى للفروق العنصرية أو العرقية فى العادات والأمزجة أو أسلوب الحياة.

قـــــراءات جـــــديـدة

فكر ديني

الإسلام وقضايا الشباب
الشيخ: منصور الرفاعي عبيد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢
عنيت الشريعة والتعاليم الإسلامية بمعالجة قضايا المجتمع وتنظيم العلاقات بين الناس كي تكون حياتهم أفضل، ومن بين الفئات التي اهتمت بها الشريعة الشباب، خصوصًا مع ظهور مشكلات جديدة ومخاطر مستحدثة مثل شيوع المخدرات والبطالة والزواج العرفي وغيرها، والمؤلف يبسط الحلول الإسلامية لهذه المشكلات وكيفية تجاوزها.

■■■

حقيقة الحجاب وحجية الحديث
المستشار: محمد سعيد العشماوي
القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، ٢٠٠٢
يناقش المؤلف الأدلة الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية عن الحجاب وتفسير المفتي وعدد آخر من الأئمة لها، ويقدم موقفه من قضية الحجاب والأحاديث التي تشير إليه، ويعرض كذلك لطرق جمع الحديث النبوي وكيفية التمييز بين الصحيح والموضوع منها.

■■■

One People, Two Worlds: A Reform Rabbi and an Orthodox Rabbi in Search of Common Ground
(شعب واحد وعالمان: حاخام إصلاحي وحاخام أرثوذكسي يبحثان عن أرضية مشتركة)
Ammiel Hirsch and Yosef Reinman
Schocken, 2002, 352PP., $ 26.00
تبادل اثنان من الحاخامات اليهود المثقفين أربعين رسالة إلكترونية عبر الإنترنت في مناظرة فكرية استمرت من يناير ٢٠٠٠ إلى أكتوبر ٢٠٠١. اعتمد كل حاخام على آيات من الكتاب المقدس والتلمود وكتابات الفلاسفة والحاخامات للدفاع عن حجته.
تركزت القضايا محل النقاش في كل من وضع المرأة، والصهيونية، والشذوذ الجنسي، والاندماج، ودولة إسرائيل.

فنون

A Passion for Orchids: The Most Beautiful Orchid Portraits and Their Artists
(أجمل لوحات زهرة الأوركيد والفنانين الذين صوروها)
Jack Kramer
Prestel, 2001, 128PP., $29.95
كانت زهرة الأوركيد دائمًا مصدرًا لإعجاب وإلهام الفنانين والكتاب والمؤرخين بسبب جمالها الغامض وأنواعها الكثيرة التي تعد بالآلاف. هذا الكتاب الذي يقدمه أهم خبراء زهور الأوركيد في أمريكا يحتوي على التاريخ الثقافي والفني لهذه الزهرة الفريدة من خلال استعراض ستين لوحة للزهرة لمختلف الفنانين والمصورين.

■■■

Blind Faith: The Miraculous Journey of Lula Hardaway and Her Son, Stevie Worder
(الإيمان الأعمى: معجزة لولا هارداواي وابنها شتيفي وندر)
Dennis Love and Stacy Brown
Simon & Schuster, 2001, 272PP., $24.00
ولد ستيفي وندر مصابًا بالعمى في عام ١٩٥٢ لأب سكير ومتوحش أرغم زوجته على الدعارة لكي تطعم أسرتها، وكان ستيفي وندر يعزف الآلات الموسيقية في الشوارع من أجل قطع النقود المعدنية. وكانت موهبته طاغية حتى احترف العزف على البيانو والهارمونيكا وآلات الإيقاع والأرغن وهو مازال صبيًا، دون دروس من أحد.
يروي هذا الكتاب مشوار ستيفي وندر مع الغناء والموسيقى والشهرة وكيف استطاع أن يعوض أمه عن حياتها المأساوية.

لغة

التخلف الآخر
محمد الزواوي
المغرب: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢
تدور فصول الكتاب حول ما يسميه المؤلف بالتخلف الآخر، وهي ظاهرة لغوية وثقافية ونفسية تنتشر في مجتمعات العالم الثالث المعاصرة ترتبط أكثر بالتخلف اللغوي الثقافي النفسي، وبحسب المؤلف فإن التخلف في هذين المعلمين أي تخلف اللغة العربية وتهميشها يؤدي إلى اغتراب الفرد في مجتمعه ويضاف إلى التخلفات الأخرى في الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا.

■■■

التعريب ونظرية التخطيط اللغوي
سعد بن هادي القحطاني
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢
يستعرض الكتاب الأساليب التي تنتهجها المجامع اللغوية العربية عند وضع المصطلحات. ويتناول بالتحليل القرارات والندوات والأنشطة المتعلقة بالتعريب في المملكة العربية السعودية، وشيوع الكلمات المعربة في مجال الصحافة.

للأطفال

أنا مسئول.. كلنا مسئول
سلسلة النملة
بيروت: جمعية الإنماء الاجتماعي والثقافي، ٢٠٠٢
تدريب الطفل على المسئولية والإحساس بأهمية دوره وتأثيره هو البداية الصحيحة لإدراك معنى الحرية وفي المقدمة منها حرية التعبير، فبهذا التزاوج بين إدراك الحرية والمسئولية معًا يتدرب الطفل على التفكير العلمي وموضوعية التحليل، كما يقدم الكتاب بعضًا من المفاهيم التي يسمع عنها الطفل دون أن تتسع مداركه لاستيعابها على الوجه الصحيح مثل العدالة الاجتماعية والتكافل وغيرها.

■■■

موسوعة كتّاب الأطفال في العالم العربي
إعداد: محمود قاسم
القاهرة: إدارة الطفولة بجامعة الدول العربية، ٢٠٠٢
تتضمن الموسوعة أسماء مبدعي كتب الأطفال في العالم العربي كله، سواء كان هذا الإبداع قصصًا أو ترجمات أو مسرحًا، ويجري الإعداد لطبعة جديدة تتضمن أشهر رسامي كتب الأطفال أو المجلات المتخصصة في مجال الطفل مثل بهجت وبيكار واللباد والتوني وغيرهم.

مدن

الإسكندرية
مجموعة من الأساتذة
القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٢
خمسة مجلدات من القطع المتوسط ترسم صورة حضارية لمدينة الإسكندرية، التي كانت عاصمة العالم الثقافية في مرحلة تاريخية ممتدة منذ إنشائها في القرن الثالث قبل الميلاد، والسعي لإحياء هذا الدور مع إنشاء مكتبة الإسكندرية واستعادة المدينة كمنارة ثقافية.

مسرح

بيتر بروك
فاروق عبد القادر
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢
يعود اهتمام المؤلف بالمسرحي بيتر بروك إلى بدايات اهتمامه - المؤلف - شخصيًا بالمسرح، وكتابه هذا عن بيتر بروك ليس هو الأول بل سبق له أن أصدر كتبًا عنه بوصفه واحدًا من الظواهر المسرحية المهمة في القرن العشرين مخرجًا ومؤلفًا وناقدًا، وإلى جانب الدراسات الجديدة عن بيتر بروك التي يضمها الكتاب، جمع المؤلف بعضًا من مقالات نشرها عن بيتر بروك في دوريات ومناسبات مختلفة.

■■■

ثلاث مسرحيات شعرية
حامد طاهر
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٢
ثلاث مسرحيات يضمها كتاب هي «درويش السقا» و«أربعة رجال في خندق» و«الأشجار ترتفع من جديد»، يجمعها خيط واحد هو رفض الاستسلام للواقع المأساوي وتحدي المخاطر والحلم بواقع جديد، في الأول رفض لقسوة السلطة التركية وآلياتها المتخلفة. والثانية رفض للاستعمار الصهيوني والثأر من اليهود بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، والثالثة رفض للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين المحتلة ومقاومته بكل الوسائل.

مقالات

تاكسي الكلام
صافي ناز كاظم
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢
مجموعة كبيرة من المقالات في قضايا مختلفة وموضوعات متنوعة نشرتها المؤلفة على مدى ثلاثين عامًا، في النقد والأدب والسياسة والاجتماع والقضايا الدينية والموضوعات الفكرية التي كانت محل جدل في حينها.

ملكية فكرية

التعليق على قوانين الملكية الفكرية والأدبية
عبد الفتاح مراد
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢
يتضمن الكتاب التعليق القانوني على القانون رقم ٣٥٤/ ١٩٥٤ بشأن حماية حقوق المؤلف المعدل والقوانين السابقة عليه، وهما قانون براءات الاختراع ١٣٢/ ١٩٤٩، وقانون العلامات التجارية ٥٧/ ١٩٣٩، وعلاقة هذه القوانين بالقانون الجديد لحماية الملكية الأدبية والفنية.

■■■

حقوق الملكية الفكرية: رؤية جنوبية مستقبلية
رءوف حامد
كراسات مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢، ٦٦ص
يشير الكتاب إلى حتمية تكتل دول الجنوب من أجل محاولة معارضة وتغيير اتفاقية حقوق الملكية الفكرية، حيث يؤكد أن هذه الاتفاقية تم إقرارها من خلال الجهود الشرسة للشركات المتعددة للجنسية والبلدان المتقدمة.
يحلل المؤلف الدكتور رءوف حامد التناقضات الكامنة في الاتفاقية، كما يضع مقترحًا مفصلاً للتغييرات المطلوبة فيها لكي تتفق مع مصالح شعوب الجنوب.
وفي النهاية يستعرض المؤلف الجديد الإيجابي الذي طرأ على الاتفاقية خلال المؤتمر الوزاري الرابع لمنظمة التجارة العالمية الذي عقد في الدوحة في نوفمبر من عام ٢٠٠١.

■■■



"ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء . مثلها مثل المقالات ذاتها . لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها"

معرفة كلية أم جهل كلى!

قرأت فى العدد الأخير من مجلة «الكتب وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٢) عرضًا لكتاب فوكوياما الأخير «نهاية التاريخ ليست نهاية التاريخ.. مرحلة ما بعد الإنسان»، وخرجت بانطباع أنه نوع من الدجل الفكرى فى إطار علمى!! وأنه تعبير دقيق عن حالة الغرور بالقوة السائدة الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية. وتعبير دقيق عن استغلال الفكرة الطوباوية التى تبشر بنهاية عهد الآثام وبداية عهد جديد من التطهر يقود فيه المسيح المنتظر شعب الله المختار لسيادة العالم المثالى الجديد، وهو - أيضًا - تعبير دقيق عن حالة ادعاء المعرفة (الكلية؟) عندما تسيطر على التفكير حالة الجهل (الكلية؟) نتيجة لطمس الغرور الفكرى على توجيه العقل الصائب والسليم.

كيف؟

المعرفة الشاملة تبدأ من معرفة الأسباب الجزئية، وكنت قد سألت الدكتور/ أحمد زويل سؤالاً جدلياً عن ترتيب الطاقة والمادة والحركة والزمن فى سلسلة السعى إلى معرفة التوازن الكونى الكبير. ولم أكن أنتظر منه إجابة لأن المقام لم يكن مناسبًا للمقال.. بل كنت أقصد إلقاء حجر فى بحيرة الاجتماع التى يضطرب ماؤها بتساؤلات مكرورة أو شخصية.

وجاء عرضكم لكتاب فوكوياما كأنه يصنع المقام المناسب لمقال التفكير والبحث فى الإجابة عن ذلك التساؤل الجدلى. وأيضًا للإطلال على الآفاق المتسعة - بلا حدود - للعلم بالكون الكبير.

التسلسل «المنطقى» للإجابة عن تساؤلى «الجدلى» يقول: إن الطاقة وهى جسيمات شاردة قد تكثفت إلى مادة عندما انتظمت بالحركة (بقوة إرادة كن)، وأنه بحركة المادة ولد الزمن.. والعكس بالعكس.. لو سكنت الحركة (جدلاً).. يقف الزمن.. وتنفرط المادة إلى طاقة شاردة مرة أخرى بلا نظام، وتحاول أن تبحث عن توازن بديل عن الذى كان بالحركة الأولى! هذا يعنى أن الغائية النهائية - لكل ما هو كائن - هى الوصول إلى توازن لن يدرك أبدًا!؟

قال طومسون عام ١٨٨٢م: إن الجسم المكهرب تزداد كتلته إذاتحرك وسمى الزيادة بالكتلة الإلكترومغناطيسية، وقال لورنتز عام ١٨٩٥م: انكماش مادة الجسم نتيجة الحركة يحدث على مكوناتها من الإلكترونات فقط وكلما زادت السرعة زاد الانكماش. وكان التساؤل هل هذه الزيادة فى الكتلة مطلقة؟ أى لا تقف عند حد؟

وكان الرد أقصى سرعة هى سرعة الضوء، وهذا يعنى أن هذه السرعة هى حالة التوازن بين أقصى كتلة لجسيم الضوء ووصوله إلى أقصى طاقة لحركته.. فهل مكونات الضوء جسيمات مادة؟ أم هى موجات طاقة؟

وكان الرد من الشاب آينشتين فى نظريته عن النسبية الخاصة وهو فى السادسة والعشرين من عمره حين قال فى تفسير حركة الأجسام المتحركة بسرعات منتظمة:-

١- لا وجود للحركة المطلقة لقصور وسائلنا الطبيعية للكشف عن وجودها.. وهذا يعنى أيضًا أنه لا يوجد سكون مطلق.. وهو ما كان يسمى بالأثير.. ولكن بعض من الحركة مطلق.. وبعض آخر نسبى.

٢- سرعة الضوء مقدار ثابت، لا يتأثر بحركة مصدر الضوء، أو حركة راصد الضوء. وهذا يعنى أن مقدار سرعة الضوء هو المعيار الوحيد المطلق.

وهذا يعنى أيضًا ثبات القوانين الطبيعية وصلاحيتها لتفسير الظواهر الحركية والضوئية والكهربائية والمغناطيسية فى جميع المناطق المتحركة بحركة منتظمة.

ثم انطلق آينشتين بعد تقديمه النسبية الخاصة ليقدم النسبية العامة التى جمع فيها بين قانون التغير فى كمية الحركة وقانون الجاذبية لنيوتن، وأمكنه من خلال هذا الجمع أن يفسر ظاهرة الجاذبية الأرضية، وكيف تجذب الشمس الأرض. ثم حاول أن يوحد القوانين فى قانون واحد يفسر الظواهر الكبيرة والصغيرة، مادة أو طاقة، فى داخل الذرات أو بين الأجرام فى الكون الكبير (العاقلة وغير العاقلة بالمعيار الإنسانى). ولكنه مات قبل أن يتم حلمه!

ومن هنا يتضح لنا الخلل الفكرى فى أفكار فوكوياما الأخيرة وادعاءاته عن عصر ما بعد الإنسان؟ حين يقول متسائلاً: هل الإنسان العاقل Homo-sapiens هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة التطور التى شهدتها عملية الانتخاب الطبيعى عبر آماد زمنية طويلة، أم أننا نقف على أعتاب ثورة بيولوجية تقودها الهندسة الوراثية بعد أن أمكن التوصل إلى أسرار الجينوم البشرى، وأصبح بوسع التكنولوجيا الحيوية أن تغير الطبيعة البشرية، وترتقى بالإنسان إلى ما بعد الإنسانى؟

لقد أغفل فوكوياما متعمدًا عامل الشمولية لأنه يبشر بسيادة الذين يعرفون أكثر على الكون كله، وظن أن التجارب العملية (المحدودة) تعطيه الحق فى الاستنتاج والاستنباط السليم، وبالتالى فى تعميم تلك الاستنتاجات وإطلاقها كنظريات تبعث على رهبة واحترام للقائمين بها!! وفى الحقيقة سوف يكون خروج الولايات المتحدة الأمريكية على الإجماع الدولى المنعقد فى اتفاقية كيوتو لوقف الانبعاث الضار للغازات الصناعية أشمل تأثيرًا وأكثر ضررًا على التوازن الكبير بين مكونات الغلاف الحيوى حول الكرة الأرضية من تأثير تجاربها فى الهندسة الوراثية عليه، لأن التأثير الناشئ عن تطبيق نتائج تلك التجارب كمثل تأثير إصابة شخص ما (أو حتى جميع السكان) فى جزيرة ما أو مدينة ما على سطح الكرة الأرضية بالبرد أو الزكام على بقية الجنس البشرى.

لقد مارست الحياة - فى بحثها عن التوازن المنشود بتباديل وتوافيق لا نهائية - على طول التاريخ البشرى ذلك الذى يدعيه بتلك التغيرات التى تحدثها المركبات الكيميائية (مثل بروزاك أو ريتالين أو غيرهما) فى تصرفات الإنسان لأن الوظائف الحيوية فى جميع الكائنات نتيجة لمكونات النظام البيئى حولها Eco-System فى الهواء والماء والغذاء وبها جميعًا تتحدد كيميائية مادة الحياة «الدم» المؤثرة على صفات الكائن وخصائصه وردود أفعاله، وما اختلاف الأجناس على امتداد بيئات الكرة الأرضية إلا نتيجة لذلك التفاعل الدائم منذ بدء الخلق الأول على طول الزمن الممتد حتى الآن.

لقد كان من بين القدماء من هرم حتى أصبح مضرب الأمثال، ومن الفراعنة من وصل إلينا جسده وتجاوز بعمره أقصى المعدلات الحالية (رمسيس الثانى)، فطول العمر قديم وليس مستحدثًا أمريكى الصنع. والذكاء والحيوية صفة عامة لسكان المناطق الدافئة حول حوض البحر الأبيض، والقوة الجسدية والنشاط سمة مميزة للأجناس السوداء وهى صفات عامة لها خاصية الشمولية الناشئة عن توازن دقيق فى النظم البيئية الخاصة بكل نطاق بيئى مميز على سطح الكرة الأرضية.

إن الحوادث الحضارية - الإنسانية - مهما كبرت وعظم تأثيرها مثل ضرب هيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية، هى عوارض، الزمن كفيل بغسل آثارها ومحو تأثيراتها. والخلق فى أنابيب كمثل تلك الحوادث عارض، والفطرة أن تحمل المرأة من الجماع مع الرجل وهو الأسلوب الذى يحتمه استمرار الحياة. وقد سجل تاريخ البشرية هلاك المجتمعات التى قننت وحدة الجنس فى الحصول على متعة إطفاء الشهوة.

لقد اكتشفوا فى انجلترا في أول يونيه ٢٠٠٢ آثارًا تدل على أن الإنسان عاش بها منذ سبعمائة ألف عام! فأى إنسان هذا؟ وما هو جوهره؟ وهل كان مثلنا أنا وفوكوياما؟ لا أظن. فما هو التغيير فى جوهر الإنسان الذى بسببه يقول فوكوياما إننا على أعتاب ما بعد الإنسان؟ إن سيطرة نظرية الغرور الأسطورية التى تبشر بالإنسان فوق الكامل Superman (أو السوبر مان) على الثقافة الأمريكية إنما تنبع من كونها، كما قال عنها عمنا الكبير الأستاذ جمال حمدان فى كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرر - ١٩٨٤) فى ص ٣٨١. «ولا بد للباحث الموضوعى أن يعترف، مؤقتًا أو ظاهريًا على الأقل، أننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش أو نكاد نعيش منذ الحرب العالمية الثانية قرن الولايات المتحدة، وأننا نكاد نشهد الآن عصر «أمركة» العالم - سياسيًا كما هو حضاريًا - بعد أن عشنا عصر «الأوربة» فى القرن الماضى. وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم فى غرب أوروبا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم، فإن ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن فيما يبدو إلى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب».

إن صورة المستقبل تتحدد بالمدى الذى يصل فيه الكون إلى قدر من التوازن المطلق، ولن يصله أبدًا!، لأن الوصول إلى السكون غير ممكن أبدًا. ولو وصل المتحرك إلى السكون وقف الزمن، ويتدمر الكون، وهنا تكون نهاية التاريخ الحقيقية ويبدأ من جديد سعى جديد من الطاقة الشاردة لكى تتحول إلى مادة موجهة بالحركة، ومع الحركة يبدأ الزمن الجديد.

إن فوكوياما ابن لثقافة الغرور.. وهى ثقافة المعرفة الناقصة - مهما عظمت - وثقافة التخصص والرؤية الجزئية الدقيقة التى تفتقر إلى شمولية الواقع الفعلى التى تحتم أن يكون الفرد (سواء الجسيم أو ذرة العنصر أو الخلية الحيوية) من أجل المجموع، وأيضًا المجموع (الكون كله) من أجل الفرد (بالمفهوم الشامل).

آفة الغرور تبرر للمؤمن بها اعتقاده الارتقاء إلى قمة جبل يظنه جبل المعرفة وهو فى الحقيقة جبل الغرور أو الجهل بالمعرفة الكلية.

لقد كشف ابن ثقافتنا أحمد زويل ومساعدوه بالعلم التجريبى الفيمتوثانية، وهو نموذج مصغر ودقيق لتزاوج الزمن مع الحركة مع الإنسان العاقل؟ وهو كشف استطاع به تخطى سرعة الضوء (المطلق؟) واستطاع تفتيت الزمن(؟) ونجح فى استخدام ومضات الطاقة (أم المادة؟) كوسيلة فحص، ومن ثم كوسيلة تسجيل، من ثم استطاع رؤية أكبر السرعات فى الحركة بالعين البشرية رغم قصورها؟

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية



كتاب عن الحرب اللبنانية

أرسل هذه السطور إليكم باسمي وباسم العديد من الأصدقاء من قراء مجلتكم والتى نعتبرها منذ صدورها من أهم ما يقدم فى مجال الصحافة المقروءة والمرئية والمسموعة.

وذلك لتقديمها الدراسات المعمقة فى مجالات السياسة والفكر والتاريخ والأدب والفن.. ونحن نعتبر أى عدد منها كتابًا ومرجعًا مهمًا ولا نقرؤها - بل إنها تفرض علينا ألا نقرأها - قراءة عابرة مثل معظم المجلات والصحف، والأهم من ذلك أنها مع مثيلاتها من المجلات - القليلة بل والنادرة فى الوطن العربى - قد كسرت احتكار الفضائيات للإعلام فى هذا الوطن - مع التقدير لجانب غير قليل مما تقدمه تلك الفضائيات - لكن إعلام الفضائيات وبالتالى ثقافته حتى ولو كانت نقية مائة بالمائة لا يمكن أن تغنى عن التلقى عن طريق القراءة التى تحرر خيال القارئ من الصورة والحركة المنظورتين وتسمح له باتخاذ رأى وتكوين وجهة نظر خاصة قد تختلف أو تتفق كثيرًا أو قليلاً مع رأى الكاتب، واختياركم «وجهات نظر» عنوانًا لمجلتكم يبين مدى تقديركم واحترامكم للرأى الآخر، فكل الشكر لما تقدمون وتبذلون «ولن يذهب العرف بين الله والناس».

وباسمى وباسم بعض الأصدقاء القراء أود أن أرسل عبر مجلتكم رسالة إلى الأستاذ الكبير، محمد حسنين هيكل، بل نريد أن نطالبه بتنفيذ وعده الذى ذكره فى كتابه - حرب الخليج أوهام القوة والنصر - ووعده كان أن يؤلف كتابًا عن الحرب الأهلية فى لبنان أو عن الحرب اللبنانية بشكل أدق.

لقد كان للعرب فى الماضى لغات عديدة من مثل - لغة قريش - لغة ربيعة - لغة عدنان... ولقد أنعمت علينا مصر المحروسة - أم الدنيا - على العرب فى القرن العشرين بلغتين جديدتين هما لغتا طه حسين ومحمد حسنين هيكل، رحم الله الأول وأطال بقاء الثانى. ففى لغتى الأستاذين الكبيرين الجرأة فى البحث والطرح والتحليل والسبق فى الكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل والقدرة على الربط، وكل فى مجال من مجالات الفكر ولكنهما يلتقيان فى جوهر واحد وهو البحث عن الحقيقة.

لقد كتب الكثيرون عن حرب لبنان لكن قلة منهم كانوا محايدين، وإننا واعتقد كل العرب بحاجة ماسة إلى رأى الأستاذ هيكل وتحليله واستعراضه الدقيق والموثوق لما جرى فى لبنان منذ حرب ١٩٥٨ حتى حرب ١٩٧٦ وما بعدهما لقد كتب الأستاذ عن حرب السويس وحرب الخليج ويونيو - حزيران وأعتقد أنه آن الأوان لنقرأ له عن حرب لبنان، وأعتقد أن هذه الحرب اختلفت عن الحروب الأخرى التى خاضها العرب - فيما بينهم أو مع الآخرين - فلئن كان مجمل تلك الحروب من أجل الحدود والسيادة والنفط والمصالح الاستراتيجية... إلخ، إلا أن حرب لبنان كانت لها هذه الأهداف وهدف آخر أخطر بكثير، وهذا رأى شخصى أو (وجهة نظر).. وكان ذلك الهدف هو القضاء على أول مشروع علمانى ديمقراطى تقدمى فى العالم العربى بدأه أنطون سعادة وحاول المضى به قدمًا كمال جنبلاط وعدد كبير من المثقفين والقادة الشرفاء فى لبنان وكانت محاولة القضاء هذه بأيد أجنبية وإسرائيلية وعربية - بكل أسف -.

فمن أجل ذلك أشعر أننا بحاجة لقلم الأستاذ هيكل فى هذا الموضوع وأرجو من الأستاذ هيكل أن يجيب عن هذا المطلب من خلال مجلتكم إن أمكن.

ملاحظة: أضم صوتى للقراء المطالبين بفهرس سنوى للمجلة.

المحامى: رفعت عادل بدران
السويداء - سوريا

ملاحظات

لست فى حاجة إلى القول إن مجلتكم الراقية والرصينة تحرص كل الحرص على أن تأتى المقالات وغيرها من المواد الواردة فيها خالية من الأخطاء من حيث المعلومات والحقائق وقواعد اللغة وغيرها، إلا أننى لاحظت بعض الأخطاء فى عدد مايو ٢٠٠٢، ففى مقال (شارون.. من هو.. وماذا يريد؟) يقول د. قدرى حفنى إن شارون عارض إبرام اتفاقية أوسلو ١٩٨٣، كما امتنع فى العام التالى (١٩٨٤) عن التصويت لصالح اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية، وكلا التاريخين خطأ، فالأول هو ١٩٩٣، والثانى ١٩٩٤ (وقد تكرر هذا الخطأ فى أكثر من موقع بالمقال). كما يقول: صرح «لمجلة التايمز»، والواقع أن التايمز «جريدة» وليست مجلة، إلا إذا كان يقصد مجلة (تايم). وذكر د. قدرى أن اسم عائلة شارون الأصلى هو «شينرمان»، بينما يقول الأستاذ يوسف القعيد فى مقاله (أنا أكذب.. أنا أكره.. أنا أقتل.. إذن أنا شارون) إن الاسم هو «تشيرمان»، فأيهما الأصح؟! كما يشير الأستاذ القعيد فى مقاله إلى «سعيد طه بك» قائد القوات المصرية التى كانت محاصرة فى الفالوجا أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وأود أن أصحح الاسم هنا: فهو الأميرالاى (العميد) السيد طه بك، والذى كان يطلق عليه حينئذ لقب (الضبع الأسود).

د. شعبان عبد العزيز عفيفى
كلية الدراسات التجارية - الكويت



عن الحرية

إصدار الحكم

لا يحتاج من يترك للناس يختارون له طريقته فى الحياة من المواهب سوى خصلة واحدة امتازت بها القرود، وهى ملكة التقليد. أما الذى يختار طريقته بنفسه، فإنه يستخدم كل ما أوتى من مواهب، والواقع أن هذا الاختيار يتطلب من صاحبه أمورًا عدة: أولها التأمل ثم التبصر ثم جمع المقدمات للحكم وهذا يستوجب إثارة الهمة، ثم إصدار الحكم، وهذا يتطلب إعمال ملكة التمييز ثم التمسك بالحكم بعد إصداره، وهذا يحتاج إلى قوة الثبات والحزم. فكلما عظم مقدار التصرفات التى يسير فيها الإنسان على حكم اختياره عظمت حاجته إلى تلك المواهب وعلى قدر ذلك يكون استعماله لها وانتفاعه بها.

وقد يهتدى الإنسان بإرشاد غيره إلى بعض السبل الآمنة فيظل بعيدًا عن مواطن الخطر من غير أن يحتاج إلى شىء مما ذكرناه، ولكن إذا تم له ذلك فما قيمة اعتباره مخلوقًا آدميًا؟! إن الأهمية لا تنحصر فى ماهية ما يصدر عن الإنسان من الأفعال، بل هى أيضًا فى ماهية الإنسان الذى تصدر عنه هذه الأفعال.

إن الشهوات والنزعات هى من أخص صفات الإنسان الكامل، ولا يخشى من طغيانها إلا إذا اختل توازنها. والسبب الحقيقى فيما يقترفه الناس من القبائح ليس قوة الشهوات، ولكنه ضعف الضمائر، وليس من الضرورى أن ترتبط قوة الشهوة بضعف الضمير، فعندما يكون المرء متفوقًا على غيره فى قوة العواطف والشهوات، فإن ذلك يعنى أن نصيبه من مواد الفطرة البشرية أوفر، فهو لذلك أقدر ولاشك على عمل الخير، وإن يكن أيضًا أقدر على ارتكاب الشر.





أفيــــون الشـــعـــوب

فــى زمـــــن الــعـــولـــمــة

حتى وقت قريب، كانت الكتابة عن الأنشطة الرياضية مقصورة على طائفة محدودة من محررى الصفحات الرياضية فى الصحف والمجلات.. قبل أن تتحول فى السنوات الأخيرة ومع الانفجار الهائل فى اهتمام شعوب بأكملها بكرة القدم، إلى سوق مكتظة بالكتب، يفتح بعضها نافذة ثقافية أمام كتابات أدبية رفيعة، اهتمت بالبُعد الاجتماعى والسياسى والثقافى لظاهرة الولع الشديد بكرة القدم.. ذلك الولع الذى اجتاح شعوبًا وقارات، دولاً كبرى ودولاً صغرى، غنية وفقيرة، متقدمة ومتخلفة.. بدون تمييز بين الطبقات والفئات فى درجة التعليم.

ومن هذه النافذة الثقافية يحق لنا نحن المتفرجين غير المحترفين أن نتساءل: هل أصبحت كرة القدم فى عصر العولمة هى أفيون الشعوب؟ ليس بالمعنى الواسع الذى أرادته الماركسية حين اتهمت رجال الدين بتوظيفه لحساب الطبقات المستغلة لكى تظل الشعوب مخدرة عاجزة عن المطالبة بحقوقها.. ولكن من حيث الوظيفة التى يقوم بها المخدر فى تغييب الوعى لفترة محدودة، هربًا من مشاق الحياة وأعبائها، أو طلبًا للمتعة والتسلية واستجداءً للبهجة وخلو البال.

أضحت كرة القدم أكثر من مجرد لعبة رياضية مثل العشرات من اللعبات الأخرى.. فقد حلت فى استغراقها لعشاقها مكان الدين فى المعابد والكنائس.. واستغنى بها كثيرون عن الولاءات العقائدية والحزبية، وشكلت نوعًا من إدمان العادة التى يستريح إليها الرجل أو المرأة أو الشاب خارج نطاق حياته اليومية.

ولا يكاد يوجد شأن من شئون الحياة يستطيع أن يستولى على اهتمام أكثر من ستة ملايين شخص فى لحظة واحدة على اتساع العالم مثل لعبة كرة القدم، التى تخلق جوًا من الإثارة الجماعية، تمتزج فيها متعة البصر ونشوة الفوز واستنفار الحواس، لتتوارى معها إحباطات الحياة اليومية وملل العادة المتكررة، وتهديدات العزلة التى تفرضها طبيعة الحياة المعقدة فى هذا العصر.



تنطبق المقولة التى تصف كرة القدم بأنها أفيون الشعوب أكثر ما تنطبق على الشعوب العربية والأفريقية وبعض دول أمريكا اللاتينية، حيث فضاء ملاعب كرة القدم هو الفضاء الوحيد الذى يتمتع فيه الناس بحريتهم كاملة دون رقيب أو حسيب، بتشيع الناس لفريق كروى ضد فريق، بمحض اختيارهم ومزاجهم الخاص، دون إملاء أو إجبار أو رقابة من السلطة، بل ودون حاجة إلى التعبير عما فى قرارة النفس كمواطن وإنسان من محبة أو كراهية، ومن تشجيع أو عداء لفريق أو للاعب.

ويذهب بعض المحللين إلى أن أندية كرة القدم فى الدول العربية ملأت فراغ الأحزاب السياسية فى معظم دولها التى انعدمت أو وهنت فيها الأحزاب والقوى السياسية إلى درجة التهافت والإهمال من جانب الجماهير. أو حلت محلها فى الدول التى لا تسمح بقيام أحزاب سياسية، أو تلك التى اكتفت بالحزب الواحد المهيمن والقائد. ومن ثم بلغت درجة التعصب والتأييد من جانب المشجعين فى الدول العربية لناد بعينه حدًا لا تكاد تبلغه فى الدول الأخرى التى يتركز فيها التشجيع للفريق القومى باعتباره ممثلاً ومعبرًا عن الإحساس بالكرامة الوطنية.. فى ظلها تلتئم جراح الانقسامات وتلم شمل الأمة.

وفى الانتخابات الفرنسية الأخيرة كان الرد على الدعوة العنصرية التى أطلقها حزب لوبان. هو تمجيد الفريق القومى الفرنسى الذى يتصدره أبرز اللاعبين من أبناء المهاجرين الأفارقة مثل زيدان. ولعب تزامن الانتخابات العامة فى فرنسا مع مباريات كأس العالم لكرة القدم دورًا مهمًا فى هزيمة حزب لوبان أو إضعافه على الأقل.

وإذا كانت كرة القدم هى المجال الوحيد الذى يمارس فيه العربى حريته كاملة غير منقوصة، وهى عنصر من عناصر توحيد الأمة وتماسكها والتغلب على النزعات العنصرية والإثنية فى عدد كبير من الشعوب الأوروبية ذات الأقليات المهاجرة كما فى فرنسا وبريطانيا وهولندا وغيرها.. فإنها تمثل فى ثقافات الشعوب اللاتينية مصدرًا من مصادر البهجة والسعادة التى تشكل صورة الشعب فى عيون العالم.

وقد حاول المؤلف البرازيلى اليكس بللوز فى كتابه «كرة القدم بالطريقة البرازيلية» أن يقدم نوعًا من أدب الرحلات فى تصويره لعشق الشعب البرازيلى لكرة القدم.. فالبرازيل فى نظر العالم لا يعكس صورتها نهر الأمازون الذى اشتهرت به، ولا الكرنفال بمباهجه الساخنة واحتفالاته الراقصة. بل يعكسها العشق المجنون لكرة القدم. والتى يجد البرازيلى سعادته الحقيقية فيها. ولكن هذا الجنون المغرق بالكرة لا يخفى درجة الفساد المتغلغل فى اللعبة، والذى يتطرق المؤلف منه إلى إلقاء الضوء على كثير من أوجه الفساد المتفشى فى البلاد. فالكرة هنا هى المدخل لدراسة شعب كالشعب البرازيلى تستولى اللعبة على كل تفاصيل حياته. وقس على ذلك معظم الشعوب اللاتينية. ولهذا السبب يحتل نجم كرة القدم مكانة تفوق مكانة أى رئيس أو سياسى ولا تنطفئ جذوة الحماس له والإعجاب به بمجرد اعتزاله كما يحدث مع الساسة، بل تبقى شعلة الاهتمام به فى وجدان الجماهير حية لا تخمد.



لقد كُتب ونُشر الكثير عن دور كرة القدم فى السياسة ودور السياسة فى كرة القدم. وعن التحول الذى طرأ على هذه اللعبة الشعبية فأصبحت صناعة للنجوم، وسوقًا للمضاربات، واستثمارًا بالمليارات، وصراعًا على المكانة والتفوق فى كثير من المجتمعات. ولكن قليلاً من الكتابات تعرضت للبُعد النفسى الذى يغلف هذه اللعبة، ويولِّد شحنات هائلة من الفرح والغضب، من الثورة والتمرد، من المشاعر المكبوتة والانفعالات الطارئة، التى تتحول فى حالات كثيرة إلى نزعات عدوانية تدميرية يصعب السيطرة عليها.. ولا تختلف فى بواعثها ومنطلقاتها عن تلك التى تجتاح الحركات المناهضة للعولمة، وهو ما يجعل هذه اللعبة الشعبية وسيلة وغاية فى آن، وأداة وهدفًا فى وقت واحد معًا.

وفى ظل ثورة الاتصالات ووسائل الإعلام وانتشار الفضائيات، أصبح من السهل التلاعب بأمزجة الجماهير واهتماماتها. فحين يصبح تشجيع نجم أو فوز فريق مصدرًا للبهجة والإثارة، والخروج من حالات الاكتئاب والإحباط العام التى تنجم عن أزمة اقتصادية أو إخفاق سياسى أو كارثة قومية هو السبيل لتجاوز الأزمة، فلا غرابة فى أن تحظى كرة القدم بهذا الاهتمام الهائل من جميع قوى المجتمع المؤثرة بدون استثناء. ولكنها إذا كانت تحقق منفعة بالنسبة للحكومات أو رجال الأعمال والمستثمرين، فإنها بالنسبة لملايين المشجعين من الأفراد العاديين تمثل حياة كاملة بكل ما فيها من أفراح وأحزان وهزائم وانتصارات.



هنالك من يظن أن التحمس والتعصب لفريق أو لاعب قد يصل بالنسبة للمشجع إلى حد اعتباره نوعًا من العبادة التى لا يتزحزح عنها، والتى تصاحب الشخص طوال عمره من الصغر إلى الكبر بدرجة متصاعدة من الثبات مهما طرأ عليها من التذبذب. ولكن دراسات أجريت فى هذا المجال تذهب إلى أن التعصب الكروى هو نوع من التعلق بالخرافات أو الغيبيات وما يتصل بها من تفاؤل وتشاؤم. ينطوى فى أحسن الأحوال على خلق عالم تخيلى أو واقع افتراضى تتعايش فيه الأوهام والحقائق، وتجد الانفعالات اليومية للشخص منفذًا للتعبير، وتفريغ شحنات التوتر والقلق فى تشجيع فريق والانتصار له، وإطلاق الهتافات والشعارات المسجوعة والأغانى المنظومة التى تمجد لاعبًا أو فريقًا بعينه وتحضه على بذل مزيد من الجهد.

ولاحظ معى تلك الطقوس التى يمارسها المشجعون لكرة القدم.. يلبس الواحد منهم أحسن ما عنده ويتجه إلى الملعب وكأنه ذاهب إلى يوم الزينة.. ينسى همومه الحقيقية وخلافاته العاطفية ومشاكله الشخصية فى البيت أو العمل، وتكاليف الدروس الخصوصية ومتاعب العيال، ويخلق لنفسه عالمًا سحريًا مصطنعًا تخيليًا، يعيد فيه إنتاج آماله وطموحاته وتهيؤاته. فإذا حقق فريقه الانتصار وفاز على منافسه، فهى علامة مشجعة إيجابية تومئ بقرب تحقق الآمال. وإذا لم ينتصر فإنه يفرغ توتراته وإحباطاته فى صب الشتائم واللعنات على الحكم أو الفريق الآخر أو المشجعين للفريق المنافس.

وبغض النظر عن الانتصارات والهزائم، فإن التعارف مع آخرين لهم نفس المشارب والميول الكروية يخلق جوًا اجتماعيًا يفتقر إليه المرء فى حياته اليومية. يتبادل معهم الرأى والمعلومات حول هذا اللاعب أو ذاك.. يكتسب من خلاله أصدقاء ومعارف جددًا. ويخرجه من ملل الوجوه القديمة ويفتح له آفاقًا من المغامرة.

فى زمن العولمة، وصدام الحضارات، ونداءات الحرب المتكررة ضد ما يسمى بالإرهاب، واختلاط الرموز والمفاهيم، وثورة المعلومات وحرب النجوم، وعودة التهديدات باستخدام الأسلحة النووية.. خلقت كرة القدم منظومة من القيم التى بسطت سيطرتها على حياة إنسان القرن الواحد والعشرين، لم يعد يمكن الاستغناء عنها، بل أصبحت تمثل نوعًا من الإدمان الجماعى.. يمارسه كل واحد دون أن يشعر ليبلغ ذروة انفعاله فى دورات زمنية متعاقبة على مستوى العالم!

سـلامة أحمد سـلامة

سمعت عن آخر قرض ؟!

دلوقتى تقدر تقسط
السيارة المستعملة
مع البنك العربى
وبأقل سعر فائدة !!

قرض المستعمل

تأمين مجانى على الحياة — أعلى نسبه تمويل

أسعار مميزة للتأمين على السيارة — أطول مدة تقسيط

إذا كنت تريد شراء سيارة جديدة أو مستعملة .. قسط مع البنك العربى



البنك العربى

اتصل الآن ٣٣١٩٩٢٢

٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءاً

Checkmate Adv.